

جامعة الاسكندرية

كلية الآداب

(قسم الماجستير) العلم اللغوية



٤

البحث اللغوي في لبنان

في القرن التاسع عشر

٢٩٣٢



بإشراف الدكتور حسن ظاظا

إعداد رياض قاسم

١٩٧٢

١١٤٣

تأمل في أهمية الموضوع
في الفصلين ١٠ و ١١
نادر بندي

لذلك فإننا نرى، بعد هذا العرض، أن الموضوع هو الموضوع

المقدمة

١ - أهمية الموضوع :

ما جعلني أسعى حثيثا لاختيار البحث اللغوي في لبنان في القرن التاسع عشر ، موضوع
تخصص عال ، في العلوم اللغوية ، ما يعثر حاضرا ثقافتنا اللغوية من لبس وتحمية يذهبسان
بالقارئ العربي عامة واللبناني خاصة مذهبا عاثرا . أما الليس فنادر عن اعتماد قرائنا على
مؤلفات أو مقالات لكتاب توزعتهم الأهواء ، وانداحت لبعضهم على أرض التعصب فتناقلوا من
أسباب الحق ، ووافقوا يقيمون من الأرجح والمحتمل والتخمين شرعة ومنهلا لكل بحث آت .
أما التحمية فمردّها الى ما شاب أبحاثنا اللغوية من أهواء طائفية حجبت عن القارئ
موضوعات خطيرة أو حقائق لا يمكن - بأي عذر - رد انبثاقها .

وخير دليل على ما ذهب اليه ، ما يرين على انتاج مؤلف ضخم كأحمد فارس السدياق
مثلا حيث بقيت مؤلفاته الى يومنا هذا طي النسيان والغفلة في البراج الثانوية والجامعية على
حد سواء ، وما ذلك الا لكونه مسيحيا (عاقا) ، فهو ماروني الاصل ، ثم صار بروتستانتيّا
(انجيليا) ، ثم اعتم بالاسلام دينا وفكرا ومعتقدا .

هذه الصورة الدينية لم تحظ بحطף القيمين على مناهجنا التربوية ، مما يحرم الكتب
من حق تعرف الناس عليه ، وحق القارئ من التعرف اليه .
من هذه الجهة ، نكون قد ردّدنا في بحثنا هذا جانباً منسيا ، غيبناه .
ونكون قد وضعنا للقارئ العربي ، واللبناني خاصة ، ملاح رأي جديد ، كثير
ما حاولنا فيه الاعتماد عن الهوى والميل المذهبي . ايماننا منا بموضوعية البحث ، وتنزهها ،
ابتغاء معرفة بعيدة عن شؤون الذات .

ومن جهة ثانية أخذنا بأسباب التطور المرحلي للسياسة وأحداثها المتعاقبة في القرن الماضي ، وما شهدته المنطقة من اضطرابات دامية ، كثيرا ما عصفت بأمن لبنان واستقراره وجعلت منه ريشة في مهب ريح عتس . ثم تناولنا الاطار الثقافي محددتين ملامح التطور الفكري والديني ، وما كان من ثم للحياة الاجتماعية والاقتصادية من أثر فعال في ذلك كله .

هذا في الباب الأول من البحث .

أما الباب الثاني فخصصناه لعلائق اللغة بالمجتمع من خلال المدرسة والكتاب والمعلم والمنهج التربوي . حيث رصدنا بحثا خاصا للرساليات الأجنبية ودورها في تنوير ملامح المجتمع والفكر عند الانسان العربي عامة ، واللبناني خاصة . جاعلين من التبشير خداة عملية انتهت عن التخطيط الذي قام بوضعه المستشرقون .

لذا رأينا أن نغرد بحثا مقتضيا لبحث شئون الاستعراق من خلال قضية أثره على التبشير

في لبنان فقط . دون أن نتطرق الى تفاصيل ذلك ، وهو ما يخرجنا عن غايتنا في البحث الذي نريد . هذا ، وقد جعلنا لما أصاب اللغة من ازديادية ، سريانية وعربية حيناً ، وعربية وفرنسية أو انكليزية حيناً آخر ، فصلاً قائماً بذاته ، أفسحنا فيه المجال لظهور صفحة جديدة تصور ذلك الصراع الخفي الذي عانته اللغة العربية في القرن الماضي .

وقد جعلنا علاقة اللغة العربية بالمجتمع حجر الركن في كل ما ذهبنا اليه

ابتغاء تحديد ملامح التطور العام .

أما الباب الثالث فقد تناولنا فيه جوهر القضية التي نبحث جاعلين منه فصلاً ثانوية توزعت على البحث اللغوي بكل علومه . فقد رصدنا اتجاهات الدرس اللغوي مبينين ملامح مساره العام عند كل من أحمد فارس الشدياق وجرجي زيدان وإبراهيم اليازجي وسواهم مبتدئين بما كان من اعتقاد عندهم بالفكرة الصوتية ، ونظرية المحاكاة التي لعبت دوراً في نشأة اللغة حسب اعتقادهم ، ثم تناولنا نظرية الثنائية الصوتية في علم الجذور اللغوية ، أو مادي بالمضاعف الثنائي عند نجم القرن أحمد فارس الشدياق وذلك في كتابه " سر الليال في القلب والابدال " .

ثم تناولنا طريقة النقد المعجمي عقب دراسة الصوتيات لأن الشدياقى بنى نقده على هذه النظرية . ولما كان البحث يدور في فلك القضية المعجمية وجدنا من الضروري اقامة دراسة منهجية لكل المعاجم الصادرة في القرن الماضى . بدأ بمعجم " محيط المحيط " ، ومختصره " قطر المحيط " لبطرس البستاني . ثم " أقرب الموارد الى فصيح العربية والشوارد " لسعيد الشرتونى . هذا وقد كنا فصلنا الكلام على معجم " سر الليال " ، لأحمد فارس الشدياقى أثناء حديثنا عن النظرية الصوتية والثنائية لجذور اللغة عنده .

ومعد ، جاء الكلام على النقد المعجمى فدرسنا مناهج النقد عند لقويننا مبتدئين بأعمال رشيد الدحداح في " احكام باب الاعراب " الذى صحح به كتاب " باب الاعراب " لجبرمانوس فرحات .

ثم تهاطنا في الكلام على طريقة الشدياقى في عمله الكبير وهو " الجاسوس على سى القاموس " ، حيث انتقد أعمال المعجميين القدامى وعلى رأسهم الفيروزبادى صاحب " القاموس المحيط " .

أما ختام البحث فكان لما جاء من نقد جزئى يتناول المادة ومشتقاتها عند الشرتونى في " ذيل " أقرب موارد .

هذا الأمر جعلنا نخلص الى تسجيل كلمات كثيرة وضعها هؤلاء في معاجمهم هذه أو أرادوا وضعها . لذا خصصنا الالفاظ المستحدثة وقضية التعريب بمبحث خاص ، بينما فيه أثر النزعة القومية عند هؤلاء الكتاب وما كان عندهم من غيرة على لغتهم وتراثهم .

أما البلاغة فقد ألحقناها بالبحث اللغوى لأنها بقيت ضمن العمل اللغوى العام عند هؤلاء في القرن الماضى . غير أنه لم يكتب لأبحاثها أى نجاح في النصف الاول من القرن ومن الطبيعي ان لا تبقى الابحاث على انكماشها وجمودها ، فقد بدأت معالم الدرس اللغوى الجاد طريقها الى الظهور في أوائل العقد الثامن من القرن وما لبثت أن انبثقت ساطعة على يد جهه وضوطة

في كتابي "خواطر الحسان" و "فلسفة البلاغة" . ولعل الكتاب الأخير يشكل حجر الزاوية في كل الدرس البلاغي الذي نتج عن القرن الماضي . ولأنحسب أن هذا صنيع ضومط لوحد ، فالكتاب جلته مقتبس من الكاتب الانكليزي " هيربرت سبنسر " .

أما علومنا النحوية والصرفية فقد غشيها تأليف مدرسي ومنهج تقليدي جعلنا الفكر اللغوي في انحباس وخمول . ورغم محاولات ناصيف اليازجي في أرجوزة "جوف الفراء" فقد بقيت محاولاته بائسة لم تنهض بالعمل النحوي درجة واحدة . كما أننا تناولنا ما دار من مناقشات نحوية أو صرفية كانت تعقب صدور كتاب أو مقال ، كلك المناقشة الحادة التي دارت رحاها بين الشدياق والأسير والأخذب من جهة ، وإبراهيم اليازجي والشرتوني والبستاني من جهة أخرى .

وأخيرا ، قمنا بدراسة طرق النقد اللغوي ، ومراحل التطور النقدي العام من خلال بحثنا بالسذات . حيث رصدنا الانتاج الأدبي واللغوي معا ، وربطنا اللغويين حسب مدارسهم فكان هناك تياران يتنازعان اتجاهات النقد ، كثيرا ما كان التيار المحافظ يسيطو على تفكير هؤلاء وأعمالهم مما جعله أكثر الابحاث أجراما تدور في فلك القديم وأساليبه .

ولم نترك شوارد هذا النقد اللغوي على حالها ، بل أخذنا بضبطها وفق نسق موحد جرينا عليه منذ مبحثنا الأول . نعننى بذلك التناول الأفقى لأعمال اللغويين دون أن نذهب فى دراسة علم واحد أو اثنين أو ثلاثة بل الكل يندرج تحت مدارس عامة وضعنا لها أسماء أو غيرنا بعض أسماء جاء بها باحثون قبلنا .

٢ - بيان مجمل بمراجع البحث وصلتها به :

- تنقسم مراجع البحث الى قسمين رئيسيين : أولهما مؤلفات لغويي القرن أنفسهم .
- والثانى ماجاء من دراسات حول الموضوع .

أما مؤلفات اللغويين فقد صعب علينا كثيرا الحصول عليها وذلك لندرتها أو عدم وجودها أحيانا . وانا لنسجل هنا ما لمكتبة " جامعة بيروت الأمريكية " من فضل في الحصول على هذه الكتب النادرة ككتاب " ارشاد الوري في تخطئة جوف الفراء " للشيخ يوسف الأسير ، وكتاب " رد الشهم للسهم " أيضا . وكتاب " رد السهم عن التصويب " للشيخ ابراهيم الأحدب . و " السهم الصائب " لسعيد الشرتوني . و " لسان غصن لبنان " لشاكر شقير . وغير ذلك من المراجع التي سهل علينا مطالعتها في المكتبة المذكورة .

هذا ونشكر مقدمه موظفو مكتبة " جامعة بيروت العربية " ، وموظفو " دار الكتب الوطنية " من خدمات جللى ورعاية مثلى .

أما الكتب التي عالجت شيئا من أبحاثنا فقد توفرت ، ووجدنا فيها قبس هداية استنرنا كثيرا بها . نخص بالذكر كتاب الدكتور / محمد أحمد خلف الله عن أحمد فارس الشدياق ، وكتاب الدكتور / حسين نصار " المعجم المرسى " .

هذا وقد وقمت أيدينا على مجالات كثيرة تناولت بعض القضايا المهمة كمجلة المجمع العلمي بدمشق والمجمع اللغوى في القاهرة وبغداد .

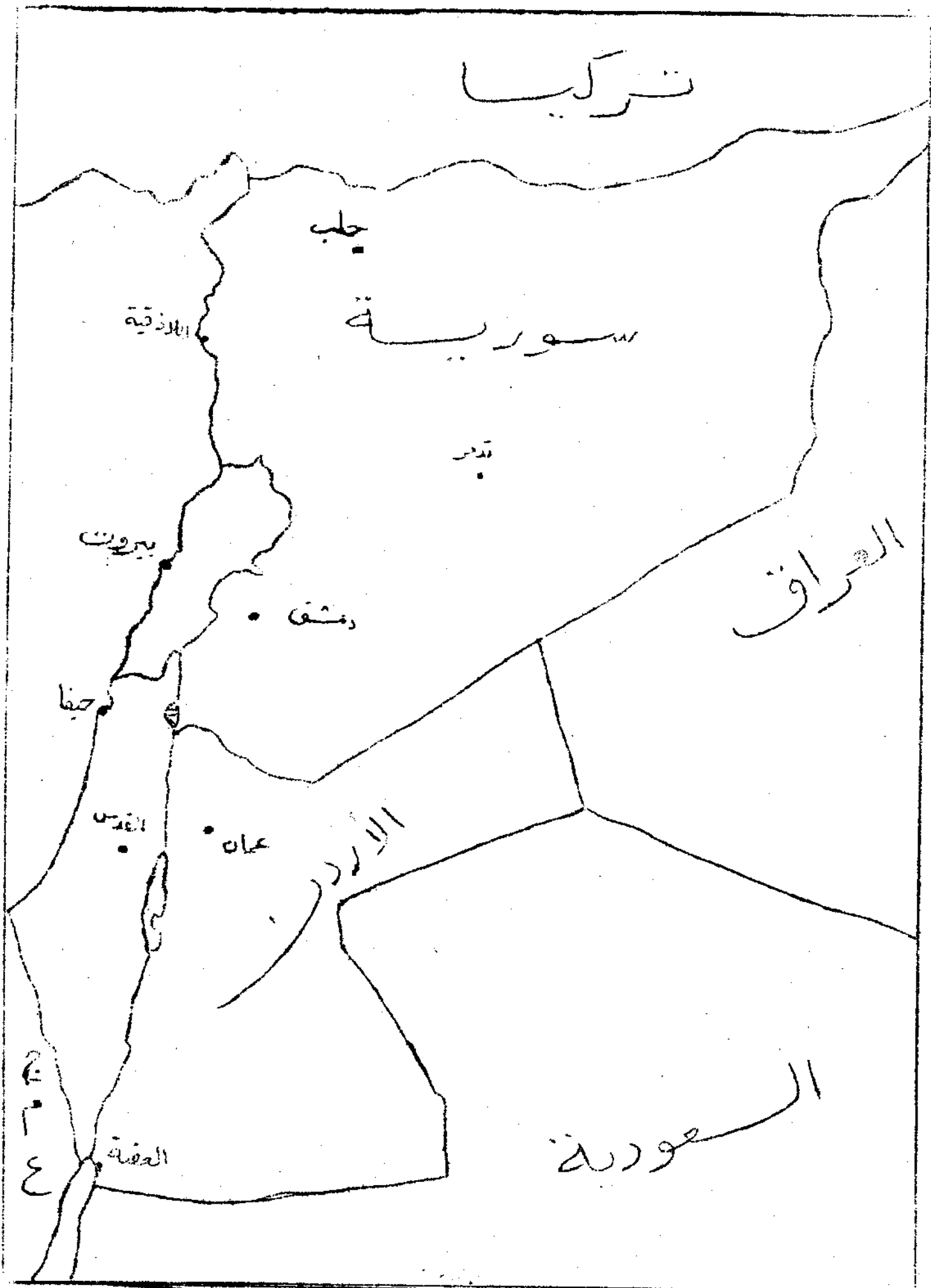
وأخيرا ، لا يسعنا الا تقديم وافر الشكر والامتنان لسيادة الدكتور ، الفاضل ، العلامة حسن ظاظا لما قام به من رعاية وخدمة أهوية لهذا البحث .

فعسى أن يكون هذا الكتاب أول زهرة نقدتها لصنيعه وأياديه البيضاء .

بيروت في : ١٢ أيار (مايو) ١٩٧٢ م

الجمعة في ٣٠ ربيع الأول ١٣٩٢ هجرية

الباب الأول



الفصل الاول

الحياة السياسية

لبنان مذ كان :

كرة ضربت بصوالجة فتلقها رجل رجل

أو ((صخرة حطت على طريق الشعوب المتوثبة الى الفتح)) (١) حتى
كان على كل عابر ملكا كان أو قائدا ، أن يتسلق تلك الصخرة ، وأن يحتال لمروره بكل
وسيلة ، اما واعدة واما متريدا . الخاية هي المرور ، فالوصول الى عدوه عبر لبنان .

وما القرون السابقة لمرحلة القرن التاسع عشر الا صفحة من تلك الصفحات التي

تؤلف هذا السفر الكبير .

وعلى احدى هذه الصفحات خط انتصار الشماليين عام ١٥١٦ في مرج دابق ،
ودخل لبنان تحت نفوذ بني عثمان عقب ذلك الانتصار العسكري . وما الامر هذا بجلال ، انما
الامر ، أمر ما نتج عن انقسام الأمراء في لبنان ، فعلمهم من أيد المماليك ، وغل ولائه لهم ،
كالأمراء التنوخييين ، ومنهم من تعاون مع السلطان العثماني الوافد ، كالأمراء المنيين .
ومنهم من حاول الاستقلال الذاتي ، كأمراء جبل عامل .

ثم ما كان من اضطراب وفتن وكراهية نجمت عن هذا الانقسام . والقرن التاسع عشر

كليلة اللباس ، خصب تحبل فيه الحقول بالاحلام والاماني ، فتلد العجائب والخرائب .

أما توزيعنا للأحداث السياسية ، فرباعي المراحل ، ندرجها في طورين رئيسيين •

— الطور الأول : يتألف من مرحلتين : — الأمير بشير الشهابي

(١٧١٨ — ١٨٤٠)

— الحروب الأهلية —

• (١٨٤٠ — ١٨٦٠)

— الطور الثاني : يتألف من مرحلتين : — الفترة الأهلية —

(١٨٦٠)

— د'الام المتصرفية —

(١٨٦١ — ١٩١٥)

الطور الأول :

— أ — مرحلة الأمير بشير الشهابي (١٧٨٨ — ١٨٤٠ م) :

لم يكن القرن التاسع عشر ، قرن فتور أو خمول ، أو مجموعة حوادث قصار شاحبات
تخلوه ، كتلك التي طلت القرون السابقة له • بل كان قرن التغيير والتحول ، والحوادث
الجسام التي هزت بوقتها أركان عواصم الدنيا • جاعة البلاد في انقلاب جذري ، يأخذها
الى حيز من الجلاء ووضع الرؤيا ، وارعاضات ثقافية ، ما نديها لاستقبال حياة اختتمرت
في رحمها بذور انبعاث وتجدد واحياء فكري ، سرعان ما حرك جمود الانسان ، في المنطقة ،
ومهد السبيل لنهضة بزغت شمسها من كوى الخلف ، مبددة سحابة الليل الصفيقة ، وندوب
الصنيع الحناري •

والتي

والتي ، كان يسمى الى تحديد المفهوم السياسي ككل ، وطبعه بطابع الذات

الحاكمة ، التي تجعل من كل مرافق الحياة ، أجراما تدور بفلكتها ، حتى اذا ما كان

لها ذلك ، رغبته وباتت قهيرة العين •

وأول نموذج من هذا الحكم شخصية الأمير بشير الشهابي الكبير، الذي " كان يتمتع بشخصية قادرة جعلت منها التجارب قوة تميل إلى البطش والارهاب ، كي تجسّل الاستقرار في البلاد سائدا " (١).

هذا وقد غيب نجاح الأمير في الحكم ، أن من اعتقدوا به رجلهم الضعيف ولعل أول هؤلاء كان والي عكا أحمد باشا الجزائر ، الذي كانت له اليد المولوية في تنصيب الأمير علي حبل لبنان . وقد اثبت احتكاك الأمير مع غيره ، أنه خير ورثه بارلسلفه الأمير فخر الدين المعلي الثاني .

ولم لا ، والأمير بشير قد اتخذ في تعزيز الحكم ، والاستقلال الذاتي والتطلع نحو الولايات المجاورة طمعا في ضمها ، وجعلها مناطق نفوذ تتبع الميل سياسيا . ولعل هذا ما جعله يتشدد في حيازة الضرائب من الشعب تأمينا للأموال اللازمة ، لكن الثورة عصفت بأحلامه بددا ، واضطرت عام ١٨٢٠م للفرار إلى حوران . وقد عرفت هذه الثورة بـ " العامة " (٢) .

لكنه لم يفقد شيئا من نفوذه وسلطته ، بل ربح إلى بلاده بدمر الدسائير ويتدخل في شؤون سوريا وفلسطين ، وبشير واليا لند وال ، في كل من دمشق والرايوس ومهدا رابحا من هذه الخصومات المحلية حيناً ، فاسرا حيناً ، حتى دهمته أحداث سياسية عالمية في السنوات العشر الأخيرة من حكمه .

(١) لبنان في التاريخ ، فيليب حتي ، ص ٥٠٠ — ٥٠١ (بتصرف)

(٢) العامة تعني ثورة يشترك الناس بها عامة .

وقد وثقت هذه الأحداث لبنان " بفنل موقعه بحكم السياسة التي اتبناها
الامير على مسرح السياسة الدولية موال محاذ الازمنة ثلاث قرن " (١)

بدأت هذه الأحداث لما قام محمد علي باشا " عام ١٨٣١ " بهزؤتركيا مارا في
فلسطين وسوريا فان الامير اختار ان يكون الى جانب محمد علي بحاكم مصر مطلقا مضيره
بمضير تلك الحرب • بمقابل هذا ابقى ابراهيم باشا قائد الحطة بمادارة الحكومة فـ في
لبنان ، بيد الامير •

في حين جعل من سوريا ولاية تخضع له حكما مركزيا مباشرا ، عمقيا ذلك برفسح
الضرائب التي تشدد بمبائه في كيفية سدادها من الشعب ، كما واحتكر الفاتح الحديد ،
جميع الموارد الاقتصادية بوسنر العمال اللبنانيين في استخراج الفحم والحديد من
المناجم • هذا النهج السياسي الخاطيء ، بوضع البلاد في جوارحاي ، جعل القلوب
تضم السوء له ، وباعت الثورة نارا تحت رماد ، سرعان ما تطاير شررها اثر فرض الخدمة
المسكرة على اللبنانيين بالذات •

وقد انتهز الامير بشير فرصة دخول جيش ابراهيم باشا للبنان لينقض على مدافعية
جبل عامل ، ويضمها الى ولايته • الا ان الناطليين " الشيعة " قاموا بعدة ثورات
مسلحة ضد ابراهيم والامير معا فكان اولها ثورة حسين الشبيب الصنبر عام ١٨٢٩ ثم
ثورة حمد البك سنة ١٨٤٠ م • وامتدت الثورة ضد الفاتح الى فلسطين عام ١٨٣٤ ممتدا
لهيبتها الى جبل النصيرية في شمال سوريا فحوران ، وما ان بدأ عام ١٨٤٠ حتى كانت
الثورة في جبل عامل تشتعل ضد الفاتح والامير معا بقيادة حمد البك • ثم اندلعت ثورة

(١) لبنان في التاريخ معني ٥١١

عامة في لبنان بأسره ضد الحكم المصري ولم تحدد محاولات الحاكمين ابراهيم والا مير بشير
نفسا في تهديئة الثائرين خصوصا وان ابراهيم بكت بوعده حين اصر في بداية عام ١٨٤٠ على
ان يسلم الموارنة — وهم فرقة من سبعة آلاف رجل كانوا قد حاربوا مع ابراهيم الدرزي في
حوران — اسلحتهم •

وقد عرفت هذه الشريرة بـ " عامية " ١٨٤٠ بحيث عقد الثائرون — دروز ودماري
وشيعة وسنة — مؤتمرا باطلياس في الثامن من حزيران واتفقوا يمينا عند المذبح في كنيسة
مار الياس على ان يوالوا بيدا واحدة •

وقد بحثوا بندا الى اتباعهم ليثوروا ضد الحكم الذي لم يوتاهدوا في ما بينهم
" على ان يحاربوا ليستردوا استقلالهم ان لم يموتوا " (١)

وقد ضايق الثائرون الجيش المصري ، ونهبوا مستودعات المؤن والذخيرة بواسطة
مع الحشد في مناوشات لم تلبث ان اتسعت حتى عمت جميع اطراف البلاد • وفي الوقت ذاته ،
كان اسطول يتألف من سفن انكليزية ومساوية وتركية يهاجم بيروت بالصناديق الذي اتخذته الجيش
المصري قاعدة له ، وينزل الجنود على شواطئ " جبوتية " (٢)

وفي الاشر من تشرين الاول ١٨٤٠ باستسلم الامير بشير للانكليز وبما استسلام الامير
ينسدل الستار عن حاكم قس في سلطته قرابة نصف قرن من الزمن •

(١) لبنان في التاريخ حتي ص: ٥١٥ •

(٢) نفس المصدر (ص: ٥١٥) (بتصرف)

ب - فترة الحرب الأهلية : (١٨٤٠ - ١٨٦٠)

تلت ولاية الأمير بشير فترة اضطرابات وقلق، كان من أسبابها زوال الزعامة القوية، ومحاولات التدخل الأجنبية، ورغبة الدولة العثمانية في السيطرة الكلية على لبنان، وانها امتيازاته الاستقلالية .

وذكر قرن الخلاف بشكل لم يستطع منه الأمير بشير الثالث (١٨٤٠ -

١٨٤٢) تهدئة الأحوال، لما كان به من شخصية ضعيفة، وقلة خبرة .

وما الفتنة الأولى، التي اشتعلت نارها بين الدرزي والنصاري (وتعرفها

الحامة بالحركة الأولى) إلا دليل على فساد حكم هذا الأمير .

وقد أسفرت هذه الفتنة الأولى عن فقدان الثقة بين جزئي سكان البلاد

وذرت الكراهية وعمقت البغضاء . كما أصبحت هذه الفتنة النمط أو النموذج لفتن لاحقة

أشد حولا عنها .

وبعد عزل الأمير النخيف سنة ١٨٤٢، عين الباب العالي لأول مرة واليا

تركيا على لبنان . لكن فشل الحاكم التركي في لأم الصدع الطائفي، وتفاقم الاضطرابات

واحساس اللبنانيين بضاع امتيازاتهم، حتم على الدولة العثمانية بالاتفاق مع السدول

الأوروبية وضع تدبير جديد يقضي بتقسيم جبل لبنان الى قائمتين : قائمتين

شمالية للنصارى، ومركزها بكفيا، وقائمتين جنوبية درزية مركزها بيت الدين . على

أن يكن عمر شهر البيدر حدا فاصلا بينهما، وكلا القائمتين مسئولان أمام والي صيدا

المقيم في بيروت .

أما جيل عامل ، فقد آل الحكم فيه إلى حمد اليك بعد قيامه
الثورة ضد إبراهيم باشا والأمير بشير معاً عام ١٨٤٠ . وصار الحاكم العام لمنطقة
الساميين ، ورفاقه يخلفه ابن أخيه علي الأسعد (١٨٥٢ - ١٨٦٢) .
ورفاقه تنشب خلافات بين أبناء علي الصغير حول الحكم ، فيلحق الجيل العاطلي
مباشرة بالحكم العثماني ، ويقضى علي الاستقلال .

وي فشل دالام الدائماتية ، وتضطرب أحوال البلاد ، وتشتمل الحوادث
الطائفية مكردا في نيسان عام ١٨٤٥ ، ويعقبها اضطرابات اجتماعية عام ١٨٥٨ ،
تأدها الفلاحون ضد الاقتلاع لزراعة طابرس شاميين .

ذلك الثورة التي لم تنته إلا بعد تدخل من البطريرك الماروني والقنصل
الفرنسي في بيروت آنذاك .

الطور الثاني : ١٨٦٠

أ - الفتنة الكبرى :

خلعت تلك السنوات الحزاف ، برامها ، سحبا فائمة في سماء العلاقات
بين أبناء الدلائف . سبها الدرر والنصاري . كما زاد التقسيم والقتال والثورات
والحكم الفاسد حدة الخلاف بين أفراد الشعب الواحد ، في حين لعب الأتراك
دور المشجع على هذه الفتنة ، التي اشتملت عام ١٨٥٦ ، اثر قتال صبيين كاسا

يلعبان ، احدهما درزي ، والاخر مسيحي ، في بلدة " بيت مري " فاعتد خصامهما الى الوالدين ، ولم يلبث ان شغل الطائفتين ، وامتدت الحركة من " بيت مري " الى ان شملت جميع المناطق اللبنانية المأهولة ببهايتين الطائفتين . ثم امتدت الى دمشق وبادي التيم .

واذا كنا نحتر ان هذه الحادثة هي السبب المباشر لاشعال نار الفتنة ، فما لا شك فيه ، ان اسبابا اخرى غير ما نرى تكمن تحت الرماد ، غذتها الايدي الانسية الآثمة وفتيات هذه الحادثة ، فكانت بمثابة القشة الاخيرة التي قصمت ظهر البعير .

وتعددت الممارك ، وكثرت المضاميا وعم الخراب والدمار وغشي البلاد قحط وتشريد عبيس . تكثر الشوم ندينا على وجه كل لبناني ، كل ذلك " والجيش التركي العثماني لم يحاول ان يوقف القتال الذي نشب ، بل كان موقفه على تقويض هذا ، فان اساء معاملة البهاريين اللاجئين الى بيروت ودمشق ونهب ما يحيطون من ثياب واموال " (١) .

اما الدول الأوروبية ، فانها لم تحرك ساكنا الا بعد ان تعتمد لبنان بدماء الاوربا ، فعقد مؤتمر دعت اليه فرنسا ضم بريطانيا والنمسا وهولندا وروسيا

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص ٥٢١

وتركيا تنهذه فيه التدخل لا يقف المذابح وتم الدماء دالام التقسيم الى قائمتين ،
ورفع في اسطنبول ، على دالام جديد للحكم في لبنان يعرف بـ " دالام ١٨٦١ " .
او " دالام المتصرفية " . الذي وضع موضع الاختيار مدة ثلاث سنوات ، وبعد وانه
نجح بالقيام الى دالام القائمة ، فعدل عام ١٨٦٤ ، وقال معمولا به الى
دعوى الحرب العامة الاولى (١) ، عندما انهاء جمال باشا .

ولكن ذكرت الفترة هذه بيهلالتها ، فال تاريخ لا ينصر حتى الامير
عبد القادر الجزائري ، الذي حوى في دمشق اكثر من الف مشرد وهارب من القتل ،
مسطرا بابل اخلاقه صفحة مشرقة وحيدة من صفحات تلك الابهام السوداء .

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص ٥٢٦

ب - دالام المتصرفية : ١٨٦١ - ١٩١٥

قسم جبل لبنان ، بمقتضى النظام السابق ، الى سبعة أفضية ،
قضاء الكورة ، البترون ، كسروان ، المتن ، الشوف ، زحلة ، جزين .

وكان على رأس كل قضاء قائمقام يختار من الاكثرية التي تمثل
هذا القضاء . وعلى هذا فقد كان توزيع القائمقاميين على النحو التالي :

ثلاثة من الموارنة ، ودرزي واحد ، ومسلم سني ، ومسلم شيعي
وواحد من الروم الارثوذكس ، وواحد من الروم الكاثوليك .

هذا لم يكن لبنان " المتصرفية " في حدوده آنذاك يشمل
البتاع ووادي التيم . كما أن بيروت وصيدا فصلتا عنه . وبهذا تكون مواني لبنان
القديمة ، بيروت وصيدا ، وطرابلس ، قد وضعت تحت اشراف الدولة العلية المباشر .

ولم تخل فترة " المتصرفية " من ثورات وقلاقل ، لكنها
سرعان ما تهدأ بسبب تغيير الحاكم كل خمس سنوات (١)

ويمكننا القول ، ان دالام المتصرفية في لبنان ، له فضل في تنمية
الروح الديمقراطية والوطنية في لبنان نموا مرموقا برغم جميع العقبات ، حصل امن

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ص ٥٢٢

(٢) باستثناء الحاكم الاول ، داود باشا الارمني ، الذي حكم ثمان سنوات .

• (١٨٦١ - ١٨٦٩)



واستقرار وعدل وحرية في الفكر والقول ، ودام ديمقراطي أكثر من ذي قبل . وتألف
في لبنان مجلس إدارة للإشراف على توزيع الضرائب وطرق جبايتها وإمداد المتصرف
بالرأى في الأمور الهامة . وتألفت ضابطة من اللبنانيين دون سواهم .

ومارس اللبنانيين حقوقاً وطنية طبيعية باشتراكهم في انتخاب شيخ الصلح
قأعضاء المجلس الإداري .

لقد كان لبنان في عهد المتصرفية يتمتع باستكمال الكيان اللبناني بحدوده
الحاضرة واستقلاله وسيادته الوطنية وجمهورية ذات الدستور الديمقراطي . وشعبه
المتماصك في وحدة وطنية لا انفصام لها (١) .

(١) الحق الوطنية . . . ص ٢٢٩ .
النشئة الوطنية

الفصل الثاني

الحياة الاقتصادية والاجتماعية

أ - الواقع الاقتصادي :

لم يكن الشعب كله ، يملك أرضه ، أو جهده ، أو نفسه • كان سلعة وأداة في أيدي الحكام ، وتسلسل مراتبهم • فأدى جندى ينتزع أرض الفلاح أو وسائل الزراعة أو المؤونة ، متى عن له ذلك •

السلطان في عوز دائم الى المال ، يبذله على لذاته وفخامة قصوره ، واتساع حاشيته بأعوانه • وكان المورد النازف دائما هو الشعب •

فإذا اضطر الى المال ، وضع داما ضريبيا جديدا ، أو فرمنا يقضي بوضع بعض الأملاك العامة ، أو الخاصة ، في المزاد ، أو بيع الرتب والأوسمة لمن طلبها . كل ذلك ، قليل أمام صلافة حباة الضريبة الذي يجمعون الى جانب ما يفرض على الناس في القرى والمدن من ضرائب ، كل ما يقع تحت أيديهم من المؤونة والبذار ، ويبيعون ذلك ، فيدفعوا للوالي أو لأمير الاتحادي ما فرض ويتقسمون الباقي •

وتفشيت الرشوة تفشيا عظيما ، يرتفع مقدار ما بارشفاع مرتبة المواق فيحكم البرى بالاعدام ، ويحبس المجرم •

وطى في كثير من الاحيان بالقتل والنهب والسلب . يقضي الامير طى من يخالف امره ، او من يظن انه خالف امره ، لدسيمة او رشاية ثم يزعم انهم سيقطعون من القاتل فيقتل من يشاء باسم القصر ليتخلص من العناصر التي لا يرضى عنها فلا حرمة لحياة ، ولا مكانة لانسان ، الكل مهدد المصير كل حين ، والعائلات عرضة للجوع والتشريد .

" اما الزراعة — وهي العمل الاقتصادي الرئيسي الذي يتعاطاه اكثرية السكان — فقد كانت على مستوى بدائي ضيق يكفل للفلاح قوته اليومي . اي ان الزراعة لم تكن محلا اقتصاديا من النوع التجاري الذي يكفل للمرء طعامه وارباها اخرى لسد حاجاته الاخرى . ولكن في سهل البقاع حيث التربة خصبة ، والماء متوفر كان الفلاح يكسب عيشه وعيش عياله " (١) .

وطى هذا فالزراعة متخلفة جدا تعتمد على الوسائل القديمة ، "الرومانية" والاقطاعي يعتبر نفسه مالكا الارض وراثيا من يحمل فيها .

والسخرة وسيلة من وسائل الاستغلال ، تمتد الطرق مونتني القصور للانبياء ، وتتشأ حدائقهم بسيد انباء الشعب غير المأمور .

وفريق ذلك مفروض على " المسلمين منهم " الجندية الاجبارية فينتزع من يحطون لالة عائلاتهم لميموتوا في الحرب او عرا ، او بردا ، دون راتب .

والتجارة نفسها في أيدي الأغنياء وهي خاضعة على كل حال للتصرف
السياسية ، والاستغلال موشيتة ذرى الحاكم .

" اما الصناع فكانوا صناع قري اي ان اناسهم لم يكن يتعدى استهلاك
اهل قريتهم . وكان لكل بيت نول يدوى لحياكة ما يحتاجون اليه من الاقمشة . وكانت
علاقتهم التجارية تدرى على اساس الجوار الودى ذاته . فان لم نقل العائلي ، السدى
كانت تدرى عليه علاقتهم الاجتماعية في القرية . وكانت التجارة والاعمال التجارية
تدرى على اساس شخصي يتميز بالتضامن والثقة " (١) .

اما علاقة هؤلاء واولئك مع الجند الحكام او الموافين ، فلم تكن الا
صورة سوداء ، قاتمة . لما كانت عليه من اهانة واستغلال فمخاطم الواردات تذهب الى
الخرائب او الى جيوب الاقوياء .

ب - الواقع الاجتماعي :

انعكست آثار الاضطرابات السياسية والاقتصادية على الحياة الاجتماعية ،
واثرت فيها بآثار بائت متداخلة كأشاج يهزها الريح باله تأثيرا كبيرا . ولقد كان
من اثر ذلك على بنية المجتمع ، انه كان في اخط مراتب الوجود في العهد العثماني
خاصة . كما ان الخلل العام اسحب على التركيب البشرى وترتب عليه الطبقي مالى ان
اغزر مبددا يعاني من البؤس والتفقر والحرمان .

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص ٥٧٢

الفرح
ورغم الفجارات زمنية تكتب بمجيء حاكم عادل ، وطني ، فقد زال المجتمع
يشكو من تلك القلاقل السياسية التي عصفت بأمنه واستقراره الاجتماعيين .

أنصف الى ذلك كله ، مشكلة البطالة التي عمت غالبية السكان من الفلاحين
والعمال ، حتى صارت مألها عاما . وشكوى الطبقات الكادحة . وهي ان غابت
أحيانا في زراعة الأرض - وهي ملك للاقطاعيين من مقدمين وشيوخ - أو في الانشغال
بمشاريع حكومية ، تأخذ غالبا ، طابع السخرة المملوكة بشئ الريان القسوة والتجسسي
فانها سرعان ما تعود مكشورة عن انيابها ، حاصدة الامال في غد افضل . ويقسول
الشدياق ، ابن القرن التاسع عشر شاكيا رقة الحال والبطالة يومها :

" اني أرى جسمي كل يوم في ذبول ، ونفسي في انقباض ، ولو كنت عرفت من قبل
" ما أصبح اليه لما سلكت هذه الطريقة . غير ان أبي وامى فتيان ، وخشيا أن أكون
" من ذوى البطالة والتعطيل . اذ لا صنائع نافعة في بلادنا يمكن للانسان أن
" يتعلمها ويحيش عليها . "

هذا وقد تركت تلك المعالم ، غير المستقرة ، سياسيا ، أصداءها في تركيب
بنية المجتمع . وامتدت أصابعها لتتلاعب في تكوينه اقتصاديا واجتماعيا .

أما التكوين الاجتماعي ، فقد كان مبنيا على الاسر الاقتصادية ، حيث انقسم
المجتمع اللبناني الى طبقات أربع :

أ - طبقة الحكام والأمر الاقطاعية :

وهي صاحبة النفوذ في البلاد ، وصاحبة الأمر والنهي فكثيرا ما كانت تتمتع بامتيازات تجعلها مستعدة للطبقات الدنيا ، وهي سبب كل فساد ألم بلبلسان في ذلك الزمن .

ب - طبقة رجال الدين والكليروس :

وكانت تدعم الطبقة الأولى وتساندها في كل استغلال موارد البلاد وطاقت الشعب . وقد كانت هذه الطبقة أعلم بلاء وأشد خطرا . فقد كان بعض المتمردين يحملون سخطهم على الطبقة الأولى . ويهيجون مطالبين ببعض ما كانوا يرونه من حقوقهم . ولم يكونوا يخشون سوى العقاب الجسدي ، الذي كان يهون احتماله على بعض النفوس الكبيرة .

والوطن يفخر ، أنه في اشد الملمات تاريخه كثافة ، لم يخل من متمردين يدحسون على المستبدين أحلامهم بالسيادة الناشئة ، ويقتضون عليهم مشاجرتهم الوثيرة .

أما الطبقة الدينية فقد كانت تتمتع بما للأولى من امتيازات أرضية زمنية ، توازرها امتيازات روحية دينية ، وهي اشد وأقوى تحكما في رقاب اللبنانيين الذين كانوا أقرب الى المذاجة والفطرة منهم الى التفجع الخفي ، والاخذ بمفاهيم الفلسفة المنطق ، فكانوا يستجيبون لرغبات رجال الدين التي كانت تذهب من أمرها شططا غريبا دون أن تقف عند حد .

وكثيرا ما كانت هاتان الطبقتان تتساندان لتحقيق غايتهما ، وارهاق الشعب
الذي كان يثن من د'ام التسخير والضرائب ، والنهب وسواها . . . فتستعين
واحدتها بالآخرى ، فيستخدم الامراء والحكام نفوذ رجال الدين لتسيير أمورهم
وكذلك رجال الدين ، يستخدمون السلطة لتنفيذ رغباتهم . والشعب في كلتا
الحالتين مغلوب على أمره . متحكمة به " سلسلة من الاستبداد يجبرها الحكم المطلق
وراءه ، تمتد حلقتها الأولى من استعبد لتتصل بالحلقة الثانية في صيدا أو عكا .
أما الحلقة الثالثة ، ففي دير القمر ويتدين . وهي الكلاية المطبقة على رقاساب
الشعب " (١)

ج - طبقة الجند :

وهي عصا الطبقتين السابقتين ، يلوحون بها كلما شاموا تمردا ، أو أحسوا
بمعيان . فهي وسيلة التنفيذ والارهاب المطلقة على النفوس التي باتت
" أرخص متاع في هذا العصر ، حيث الأمير أو الوالي يعتمد على ارخاء العنان لخصمه
حتى يجمع ما يجمع من أموال العباد محتر إذا رآه قد سمن واستدارت اليته أرسل
جنده ، لينحرره ويصفوا أمواله ودمه ، ويستولوا على عتاره ويشرذوا اولاده ، هذا
إذا لم يقتلهم . أفر لذئاب غور ، والهيل لمن يؤخذ على حين غرة . جند
مرتزقة في عصر اربابي شريعتة القوة والعنف وسنة النهب والقتل " (٢)

(١) صقر لبنان ، طرون عهود ، ص ١٩

(٢) صقر لبنان ، عهود ، ص ١٩ (بتصرف) .

د — طبقة عامة للشعب :

كانت هذه الطبقة ، تمثل قاعدة الهرم موطن اكتافها ثقل البناء كله وهي هدف الطبقات الثلاث ، اليه توجه سهامها وتراش نبالها • وكان الطبقة كانت تتعاون على ارماق هذه الطبقة التي باتت كبقرة حلوب أو هي على غير غذاء آتتارب الايدى على سرقتها بمعظم الشعب الا اقله يعيش في ظروف بائسة جدا بالعائلة كلها تحيا في غرفة واحدة ، تنقصها كل اسباب النظافة والصحة ، وخاصة في القرى • فالدراب والفلاح وعائلته يحبون في ما يشبه الزريبة • والغذاء مقصور على اقل المواد نفعا ، وعدم الدراية بتدبير المنزل والجهل المطبق يزيد من الوضع سوءا ، البطالة شاملة لمعظم العاطلين عن العمل اكثر بكثير من العاطلين ، مما فتح الباب واسعا امام السرقة ، وقطع الطرق في سبيل العيش •

وكان المجتمع يحطف على قطاع الطرق المشهورين ، فكأنهم المتنفسون الوحيد ضد الظلم والظلم ، والمرض متفش ، فلا اطباء الا الدرة النادرة وحتى في المدن • وإذا وجد الطبيب والدواء بعض الاحيان ، لم يكن في مقدور الشعب المريض ان يتداوى لضيق اليد • وقد يطشي وباء كالكليليرا ، فيحصد الارواح حصدا حتى يختفي المرض ذاته بعوامل طبيعية موغرة ذلك • والدولة لا تقوم بأى جهد بولكان الامم لا يعطيها •

وكان وضع المرأة ناسوا من وضع الرجل مهما كان وضعه من السوء فهي سلعة ، لا ارادة لها ولا رأى ولا قيمة • يتصرف بها الرجل كما يشاء •

هذا التركيب الاجتماعي الجائر بحق الأسرة القائم على تعاون الاقطاع السياسي والاقطاع الديني ، وفساد نظام الحماية الذي كانت تتبعه السلطة بوسخيرات الاهالي ، وارهاق كراهلهم ، جعل اللبنانيين يتطلعون مفتشين عن الخلاص ، الذي لم يجدوه احيانا مالا في الهجرة .

فأخذوا ينزحون فرارا من هذا الظلم المحيق بهم ، طلبا للحرية وتحقيقا لمستوى معيشي لائق .

الهجرة :

وكانت هجرة اللبنانيين تنحصر في : داخلي وخارجي .

— اما الداخلي ، فقد تم اثر نزوح الكثير من اللبنانيين بخاصة اهالي القرى الجبلية وغيرهم ، من انحاء سوريا الى بيروت على اثر حوادث سنة ١٨٦٠ . وقد احدث هذا النزوح حركة اجتماعية في العاصمة موزاد تقدم الاجانب اليها للتجارة والتبشير في ظل الامتيازات الاجنبية ففكاثروا بعد ذلك وانشأوا المدارس على اختلاف اغراضها .

وقد طرأ نتيجة لذلك ، ومن بداية العقد السابع من القرن ، بالتحديد ، تبديل يذكر في المظاهر الاجتماعية اللبنانية ، حيث بدأت طلائع الزحف الاجتماعي من اوربا تتوغل في البلاد ، ومرجعها اولا الى المعاهد الكبرى التي تنافس على انشائها المرسلين الاجانب ففتحوها في الشرق منافذ على حضارة الغرب واحواله الاجتماعية ، فتنبعت الافكار ، وتطلعت الحيون ، وصبت النفوس الى الاعتراف من مآهل ذلك الجديد ، كما اقتنن بذلك بانشاء الصحف ، وتأليف الجمعيات الادبية والعلمية ، وقيام فن التمثيل موافقا لادباء على ترجمة الكتب الاجنبية ، واطلاع الناس على ما في الغرب من اسباب الحضارة . فآثر هذا كله في النفوس الشرقية ، وجلا للبلاد حالا اجتماعية جديدة ، سرعان ما انتشرت في كل البلاد ، واعتنقها اللبنانيون وساروا فيها ، شوطا بعيدا .

— أما المنحى الخارجي للهجرة : فقد استهدف مصر أولا ، وقد بدأت هذه الهجرة تتنظم بشكل جارف ببداية الحقد التاسع من القرن الماضي ، حيث ترك الكثير من اللبنانيين ، وجلهم من النصارى ^{مسيحيين} ميمسين وجوههم شطر بلاد النيل ، التي استهوتهم لما كان قد بدأ به الخديوى اسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) من تغيرات تتفق مع رغباته في جعل مصر بلدا عصرية وقد لاقى في السوريين و(اللبنانيين خاصة) خريجي الجامعات والارساليات والذين يتقنون اللغات الأجنبية ، مؤلفين أكفاء

وقد استمر عمل الكثير من هؤلاء المثقفين في المرافق الحكومية والعامية لفترة ما بعد الخديوى اسماعيل . وقد أثرت هذه ، الطبقة تأثيرا كبيرا في النهضة الثقافية المصرية ، سواء في الصحافة ، أم في الأدب والطب . وقيمت رحلة هذه الطبقة المثقفة الى مصر ، رحلة التجار وأصحاب الأعمال ، فوجدوا في مصر ، موطننا ثانيا ، وقد شجعهم على هجرتهم هذه ما لاقوه من أخوانهم العرب في مصر من حفاوة وترحيب . وتدل الإحصاءات اللبنانية الرسمية الى أن عدد اللبنانيين في مصر أصبح عام ١٩٠٢ ، حوالي ثلاثين ألف نسمة .

الفصل الثالث

الحياة الثقافية

من أسوأ ما أصاب الشرق العربي من شر لدى وقوه تحت الحكم
العثماني ، هو ذلك الايكماش الفكري ، وتلك العزلة العقلية التي أبعدته عن
مسارب الثقافات ، وأبعدت عنه تأثيرات التيارات الأجنبية اللازمة لكل نهضة .
فقد كان ذلك الايكماش وتلك العزلة ، استارا كثيفة حالت دون التطيح الفكري
اللازم لكل تقدم وتطور ، مما أدى بالشرق العربي الى شبه سبات جعله في
مؤخرة الركب الحضاري ، بعد أن كان رائدا له منذ قرنين خلت .

غير أن لبنان بفضل موقعه الجغرافي ، وبفضل اتجاهه الى الغرب منذ
العهد الفينيقي الى أيام الأمير بشير الثاني ، كان الى حد ما ، أكثر تجاوبا
مع تلك التيارات الفكرية ، وأكثر ميلا الى تقبل الحضارة الأوروبية . ومرد
ذلك ، الى أن الستائر العازلة التي أسدلها الأتراك على لبنان ، كانت أقل
كثافة ، وأكثر شفافية من تلك التي أسدلوها على سائر الولايات في العالم العربي .
وعلى الرغم من اتصال لبنان منذ أقدم الأزمنة بأوروبا ، فإن التغيرات الجذرية
في حياته لم تتم الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

أما في مطلع القرن ، فقد كان ، كثيره ، يخط في سبات عميق من الجهل
لانعدام وسائل التعليم فيه ، فلم يكن هناك مدارس تعلم ، أو كتاب يهذب . كما
يجب أن تعلم المدارس أو يهذب الكتاب .

كما ، وليس هناك أمل في وجود ذيك ^{القسيس} الهاديين ، وأمر عجاب من
أمة باتت من غير مدرسة ، وأمسّت من غير كتاب ، كيف لها أن تبني مجدها ، إن
أمر لا يستطع أهل العصر الحديث تصوره .

أجل فالمستوى الفكري كان منخفضا جدا ، حيث اقتضت أشباه تلك
المدارس ، مسيحية كانت أو إسلامية على التعليم الابتدائي وتدريب الناشئة
(الثقة منهم) على أمور دينية لا تتعدى معرفة الطقوس والقيام بها .

ويمكن أن نحسب مدارس ذلك الزمان ، لو أن من ألوان اجتماع الصبية الصغار
في " كتاب " ، أو تحت السديانة ، أو يتحون زاوية في الجامع أو يصدّقون
خدا مستقبها قرب حائط الكنيسة ، وبين أيديهم ورقة الـ "لها" أو الـ "بجد" ، حتى
إذا ما لقنوا الحرف ^(١) أملاوا بدل ذلك وريقات الزهور يزجون بها يومهم بتمويّدات
لها وليس المسلمون في كتابهم بأفضل حال ، من اخوانهم المسيحيين ، كلّ فسي
قراءة سقيمة ، لا تجدى ولا ترفع ضم جهل غش العقول .

كما كانت ندرة الكتب عاملا من عوامل تأخر التطور الثقافي ، أو جهود ، على
الأقل موزل ذلك يرجع الى قلة المهتمين أولا ، وقلة المطابع ثانيا ، التي وإن وجدت في
بعض الأديرة ، فإن وجودها لا يحدو ندائق عمل بعض النشرات الدينية الخاصة
بالتقوس .

" أما الصحف والمجلات العربية فلم يكن لها أدنى وجود قد " (٢) .

(١) روآد النهضة الحديثة ، مارون عبود ، ص ٢٠ (يتصرف) .

(٢) بقظة العرب ، جورج اندونيوس ، (ترجمة الاحسان عباس) ص ١٠١ .

ويقول حتي من ذلك العصر " وكان عدد الكتب المستوردة من الخارج قليل جداً ولم يكن ثمة ترجمات عربية لكتب غربية ذات قيمة ، فلو أن أحد الناس كان يرغب في الحصول على كتاب يبحث قضايا أدبية فقد يقدم له بائع الكتب نسخة من طب ابن سينا • وكذلك لو رغب أحد الناس في اقتناء كتاب في الصرف والنحو لقدم له البائع كتاب سيويه " الكتاب " أو شرح ابن عقيل لـ "القياسية ابن مالك •

أما الكتب الحديثة في العلم الطبيعية ، أو من جغرافية البلاد أو تاريخها الحديث فكانت في حكم المعدومة (١) •

ولم تضر الفترة دون سوانح ، أو انفراجات تتم من تنام ثقافي يمشع هنالك وهناك كذلك التواصل في الدرس الديني واللغوي في مدارس جيل عامل ، التي بقيت تخلق شخصية العامل في جيله ، حافظة أياه من أن يغيب في مهامه الاستعداد التركي ، مهينة أحياناً علماء يسعون الى جامعة النجف الاشرف ، لاكمال تحصيلهم العالي ، حتى اذا ما رجعوا الى جيلهم ، حفظوا للعلم عهداً ، وحملوا مشعل الهداية في مدارس توهجت في أماكن كثيرة من أرض عاملة ، مبددة شيئاً من فتنة الجهل والفتور •

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص ٥٥٩

وهذه الكهنة العارونية ، تبذل بحضر الجهد لاجاد تعليم
أرقى في مدارسها ، جهود ايجابية تمثلت في بحث " فيندوره " التي
كانت معهدا دينيا لتدريب رجال الكهنوت عام ١٧٢٨ ، وفي تجديد مدرسة
" مين ورقة " التي كانت تتبع الدير ، ثم صارتا تعنيان بتشجيع دراسة الادب
العربي واللغة ، مما هيا ظهور أكثر البارزين من الادباء والاساتذة والعلماء
الذين ظهوروا في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، كبطرس البستاني وأحمد
فارس شدياق وكثار غيرهم .

غير أن هذا العطاء الكمي أو ذاك القيس الحاسلي ، أو ما تدّ من
بعض الكتابيب ، أو تلك المعارف الأولية في مدارس الدولة العثمانية ، لم يكن
له من القوة الكافية ما يكفل بتبديد الجهل المديق على الأمة الا شيئا
قليلا ، فانه لم يقو على الليل ^{الدم} احوالهم ، فاللغة نفسها قد انحدرت وفسدت
وصارت لغة التخاطب مخالفة للاصول الفصيحة ، حتى كادت هذه العامية
تدغم على الفصحى وتفسدها . ويحدثنا جورج اندونيوس عما صارت اليه
البلاد وقتها فيقول : " وقد بلغ الفساد الذي أصاب اللغة الفصحى في
مطلع القرن التاسع عشر ، مبلغا كبيرا على الأقل في بلاد الشام - وأدى الى
انحطاط ذخير ، وخاصة في لغة النصارى .

وزاد الأمر سوءا أن أدب العصور الزاحية قد نسيت ذاكرة الناس
واندرس واندرست نماذج البيان الأدبي ، وانحس ما كان لهذه الثقافة
المظمية من أثر روحي (١)

(١) يقظة العرب ، اندونيوس ، ص ١٠٢

أما فن الكتابة ، فقد كان على جانب كبير من الانحطاط والركاكة يتصل
بأسلوب عصر الانحطاط وهذا ما جعل ثورة العلماء أمثال الشدياق
والبستاني واليازجيين وشقير والاحدب والشرتوني ... مارة في وجه التقليد
والقلدين ، واصحاب السجع والتكلف اللغوي الذين أماتوا الابداع والتجديد
الفني في الأسلوب .

فالانشاء ، في مطلع القرن الماضي ، سقم لا يجرى على قواعد اللغة
وعلمها ، بل فيه من العامية والردانة الامة مجمية ما يجعلنا في سأم وملل من
تناول تلك النصوص التي لا يتبين فيها لغة معربة ولا عبارة صحيحة .

وقد ظلت لغة الرسائل الامة دبية في النصف الاول من القرن الماضي
على ما كانت عليه في القرن السابق " أي الثامن عشر " ، حتى اذا ما كانت
بدايات النصف الثاني من القرن التاسع عشر هذا ، أخذ الانشاء يتحول من
الاسلوب القديم المقيد الى الأسلوب الجديد الحر " المرسل " . وقد
أعان على ذلك ظهور طلبة جدد وانتشار العلم والتجارة والاحتكاك بالعالم
الغربي ، ثم نشوء الصحافة وانتشارها بين طبقات الشعب .

وقد جاء في مقال الطارف نكد ما هو في صدد هذا المعنى ، حيث
يقول : " كانت اللغة حتى عهد (هو لا العلماء بالشدياق والبستاني واليازجي
وغيرهم) في حالة الميغريحتضر ، أفلاذ في الالفاظ مفردة ، وضعف في الجمل
مركبة . وأسلوب سقم ، وتعبير غير مستقيم ، ولا ضابط ولا وازع ، وليس من يرفع
صوته بالتنبيه الى ما وصلت اليه اللغة المربية من التفكك المفضي الى الانحلال
فالموت " (١) .

(١) مجلة المسرة / السنة ٣٣ - ١٩٤٢ / جز ٦ / ص ٣٧١

في غمرة هذا المهد ، من الجهل والتخلف ، لا يسمعا الا أن نذكر
فضل أملاك كبار رفقوا راية اللغة عاليا ، وبعثوا درسها اللغوي متجددا وأحيوا
تراثها بعد موات كالشدياق والبستاني واليازجيين والاسير والمعلوف وسواهم .
ولهم يرجع الفضل في عودة الجدية الى المباحث اللغوية والادبية والبلاغية ، التي
كفلت للحرية وهلموها شرف النماء والازدهار ، وأمدتها من الدفع الحضاري ما
جعلها لغة أمة جديرة بالصمود ، ومكنها من أن تقف وقفة صمود أمام بشاعة
الترك العثماني .

ان ما قلناه به . رواد القرن الماضي ، ليعتبر - بحق - مفخرة يعتز بها قبيح
النهضة وسعد الانبيات القوي .

هذا ، ولا يخفى ما كان من أثر فعال لوقع الحضارة الغربية في حياتنا
على الدور الذي رافق الفاقة وخاصة لبنان .

ويذهب بعض المؤرخين اللبنانيين الى تعظيم أمر هذا الانزلاق الحضارة
الغربية على لبنان ، فيرد أسباب النهضة اليه ، لسبب أو لآخر . يقول حتي مثلا ،
" ان جميع الأحداث والتغيرات التي درأت من سياسية واجتماعية واقتصادية
وروحية وفكرية يمكن ردها مباشرة أو بالوساطة الى هذا العامل (١)

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص ٥٥٠

ولعل ما ذهب إليه حتى يعود في كثير من أموره إلى ما قامت به
الارسلات الأجنبية من دور تعليمي ، ساهم في نشر الثقافة والوعي في البلاد .
ولا مندوحة من الاعتراف بأثر هذه البعثات وجهودها الحافزة على إيقاظ
الحياة الفكرية ، وانهاء الثقافة ، وفتح روح التعليم ، بما أنشأت من مدارس فسي
مناطق متعددة من جبل لبنان والساحل . وبما أصدرته من كتب ومجلات ونشرات .
وبما كان من أمر مداهمها الحديثة ، التي جعلت من الكتاب ، سلعة ، يسيرة التداول
رخيصة للأثمان ، زادت معه حركة النماء في التعليم والثقافة .

كما ساهم خريجو هذه المدارس وخريجو المدارس الوطنية من تحمل الصب
الكبير من العمل الصعب ، والكفاح ضد الجهل والاستعمار ، ففاضوا في أكثر
من ساح ، جامعين من تراثهم بداية لحركة فكرية شاملة .

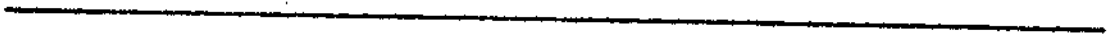
وقد امتازت حركتهم بوفرة الأبحاث اللغوية ، وإجادة علم كثيرة ، مصرية
مما ساعدتهم على خوض ميادين عديدة في مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية
والثقافية .

وقد نشأ على يد هؤلاء ، من ثم ، جيل ناهض أفاد من حركة ترجمة العلوم
ونشر المؤلفات الحديثة والقديمة ، فأقبل على تدارس الأصول القديمة ، وطلى
الصب من الثقافة العلمية الطارئة بازدياد المعاهد الأجنبية بهمة منقطعة الدليل .
وواصل هذا الجيل العمل في بناء أركان النهضة ، جامعاً بين الصالح من القديم ،
والنافع من الجديد ، مع ميل إلى الحفاظ على قدمه وتراثه والدفاع عنه . وكان
ثمرة هذا العمل وذاك الصطاء مدارس جديدة وطنية ، وأنشأ صحف ومجلات ،
ونشر جمعيات أدبية وسياسية ، وحركة نقل للعلوم ووضع المؤلفات وأنشأ الأبحاث .
ونذكر من علماء هذا الجيل : رزق الله حسون ، وإبراهيم اليازجي ، وأديب اسحق

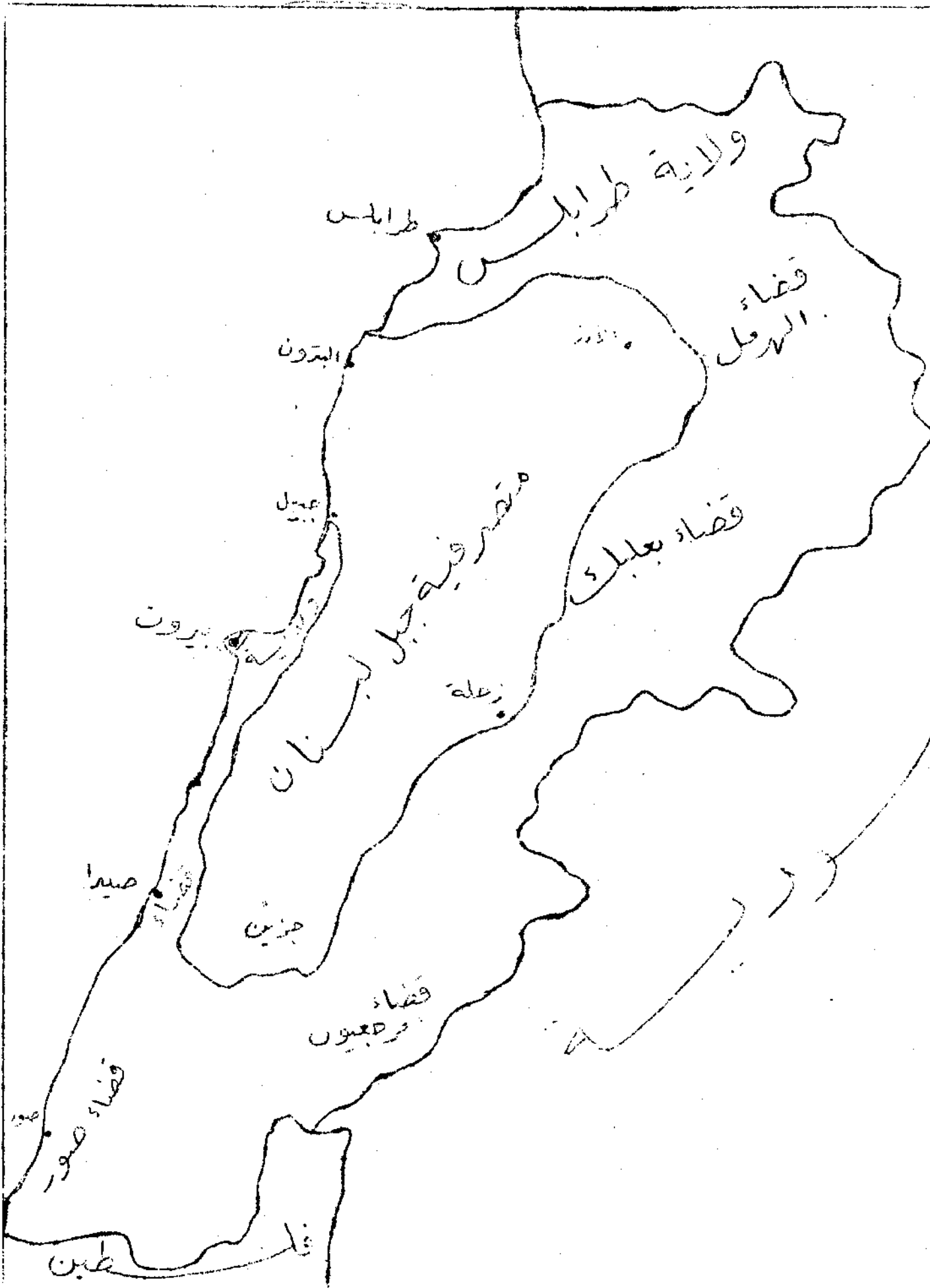
ويحقوب صروف ، وجرجي زيدان . . .

وقد سلك بعد هؤلاء أدباء طرقتوا أبوابا جديدة ، وسلكوا مناهج فريدة
بدأ نشاطهم في أواخر القرن الماضي ، وتضجروا وانتجوا في أوائل القرن العشرين
كسليمان البستاني ، وجبران خليل جبران ، وأمين الريحاني ، وفي زيادة مومخايل
نحيمة •

ولقد كانت جل غاية الرعيل الأول من أعلام هذه النهضة ، منصرفة
إلى أحياء القديم ، مما جعله متميزا بالأبحاث اللغوية المعيارية في أغلب
الأحيان على ما سندشهده في الفصول التالية •



الباب الخامس



لبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

الفصل الأول

المدارس وازدواجية اللغة

لحل من العسير في شيء* ان نقسم نشاط المدارس في لبنان ، خلال هذه المرحلة الى ثلاثة ادوار متعاقبة ، تتصل ببعضها بعضا عن طريق التسبب الزمنية في فترة القرن التاسع عشر ، وفترات ماضية سابقة له .

هذا ، وقد جعلنا البحث في كيفية تناول العلم العربية ، واللغة خاصة حجر الرخي الذي تدور حوله الغاية . هادفين الى تحديد مراحل النمو التحليلي في تطبيق اللغة العربية ، وتحديد صورة العلائق التي مزجت بين العربية وغيرها من اللغات كالسريانية او التركية ، والفرنسية والانكليزية . واثار ذلك كله على حركة الابحاث القومي و احيا التراث في اواخر القرن الماضي وبداية عصر النهضة في القرن الحالي .

اما الادوار الثلاثة التي مرت بها اللغة في المدارس فهي على التوالي :

١ - الدور الاول : (حتى ١٨٣٤)

بيدوان لبنان مكان أوفر حظا من غيره في المنطقة العربية ، فقد تهيأت له محاولات اتصال بالعالم الغربي ، وسوانح انفكاك من سلطة الحكم العثماني . جعلته اكثر تحررا من سياسة التجهيل التي اعتمدتها استعمول . خلال خمسة قرون .

كما احتدمت رغبة تأسيس المدارس وتخرج الطلبة ابان فتح ابراهيم باشا لسوريا هذا الاحتدام كثيرا ما تمثل في صورة التناقض بين الرسائل التبشيرية في استعمال

الناس الى مدارسها • كل ذلك جعل هذا الوطن الصغير ، رويدا رويدا ،
الى معارج من التطور الفكري ، ما لبث ان تفتحت ازميره في النصف الثاني
من القرن التاسع عشر •

ولعل لبنان ، أول وطن عربي ، فهم القومية في العصر الحديث
افتتاحا وعلا ثق فكرية وعضارية يقيمها مع العالم • فهذا أول ساع لدير
الغرب ، بطلابه (الموارنة) الذين قصدوا مدرسة رومة المارونية فسي
القرن السابع عشر • وكان من أبرز الطلاب الذين عادوا الى وطنهم لبنان
ومن ألمهم (اسطفان الدويهي ١٦٣٠ - ١٧٠٤) الذي تسلم أرفع
الرتب الاكليريكية في **لبنان** ، وألف الكثير من الكتب (١) .

" والاب بطرس مبارك القوسطاوي الذي حذق سبع لغات ، والذي أنشأ
أول مدرسة في لبنان • أنشأ مدرسة عيظوره ، ثم وكل تدبير شؤونها
الى الالباء اليسوعيين سنة ١٦٥٢ م (٢) •

" وكان من جملة الالمعالم البارزين الذين نالوا في أوروبا يحيطون وينشؤون
المخطوطات ويكتبون ويترجمون الصهيوني والحافلي والسمعاني •

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص ٤٨٨

(٢) صقر لبنان ، عبود ، ص ٥١

" وقد كان هؤلاء العلماء اللبنانيون مزدوجي اللغة ، فانهم كانوا يحرفون ويتكلمون
اللغتين معا السريانية والعربية (١) .

فجبرائيل الصهيوني (١٥٧٧ — ١٦٤٨) " ترجم الى الطليانية سنة ١٦١٩
" كتاب نزهة المشتاق في ذكر الامصار والافاق " للشريف الادريسي " (٢) .
" وقد نشر أيضا التوراة بلغات متعددة ، ومن جملة الترجمة السريانية والترجمة
العربية ، كما ألف كتابا في قواعد اللغة العربية يعد من أقدم كتب القواعديين
من نوعه " (٣)

" كانخ السمعاني ١٦٨٧ — ١٧٩٨ في سنة ١٧٣٧ الذي اطلق عليه البابا لقب
" معلم البلاط الرسولي " (٤) .

" واليه يعود الفضل في جعل مكتبة الفاتيكان التي كان نا إرميا ومديرها أغناطي
وأعظم مكتبة في العالم بالمخطوطات الشرقية . وقد قام بسفرين الى الشرق
طلبا للمخطوطات كما ضمن أبحاثه ودراساته لهذه المخطوطات السريانية
والعربية والعبرية والفارسية والتركية والحشية مؤلفا ضخما عنوانه " المكتبة
الشرقية " (أربعة مجلدات ، روما ١٧١٩ — ١٧٢٨) ولا يزال هذا المؤلف مصدرا
أوليا قيما للمعلومات التاريخية التي تتعلق بالكنايس الشرقية وتاريخها (٥) .

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ص ٤٩٠

(٢) صقر لبنان ، عبود ص ٥١

(٣) لبنان في التاريخ ، حتي ص ٤٩٠ (بتصرف)

(٤) صقر لبنان ، مارون عبود ، ص ٥٠

(٥) لبنان في التاريخ ، حتي ص ٤٩٢

ومعنى هذا كله أن " لبنان قصد الغرب فأحضره الى الشرق " (١) يتكرر

هذه البادرة " يوم ذهب الامير فخر الدين المخي الى توسكانة فتمعرف في فلورنسا
عاصمة الحضارة الغربية يومذاك الى نسق المعيشة والى الفن والى القصور . وحمل
الى بلاده الرغبة في محاكاة الحضارة العاطية " (٢)

" وهذا ما حمل الامير فخر الدين على السماح للارساليات الكاثوليكية،
ولا سيما الكبوشيين ، في تأسيس ارسالية في صيدا واهدن ثم توسعت حتى شملت
بيروت وطرابلس " (٣).

ورغم ضيق نطاق عمل هذه الارساليات ، فانها حاولت ان تعمل جلبا الى جنب
مع المدارس الاعلية (المسيحية) في البلاد والتي لم يكن التحليم فيها سوى تعليم
ابتدائي (" يرتبط بالدروس الدينية المذهبية في الدرجة الاولى " (٤) ويرتبط في
كثير منها بالاديرة التي كانت مراكز عمادة وتعليم .

اما المعلمون فقد كانوا رهبانا وقسيسين يعملون في خدمة الرعية ، عاجزين
بين الوعظاء تعليم الطغوس وتلقين مبادئ العلوم السرمانية والحربية . " اما

(١) لبنان الشاعر ، صلاح لبكي ، ص ٦٧ .

(٢) لبنان الشاعر ، صلاح لبكي ، ص ٦٧ .

(٣) لبنان في التاريخ ، حتي ص ٤٦٤ - ٤٦٥ .

(٤) تاريخ الاداب العربية ، زيدان ، جزء ٤ ، ص ٤٦ - ٤٧ .

السريانية هذه ، فقد كانت اللغة الاولى عند المسيحيين ، وهي اللغة المنحكية بين الموارنة في الاماكن النائية المنعزلة (١) .

ولعل الذي زاد من تكريس اللغة السريانية في لبنان ، كون الشرائع الدينية تلقن وترتل بها ، وكون الذين تخرجوا من مدرسة رومة المارونية في القرن السابع عشر والثامن عشر ، وساهموا في وضع الاستشراق هناك كالصهيوني والحاقلاني وسمعان ، أو من عاد منهم الى لبنان " كانوا مزدوجي اللسان ، فانهم كانوا يتكلمون اللغتين السريانية والعربية " (٢) .

و" يقول ديهلا روك الذي زار لبنان سنة ١٦٨٩ أنه وجد عددا كبيرا من الناس في لبنان في نواحي بشرى والحدث لا يزالون يتكلمون السريانية ، ويقول افرنسي اسمه دي شاستي جاء بيروت سنة ١٦٣٢ أنه وجد أهل حمرون وأهدن لا يزالون يتكلمون السريانية . وحتى أنه في زمن متأخر نسبيا في سنة ١٨١٠ ما يروى الرحالة السويسري يورك هارت ، الذي درس العربية في حلب ، أنه وجد كثيرين من الموارنة يتكلمون السريانية . وقد لاحظ أن جميع الأسماء المكتوبة على الأكياس الصغيرة المعلقة في كنيسة قزحيا والتي فيها بعض دود الحرير مكتوبة بالأحرف السريانية " (٣) .

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص ٢٩٠

(٢) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص ٤٩٠

(٣) - - - (٣) ٤٩١

غير أنه لا يعني أن السريانية قد عمت مرافق الحياة كلها حتى عند
المسيحيين فنحن نجد من مثابلتنا لا أقوال هؤلاء ، رعية لا تجيد نطق السريانية
فديلا روك الذي استشهد لهم حتى يحدد منطقتين من الجيل " بشرى والحدث "
ودي شاستي أيضا يحدد منطقتي " حصرون واهدن " ، والسييسرى يورك هارت " وجد
كثيرين من الموارنة يتكلمون السريانية " فلا يعني هذا جميع الطوائف المسيحية
حتى الموارنة بالذات ليس كلهم من كان يجيد نطق السريانية . وعلى هذا تكون
العربية مبدئيا في الدرجة الثانية عند الموارنة وتتغالب مع السريانية على المرتبة
الأولى عند الطوائف المسيحية الأخرى .

ولنستمع الى امر يبين ذلك من الشدياق ابن ذلك القرن حيث يحدثنا
عن شكواه من أحد الشماسة الذين لا يجيدون العربية في خطبهم فيقول :
" قاتل الله هؤلاء العلوج انهم يقيمون في بلادنا سنين ولا يحسنون النطق
بلساننا . فيلفظون السين اذا سبقها حركة زايأ وحروف العلق وغيرها محالة ...
وقد سمعت أن بعض " هؤلاء " الذين لبثوا في بلادنا سنين رام مرة أن يخطب
في القوم ... فقال بعد ما رجع عليه المطر ساعة : " أيها القوم كد فئات
الوقت الآن ولكني أعتب فيكم نهار الأحد الكابل ان شاء الله " (١) .

يفهم من هذا النص أن القسيسين الأجانب (المرسلين) كانوا يؤدون

خطبهم يوم الأحد والأعياد باللغة العربية لفهم الرعية ما يريدون .

(١) الساق على الساق ، الشدياق ، ص ٢٢٤ - ويريد أن يقول : أيها

القوم قد فأت الوقت الآن ولكني أخطب فيكم نهار الأحد القابل ان شاء الله .

ولعل اللغة العربية لم يكتب لها النجاح نهائيا الا ببداية الدور الثاني من التعليم في لبنان أي أنها صارت بعد عام ١٨٣٤ عقب مجيء ابراهيم باشا لغة محكية عند الجميع ورسمية في كل مكان حتى عند الموارنة بالذات .

غير أن بعض المسيحيين لم يتخلوا عن السريانية حتى يومنا هذا ، ولعلنا نراها بالكتاب المقدس . الا أنه من المحتم تقرير هزيمتها أمام العربية منذ أحيال .

والحديث بالذكر أنه عندما أصبحت اللغة العربية تستخدم في الكتابة الدينية ، عند المسيحيين ، كانوا يكتبون بالحرف السرياني المعروف " الكرشوني " وهي عادة لا تزال آثارها باقية الى وقتنا هذا .

ويتقول حتى أنه " قد كان في دير قزحيا . . . مطبعة . . . أصدرت . . . نسخة من سفر المزامير باللغة العربية ، انما كان سفرا مكتوبا بالحرف السرياني " الكرشوني " " لما كان شائعا في لبنان في ذلك العهد " (١)

ويقول حتى في مكان سابق أن اسقف اهدن كتب الاناجيل باللغة السريانية والعربية ولكن بالخط الكرشوني (٢) .

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص ٥٥٥

(٢) لبنان في التاريخ ، حتي ص ٤٢٢

وهذا الخط يعود الى أيام تأسيس " مطبعة دير قزحيا التي كانت أولى مطابع الشرق وفيها طبع زبور داود بالسريانية والحربية " الكرشوني " سنة ١٥٨٥ ، ترجمة جورجس مطران بيقوسيه ، وطبعه البطرك سركيس الرزي " (١) .

وهذا ما يؤكده من جديد اضطراب رجال الاكليروس المسيحيين الى تداول الحربية كلغة بين الرعية كي تتم علائق الاتصال بين الدين والمؤمنين .

وكما لم تكن الطوائف المسيحية كلها ذات لسان سرياني ، بل ثلثة منها وهي الموارنة كذلك لم تكن الطوائف هذه بمستعملة للخط الكرشوني . فقد اختطف الروم الاثوذكس والروم الكاثوليك عن الموارنة بأنهم لم يدرحوا على استعمال الحرف الكرشوني هذا . مع هؤلاء اذ كانوا على الطقوس اليوناني لا السرياني كتبوا الحربية بالحرف العربي . وعلى هذا يكون الموارنة وحدهم ، قد استعملوا الحرف الكرشوني دون باقي الطوائف .

أما فيما عدا نطاق التعليم المسيحي ، المزدوج اللسان والحرف من جهة الرسم كما رأينا . فقد كانت الدولة العثمانية ، تسعى الى الزامية اللغة التركية في مدارسها ، " والمدرسة " هنا عند الاتراك تعني " المدارس ذات التعليم الديني " أما المدارس الاخرى فقد خصصوا لها اسم " المكاتب " بوجه عام " (٢) .

(١) صقر لبنان ، عهود ص ٥٠

(٢) البلاد الحربية والدولة العثمانية ، ساطع الحمصى ص ٢٢

السلمون
نقول بهذه القسمة بين التعليم المسيحي والعثماني ، " لان التعليم
لم يغيرا تغييرا يذكر مواقف كل من المسيحيين والمسلمين في البلاد العربية
نحو الدولة العثمانية ، ظل المسلمون يعتبرون الدولة دولتهم ويستسلمون لحكمها
" ليس الشيعة " لكونها دولة الخلافة الاسلامية ، و ظل المسيحيين يشعرون بانها
غريبة عنهم ، لانها تعتبرهم رعايا ، ويتوجهون نحو الدول الأوروبية ، لانها تحميهم
في كثير من المناسبات ، حتى أنها تقدم بعض المساعدات " (١) .

وهذا ما يفسر طريقة توزيع المدارس التبشيرية التي كانت " تؤسس بوجه خاص
في القرى المسيحية ، والمدن التي يكثر فيها المسيحيون " (٢) .

نقول ، ان هذه المدارس الحكومية " التركية " قد جعلت لغتها التركية
الزامية في التعليم " وكان أكثر معلميها من الأتراك ، ومن كان عربيا منهم ألقى
دروسه بالتركية وتجاوى عن الكلام بالعربية مع أن من يخاطبهم عرب " (٣) .

(١) البلاد العربية والدولة العثمانية ، ساطع الحمري مهد الدراسات العربية

الحالية ص ٨٢

(٢) نفس المصدر ص ٨٢

(٣) حاضر اللغة العربية في الشام ، سعيد الأفغاني ص ٢٣

ويتابع الأستاذ الأفغاني عن مصطفى الشهابي (١) فيقول :

" حتى الكلام خارج غرف الدرس في الباحات وضخوا عليه الرقباء فمضوا أبناء الحرب أن يتحاربوا في الشؤون الحادية بينهم بالعربية وأجبروا عليهم الكلام بالتركية ، ومن سبق لسانه الى كلمة عربية صاحوا به " سينيال " وسموه خشبة نقش عليها كلمة " سينيال " (٢) وصار على هذا ان يجول بين رفاقه حتى يسمع كلمة بالعربية سبق بها لسان متكلم ، فيبادر الى تسليمه الخشبة صارخا به " سينيال " ومتى انتهت الاستراحة عوقب الذي تبقى بيده .

ويعلق الأستاذ الأفغاني على هذا التحصن المقيت فيقول : " وكانت هذه آخر سهم في جعبة التتريك حتى يجفوا الناس لنته وينشأ على التثرت منها " (٣) .

ولم يكن هذا التتريك تامرا على لغة التعليم في المدارس فمسيب بل انسحب على جميع مرافق الحكومة والحياة الاجتماعية حيث فرضت التركية ، لغة رسمية على الجميع ، منذ أيام السلطان سليم الأول ، فهي لغة القوانين والادامة والبلاغات الرسمية التي توجه الى الأهالي ، ولغة المحاكم المدنية والشرعية ، ولغة استجواب المتقاضين والتحقيقات وصدور الأحكام . . . كانت التركية لغة التعليم

(١) انظر مصطفى الشهابي ، معاضرات في الاستعمار ٢٨ / ٢

(٢) كلمة Signal الفرنسية التي معناها العلامة والسمة

(٣) حاضرات أفغاني ، ص ٢٢

والجنود خلال التدريب ، حتى أمست ، هذه اللغة ، تقرر مبدأ سيادة الشعب
وذلك في جعلها لغة المجالس التمثيلية من بلدية واقلية ونيابية ، بها تلقى
الخطب وتجرى المناقشات ، وتدور محاضرات المجالس •

هذه الاطراف أحكم رباطها ، حتى تبقى اللغة العربية في علق زجاجة
أو تنكش على أخيق حدود التداول ، أو تلفظ أنفاسها الاخيرة •

أما في جبل عامل فقد أحرز التعليم باللغة العربية ، شأوا بهمدا
لا يدانيه قطر آخر ، ولعل ذلك مرده الى كراهية الترك العثمانيين للشيعة
الذى يعود الى أيام خلاف السلطان سليم الاول والشاه اسماعيل الصفوى
" الذى جعل نفسه داعيا للمذهب الشيعي ، وحاميا للشيعة يحارب معهم
الفازي الجديد • مما جعل السلطان سليم الذى يتولى زعامة السنة ، يستحصل
على فتوى تعتبر الشيعة خارجين على الدين الاسلامي ، ويقرر وجوب محاربتهم
وقتلهم بآمر بقتل كل من كان معروفا بالتشيع " (١)

ولعل هذه الكراهية للشيعة ، حدث بالعثمانيين الى عزل الجبل ، مانعة
عنه كل عون ومساعدة ، وما دروا أنهم ، أحسنوا من حيث أرادوا الاساءة ، فلقد
أصبح الجبل ، بتمرده على الانضواء حيناً ، وفرض العزلة عليه أحيانا ، " مركزا هاما
من مراكز التدريس الكبرى يومه الطلاب من كل فوج وصوب " (٢)

(١) ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٣٠

(٢) تاريخ جبل عامل محمد جابر آل صلحا ، ص ٢٣١ •

ولئن انقطع فيه مدد العلم أو خبا نوره " في فترات قصيرة كانت تعقب الحروب والفتن التي يرافقها التدمير والخراب ، وانقراض المدارس • وتعطيل معاهد التدريس " (١) .

وكانت هذه المدارس أشبه بالكليات عليها بالمدارس العادية ، ويدرس فيها الفقه والأصول والحكمة الاشراقية ، والكلام والتوحيد ، والمنطق والفلسفة القديمة عدا العلوم العربية كالنحو والصرف والبيان واللغة •

وكان بعضهم يدرس علم الهيئة والحساب والجبر والطب والهندسة ، وبعضهم يدرس الفقه والأصول على المذاهب الخمسة ، وكانت حلقات التدريس محبوبة بطلاب الشيعة والسنة دائبين على الاشتغال وارتشاف مناهل العلم والهداية بريح التساهل والإخاء ، بينما كانت عوامل البغضاء والتفرقة تلحظ دورها في خارج تلك المدارس المباركة •

ونذكر من هذه المدارس الأولى : — أ — مدرسة شقرا لمؤسسها العلامة موسى بن حيدر الحسيني العاملي " ٩ — ١١٩٥ هـ " وقد ضمت أربعمائة طالب في فترة بلغ العلم والأدب في جبل عامل حده الأقصى ، غير أن الحروب وفتنة الجزائر قضت مضجع الجبل ، وماجر من لم يقتل أو يسجن من العلماء إلى خارج البلاد ووقف التدريس وأغلقت المدارس بمن فيهم مدرسة الشقرا هذه

(١) تاريخ جبل عامل ، محمد جابر آل شفا ، ص ٢٣٢ " من هذه الحروب التي

أعقب الخراب للجبل ، معركة يارون ١١٩٥ هـ — ١١٧٨ هـ

١٧٨٠ م

ودامت الحالة على هذا أكثر من ربع قرن ، الى موت الجزائر في سنة " ١٨٠٤ "

فعمدت الحركة الحلمية الى السيل .

نخلص من كل ما تقدم الى نتيجة هي : أن اللغة العربية ما عرفت في هذا الدور مؤثلا يحتضنها الا ديار جبل عامل وبعض المدارس الأهلية والكتاتيب التي نالت تعلم القرآن واللغة العربية ، وبعض الديرة الذي أخلص للعربية وان كانت تشوبها سريانية " كرشونية " في أغلب الأحيان .

أما ما عدا ذلك ، فقد طمت بالتركية مرافق التعليم والحياة ، كما نخلص الى ان التعليم الشعبي ، ظل حتى هذه الفترة ضيق النطاق ، لا يتعدى مجابهة تطور الحياة ومتطلبات الفكر الانساني وليست تلك المدارس ، بالسبب الوحيد لبطء انتشار التعليم في القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر . فكمما أن عدد المدارس لم يكن كافيا ، كذلك كانت الكتب المدرسية نادرة الوجود ، وكانت هذه الكتب ، بل حتى فيما بعد ، لا تزال تنسخ باليد . إذ أن الطباعة العربية لم تكن بعد قد انتشرت انتشارا واسعا . وكان المسلمون آنذاك يعتبرون الحرف العربي مقدسا ، لذلك حرم الباب العالي لزمن طويل طباعة اللغتين العربية والتركية بهذا الحرف ، لكن هذا الحرم لم يشمل غير العربية ، مما سمح لرعايا السلطان من غير المسلمين باتباع لغاتهم بأحرفها الخاصة .

ويحدثنا مارون عبود عن النساخة والنساخين فيقول : " كان يختبى

راغب يابس عن الدوم ، أو يترقم ، أمام مصباح من الزيت بلا زجاجة يحنو على كتابه يقرأ بأصمان ريثما نستريح أنامله ويوزل خدر رجليه ، ثم يعود الى عمله بعد ما يتبسط جلده وتمحي الاثلام التي شقها فيه قش الحصى " (١) .

(١) زواذ النهضة الحديثة ، مارون عبود ص ٢٦ - ٢٧

"أما الدواة النحاسية ٠٠٠ فهي أمامه ٠٠٠ يمسك قلم "الخراب"

على صدرها ٠٠٠ وعن يمين الناسخ ، كما هنا كان أو شديدا ، لوحة مشيخة
بالخيوط شبحا متناسلا مستقيما ، يملأ الناسخ عليها الورق لتستقيم السطور
ذاك كان عمل رجال الدين في كل ملة (١)

الدور الثاني : ١٨٢٤ — ١٨٦٠ م .

ترتبط أسباب هذا الدور بمحيي إبراهيم باشا الى سوريا ، في حملة
عسكرية لتأديب العثمانيين ، عام ١٨٢٤ ، فالجهود التي قام بها هذا الفاتح
البيدي ، من إنشاء مدارس حكومية "أعنت بأبناء المسلمين خاصة" **والتأخذه**
المبال لعمل المبشرين الذين نشطوا في عهده ، هذه الجهود وغيرها
جديرة بأن تعد نقطة انطلاق للتقدم الذي تم احرازه فيما بعد .

وكان لنداء التعليم الذي أدخله إبراهيم باشا — مع أنه لم يدم طويلا —
أثره الفعال في بحث اللغة العربية ، وجعلها الزامية في مرافق حياة الأمة
وحفز التعليم القومي وخاصة بين المسلمين . هذا النداء الذي كان يرمي
عامدا الى ايثار الوعي العربي بين التلاميذ . وعلى الرغم من قصر الحكم المصري
في الشام فقد كان لعمل إبراهيم ، وبما احتمل عليه من أنماط جديدة من
المدارس والكتب المدرسية تجربة ضرورية أيقظت النفوس وحركت الأذهان الراقدة .

(١) رواد النهضة الحديثة مارون عبود ، ص ٢٦ — ٢٧

ولو نظرنا الى الماضي لبدأ لنا ان نتائج هذه التجربة كانت يا مرة ،
فقد استطاعت بما ارسنته من اصول لدائم ثقافي جديد • ان تشهد الطريق
امام اللغة العربية لتمود مرة اخرى فتصبح قادرة على ان تكون وسيلة التمييز
عن الفكر •

وشمة نتيجة غير مباشرة افضت اليها حملة ابراهيم باشا ، افادت البلاد
كثيرا ، قد اقتصرت بآثار التجديد الاخبارى الذى فرضه ابراهيم على ابناء
المسلمين ، وما اعقب من مخاوف في نفوس اباائهم ودفعتهم الى ان ينشأوا المدارس
الخامة بهم لتراحم المدارس التي انشأها ابراهيم ففأصبحوا بذلك لا بنائهم
فرصة النجاة من السندية • وقد اصبحوا بسبب هذا الدافع يحثون عناية كبيرة
بالتعليم المدني " غير الدينى " وثالثت عنايتهم به بعد انسحاب ابراهيم تزداد
قوة مع مرور الزمن •

ومن النتائج التي ترقت على مجيئ ابراهيم ايضا ، ما اعطاه من حرية
للرساليات التبشيرية في الحمل • كان اولها قيام الالباء المازاريين في افتتاح
مدرسة عيطة طرة عام ١٨٢٤ ، التي ساهمت بلصيق كبير في تكوين الكتاب والمفكرين ،
وقيام " الدكتور فاندريك بانشاء مدرسة " عبيه ١٨٤٧ " وهي مدرسة عاليه ،
وتأسيس الالباء اليسوعيين لمدرستهم في غزير في نفس العام • وما اعقب ذلك من
منافسة بين الامريكيين واليسوعيين في انشاء المدارس •

ولقد اثار نشاط المرسلين رجال الكهنوت من اهل البلاد الذين
اشعلت فيهم البعثات نار الحسد والخوف على مصيرهم مما دفعهم الى العمل
بهمة ونشاط حفاظا على الذات . ولعل هذا ما فكم من عقالة الجمود والانطواء .

وثانيها تأسيس المدارس اللا ميريكية " ١٨٢٤ والكاثوليكية عام " ١٨٤٨ "
التي عملت على ايجاد الكتاب المطالب بمتوفره بين ايدي التلامذة وجعلت
وسيلة لنقل الثقافة ، كما حققت المطبعتان امل المتعلمين والناشئة في رؤية كتب
التراث مطبوعة من جديد ، وباسعار معقولة ، وهو ما جئنا عليه مفصلا ، في فصل التبشير .

الدور الثالث : " ١٨٦٠ حتى نهاية القرن "

اهم ما يذكر في هذا الدور ، ذلك النظام الجديد الذي اقتستبه
المدارس الاعلى من مدارس المرسلين حيث تمكنت من ان تخرج عددا وافرا
واحذق من الادباء والمفكرين .

ومن هذه المدارس الرومانية :

— المدرسة الرومانية " ١٨٦٣ — ١٨٧٦ " للمعلم بطرس البستاني .

وقد نهجت في تدريسها منها وطنيا يعتمد اللغة العربية وطومها
اساسا في التعليم ، " وقد كانت تولف القلوب بين متنايري الاديان ، ومتبايدي
المذاهب تذيب المبادئ الوطنية . . . على صدق في جانب الدولة ، واخلاص في
جانب الوطن . . . (١)

(١) بطرس البستاني ، صوايا مر ٢٧

وقد كان من اساتذتها الشيخ ناصيف اليازجي وولده ابراهيم والشيخ
يوسف الاسير والشيخ غطار الدحداح وسليم تقلا "مؤسس جريدة الاهرام"
فيما بعد .

- وقد نبغ من هذه المدرسة طائفة من الادباء وارباب الاقلام . نذكر
منهم سليمان البستاني معرب الالفاظ وعبد الله البستاني صاحب قاموس البستاني
والدكتور شاكرا الخوري وغيرهم من الذين تابعوا في تدعيم النهضة العلمية
والادبية والوطنية والفنية .

كما
وقد عمدت الطوائف الاخرى على تأسيس مدارس خاصة بهما ، احدهما
الباربركية للبرم الكاثوليك " انشئت عام ١٨٦٥ " وهذه طهر من تلامذتها
جماعة من الادباء . ثم مدرسة الثلاثة لاقمار للروم الارثوذكس كانت في
سوق الغرب ونقلت الى بيروت سنة ١٨٦٦ وكان لها شأن بين المدارس
الوطنية ومدرسة الحكمة للبحاران يوسف الدبس انشئت سنة ١٨٦٥ وهي
للطائفة المارونية .

غير ان التعليم في هذه المدارس الواندية ، (المسيحية) كان قسمة
بين العربية والسريانية من جهة ، وبين هاتين واللغات الاجنبية
المتعددة كالفرنسية والانكليزية فالمدرسة الواندية مثلا كانت
تعلم من اللغات العربية والسريانية والاطالية والفرنسية
والانكليزية وشيئا من اللاتينية واليونانية (١) .

كما ظهرت مدارس اسلامية كالمدرسة الرشيدية وهي أقدم مدارس المسلمين الحديثة ، ومدرسة دار المعلمين وكلتاهما للحكومة ، والكلية العثمانية الاسلامية للشيخ أحمد عباس الأزهرى .

أما مدارس جبل عامل ، فقد نمت في هذا الدور نموا كبيرا ، مما ساعد على حركة الانبعاث القومي والتحرر الوطني نذكر منها :

- مدرسة الكونريسة " التي انشئت في العقد الرابع من القرن الثالث

عشر الهجرى بإيعاز من النجف الأشرف (١) .

وهي ظاهرة فريدة لم نجدها في غيرها من المدارس العاملية ، وكان من طلابها حمد الهك النصار الذى أصبح زعيم جبل عامل فيما بعد ، والعالم اللغوى علي السببتي " ١٣٠٣ هـ - ١٨٨٢ م " والشاعر علي بن ناصر بن زبيد - المتوفى سنة ١٨٧٢ م وعلى ابراهيم الحسيني المفتي في جبل عامل وسواهم . . .

وبوفاة مؤسسا العلامة القبيسي تنتهي حياة المدرسة وتنتقل حركة

التدريس الى :

- مدرسة جبج ٢ - ١٨٨٥ م " والتعلم في جبج قديم فسي تاريخه

فهي من القرن التاسع الهجرى بدأت مدتها العلمي بتقديرها الكبار من الرجال والاميان ، وكانت جبج تعتبر بعد جزين من الحواضر العلمية القديمة في جبل عامل وأغناها بمن تشيخ منار بما أنتج ابناءؤها من مؤلفات وما تركوا من آثار علمية

(١) - تاريخ جبل عامل ، محمد آل صفا ، ص ٢٤١ والحركة الفكرية والادبية في جبل

عامل لمؤلفه محمد مكي ص ٣٣ .

قيمة ، وقد ذكر محسن الامين من اعلامها ما يزيد على ثلاثين شخصية كبيرة* (١)

وقد تخرج من هذه المدرسة عدد وافر من العلماء منهم حسن يوسف ،
مكي مؤسس المدرسة الحميدية قسي النبطية ، وموسى شرارة مؤسس مدرسة بنت جبيل .

- مدرسة بنت جبيل " ١٨٨١ - ١٨٨٦ " أسسها أحد طلبة مدرسة حنوية

سابقا ، وقد جمعت ، عددا وافرا من افضل الطلاب وتعتبر من المدارس التي " جددت
العلم بعد دروس مدارس من القطر وخرجت من العلماء والادباء على قرب عهدنا
من حفظوا فيه الميراث العلمي العاملي ، وراحوا موته ، من هؤلاء ، العلامة محسن
الامين صاحب اعيان الشيعة ، والعلامة الشيخ عبد الحسين صادق ، والشيخ عبد الكريم
الزين ، وغيرهم ممن كانوا الخيرة الصالحة في جبل عامل (٢) .

وغيرها من المدارس ، كالمدرسة النورية والمدرسة المحمدية ^{المجدية} ،
ومدرسة النبطية الحديثة .

ومما هو جدير بالذكر ان حركة التعليم في المدارس العاملية ، كانت
مطبوعة بطابع الدين ، فهي حركة فكرية عقائدية . الدين فيها قطب الرحى ، وينحدر
عنه معارف متعددة ، تتعلق فيه وتدور في فلكه سائر هذه العلوم والآداب .

(١) آل صفاء ص ٤٤ ومكي ص ٣٢

(٢) انظر نفس المصدر ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ومكي ص ٣٩ - ٣٦

ومن الهديتي ان تكون علم اللغة بفقهها ونحوها والصرف وثنون البيان
موضع عناية المعلمين . فدراستها تعتبر الخطوة الاولى التي يفترضها التعمق بها
قبل البدء بعلم الدين والفلسفة والآداب ، فهي ضرورة دينية ، ومعرفة علم الفلسفة
ماسة جدا في دراسة الاصول وعلومها .

وهذا ما يفسر اهتمام الشيعة باللغة العربية الذي يرتباني كثير من
شيوخه بتدريسها ، وما لذلك من علاقة باطنية في فهم النصوص والتدليل على مضمونها .

ان النصوص الفقهية ، لا يمكن ان تأخذ احدا ظاهريا ، بل يجب ان
تتوافر عوامل التكامل من جذب نفسي بالنحو الى ادراك لاغت ظلال المعاني
الى معرفة للدلائل والوصل والفصل ، وقدرة على فهم ما يوحي به علاقات اكلم والعبارات .

ومقارنة موضوعية بين لغة التعليم عند الشيعة ولغة التعليم عند غيرهم
لاي في كل من المدارس الحكومية او الاهلية الوقفية "السنة" ومدارس المسيحيين او
الارسلات (الاجنبية) . آتخذ ، يتجلى الفرق الكبير بين المستويين . فبينما كانت
الحرية العلمية في جبل عامل متشوقة الى مرحلة التخصص العالي . كانت العلوم العربية
في مدارس الحكمة او المدارس الاهلية ترسف باغلال قديمة تضمنها من السير والحركة .
ولنسمع ساطع الحصري يقول عن تعليم العربية في المدارس الحكومية او الاهلية : "كانت
الحناءة معروفة الى الناحية النظرية مع اعمال كبير للناحية التطبيقية ، والاشتغال بالشكل
أبعد الدلبة عن الروح والجوهر . وشاع فيها جميعا حفظ الكتب السقيمة الركيكة
الجارية المولفة من عمود الانحطاط ، القائلة للملكات المتفتحة في نفوس ، النشبي
كما انهم نظموا مسائل العلم في فنون معقدة معقدة العبارة ، يرهقون الطلبة فسي
استظروا بها ولم يبق في علمهم حركة واحدة (١) .

أولاً ثم في حل طالعتها ثانياً * (١)

ورغم كل هذا يجب الاعتراف ان هذه المدارس القديمة، وخاصة الاهلية او السوقية منها، حالت دون الاجتهاد على ما تبقى من اللغة العربية وعلومها في هذه المدارس.

أما اذا قابلنا بين مدارس الحكومة والمدارس الاهلية "المسيحية".
لوجدنا ان الحكومة ذات تركيز على اللغة التركية اولا مما حجب عن الناشئة معرفة التراث العربي في حين كانت تهتم كثيرا تلك المدارس المسيحية . بشؤون اللغة وآدابها . بيد ان الطريقتين الحكومية او المسيحية تتفقان في امر واحد هو خلق الازدواجية اللغوية ، وهذا ما كان له خطره الكبير على الجيل الذي تحمل مسؤولية النهضة وعبء احياء التراث . في حين بقيت المدارس الاسلامية تلقن العلوم العربية دون غير وهذا يعود لارتباطها بعربية القرآن الكريم .

علينا ان نخلص لغتنا وثقافتنا من اثار الحكم الاجنبي .
فتأثير لغة بني عثمان في اللغة العربية ، ظل محدودا ، على رغم من
استمرار حكمها مدة تقرب من اربعة قرون .

ولا ننغالي اذا قلنا ، ان تأثيرها الاساسي لم يتجاوز كثيرا امر تأخير نهضة
الادب من جراء عدم وجود دولة عربية تشجع الادب العربي ونهي له وسائل
التقدم والنمو .

وما ذكرنا عن عهد ابراهيم باشا ، في سوريا ، وما احدث من انقلاب في الوعي ،
خبر دليل على هذا ، رغم قلة عهده .

ولو اراد الباحث معرفة المعالم المساعدة التي بدأت اللغة العربية ،
مركز الفلية والانتصار لوجد كثيرا من الخصائص المنفردة التي تمتعت بها هذه اللغة
دون غيرها من لغات الارض .

هذه الخصائص ترتكز جميعا على عامل رئيسي اسمه الدين ، واتصال اللغة
بالكتاب الكريم .

" واللغة التي تتصل بدين من الاديان ... فتصبح لغة الصلاة بين معتنقي
ذلك الدين ، تكسب بذلك امتيازاً على سائر اللغات فتزداد قوة على قوتها -
الذاتية . وتحرز مكانة ارفع من مكانتها الاصلية . فنستطيع ان نقول لذلك ان
الاديان والمذاهب تلتزم وتحصي بعض اللغات . وتتدخل بذلك في الصراع الذي
يقوم بين تلك اللغة وسائر اللغات ، فتساهم على الانهيار والبقاء " (١) .

ولعل هذا ما يفسر بقاء السريانية والعربية في صراع خفي لفترة طويلة
من الزمن ، انتهى بانتصار العربية التي تمتعت بمزايا لم تتوفر في السريانية .

(١) ما هي القومية ، ساطع الحصري ص ٢٠٤

من هذه المزايا ارتباط اللغة الدينية والشعائر الاسلامية بالفرد ، لا
بالكاهن من خلال لغة فصحى في القرآن الكريم ، لا ازديادية اللغة المحكية
والفصحى .

فالديانة الاسلامية التزمت العربية الفصحى كل الالتزام ، ولم تتخل عن
اللحجة من اللهجات العامية في يوم من الايام وذلك لانهم لم تعد بمهمة القرآن
الى ائمة المساجد وخطباء الجوامع وحدهم . كما فعلت الديانة المسيحية في
العالم الروماني ، فتفصل القاعدة المتمثلة في الشعب (الرعية) عن القمة
المتمثلة في رجال الكهنوت والتالي تكون فرص الازديادية ، او طيفيان لغة
دخيلة على وجدانات الشعب ممكنة فتمتلك المنتهم في التعبير واذ هانهم فسي
التفكير ، حتى اذا ما جاءوا - من ثم - الى تأدية الصلاة ، اخذوا يلهمجون
بصعوبة لغة رجال الدين ؟ فالديانة الاسلامية لم تفعل ذلك ، بل فرست
مهمة القرآن هذه على كل مسلم ومسلمة ، فصار لزاما على كل فرد ان يتلو طائفة
من الآيات القرآنية كل يوم خلال الصلوات الخمس حتى خلال الصلوات التسي
تؤدي جماعة يترتب على كل فرد مؤتم باجد المصلين ان يستمع الى ما يتلووه
الامام جهرا من ناحية وان يتلو - بعد ذلك - هو بنفسه سرا آيات اخرى من
ناحية ثانية .

ان هذه الاحكام الدينية استوجبت انشاء مدارس وكتاتيب كثيرة لتعليم
القرآن - قراءة وحفظا - لجميع الاطفال . وهذه المدارس والكتاتيب عمت جميع
انحاء البلاد ، ولم تنقطع عن العمل حتى في اسوأ عصور الانحطاط والطغيان .
كل ذلك ، حال دون انقطاع صلة العرب بالعربية الفصحى ، بل ظل
يذكرونها ويوصلهم اليها على الدوام عن طريق السماع المستمر والتلاوة المتتالية .

هذا الانجذاب للغوى الى الدين ، مكن للغة العربية وجودا ثويا

جابهت بمعواصف الزمان العاتية وسياسة التترك الفاشمة .

اغف الى ذلك في هذا المضمار ، ان الكنائس المسيحية في البلاد

العربية هي ايضا انتمت الى التزام العربية الفصحى ، فان الكنائس الشريفة

جعلت العربية لغة الصلوات والمواظ منذ قرون عديدة .

كما ان البروتستان ، ايضا ، اعتدوا ترجمة الانجيل الى اللغة العربية .

والكنيسة الارثوذكسية كذلك ، جعلت العربية لغة البافوس والصلوات والمواظ

بعد ان تخلصت من رقة اليونان .

وهذا ما ينفي قول التائلين ، بضعف العربية في تلك الازمنة التي

سبقت عقود القرن التاسع عشر وعلية السريانية عليها .

صحيح ان السريانية كانت تنافس العربية ، لكن هذا لاخيرة - للاسباب

التي ذكرنا - كانت لغة الشعب والرعية السريانية بالذات . وما يذكر من

طرائف من الكنائس يومها لخير دليل على هذا ، فالواعظ بالسريانية امام

الرعية كان يضطر مرفعا الى النطق بالعربية ليتفهم المصلين فهم ما يقول

ما يستدعي قراءة خط مكتوب بالخط الكرسوني باللغة العربية ، وهذا ما

يؤدي الى التصحيف احيانا وسوء النطق احيانا ، سيما اذا كان الواعظ

غربيا عن البلاد وغالبا ما يقتصر الخطا بمرج ومرج المصلين او باطلاقة ضحكات

لا يسلم الخورى من منازها . ولنستمع الى بعض هذا المثلثة التي ذكرها مارون

عبود في صغر لبنان :

"كان يقرأ احد الشماسة البهايل فصلا من "البركميس" (١) ، قال

الشماس اللبيب ، اني وضعك نورا للشعوب لتكون الحياة الى اقص الارض .
فضحك الخورى وقال : نور و ارض ، هذا كثيرا شماس ، خذ عنه يا متى .

وشرع متى يقرأ ولكن كباحين تلا فصلا من رسائل القديس بولس
فبدلا من ان يقرأ : ان الله لا يحب غيبث النية ، قرأ هكذا : ان الله لا يحب
كبة النية . فضحك المصلون وقال الخورى : مؤكد يا ابني الله ما هو ممن
ضيعتنا . (٢) .

هذه الامثلة الكثيرة وغيرها ان دللت على شي . ، فانما تدل على ان الرعية
كانت تجهل السريانية ، ولا تجيد الا اللغة العربية ، على عكس رجال الكهنوت
الذين يجيدون السريانية اكثر من العربية .

هذه الملاحظة اللغوية تؤكد ما ذهبنا اليه من ان انتصار العربية قد
تحقق عبر الصراع اللغوي التاويل بين اللغة العربية والسريانية من جهة ،
والعربية والتركية من جهة ثانية .

(١) كتاب عند الموارنة يعني اعمال الرسل والكلمة يونانية $\Pi\rho\acute{\alpha}\xi\iota\varsigma - \rho\eta\alpha\chi\iota\varsigma$

وهذه ملاحظة في الاصحاح الثالث عشر من سفر اعمال الرسل - اية ٤٧

(٢) صفر لبنان ، عبود ، ص ٤٥ - ٤٦

لهذه الاسباب العديدة ظل اتصال اللبنانيين باللغة العربية اتصالا وثيقا .
اقول اللغة بتأثيراتها الفصحى والعامية ، دون ان يعني تباعد لغة الكلام عن لغة
الكتابة تباعدا كبيرا . فهذه الفوارق بين لغة الكلام ولغة الكتابة - بين العامية
والفصحى - لم تعتمد قط حدود فوارق اللهجات الطفيفة .

وانما كان الناس في القرن الماضي ، لا يتكلمون بالعربية الفصحى فانهم ما كانوا
ليعجزون عن فهمنا ولو كانوا أميين ، علما بان اللغة الفصحى صارت تزداد تأثيرا
وتغلبا على اللهجات العامية شيئا فشيئا ، منذ بداية النصف الثاني من القرن الفائت ،
كنتيجة لانتشار المدارس والطباعة والكتب والصحافة والمجلات سيما في الربع الاخير
من القرن المذكور .

الفصل الثالث

حركة الاستشراق واثرها

فسي

اللفظة

من خلال لفوي القرن

أ - معنى الاستشراق :

جرى الاصطلاح عند المتأخرين من كتاب العرب ان يطلقوا اسم
"المستشرقين" على من يعنون بالبحث في لغات الشرق وعلومه ، واطلقوا
اسم "الاستشراق" على علمهم هذا .

ولما كان الاستشراق واسع المدى ، متشعب المقاصد ، فاستلحق
بان يقال لمن يعنون خاصة ، بدراسة مدنية العرب والاسلام "المستشرقون"
تمييزا لهم عن سائر من يعنون بلغات الشرق وعلومه .

وعلى هذا ، فالاستشراق هو النشاط الفكري والادبي والانساني
الذي يقوم به اعاجم في مجال اللغة العربية وعلومها وثقافتها .

ب - تاريخ الاستشراق :

نشأ الاستشراق في الغرب بعامل ديني اولا ، وانقلب فيما بعد الى
عامل مدني .

وكان سبق ان بعض ملوك اوربا وباباواتها اخذوا العربية عن علماء
الاندلس ومقلية وتعلم امراء الصليبيين وبعض قوادهم اللغة العربية في الشام

ايام غزواتهم الطويلة .

ولما قام الباباوات بانشاء الرهبانات لبث الدعوة الدينية في الشرق
بداهم ان يعلموا الرعبان لغاته ولا سيما العربية وبعض اللغات السامية
كالعبرية والسريانية . وهذا لتفهم المصرد العتيق . " فثنى مجمع فيينا
سنة ١٦١١م برئاسة البابا " اكلمنس الخامس ان تؤسس في باريس واكسفورد .
ومملكة اى في عوامهم فرنسا وايطاليا وانكلترا واسبانيا يومئذ دروس عربية
وعبرانية وكلدانية وسريانية " (١) .

وكانت المدرسة الطبية مونبلييه في فرنسا ، سبقت فانشات سنة ١٢٢٠م
دروسا عربية ليتسنى لها تدريس الطب في كتب العرب ، وفي سنة ١٢٥٤ انشئت
اول مدرسة عربية في اشبيلية من ارض الاندلس .

وعلى هذا ، يمكننا تقسيم عمل المستشرقين ، الى دورين يتبعان تاريخية

الحركة :

- الاول : وهو قديم يعود الى بداية القرن العاشر للميلاد ، يقضي بنقل العلوم
والمعارف الطبيعية والرياضية والطبية والفلسفية من العربية الى
اللغة اللاتينية ، وذلك لخدمة الغرب لهذا التراث العربي الذى
بلغ - يومها - عمره الذهبي ، والاستفادة منه في بدء النهضة الاوربية .

(١) م م م ع . المجلد : ٢٣ . الجزء الثالث ص ٣٤٧ وما بعده سنة ١٩٤٨

الثنائي : وهو ما بدأ بداية القرن الثالث عشر الميلادي ، ويقضي باشتغال
المستشرقين بدراسة اللغة العربية ومعرفة آدابها ، وذلك لأسباب
محصرا في ما يسمى " بالتعصب الديني " الذي تجلى بالشكليات
التالين :

١ - الرد على المسلمين ومجادلتهم ، فالنفة ، من ثم ، وسيلة

لانتقاد ما جاء في الدين والتراث الاسلامي والعربي .

٢ - التبشير بالمسيحية بين المسلمين وغيرهم من ابناء الشرق .

انف الى ذلك ، دافعا دينيا ، نتج عن حركة مارتن لوتر ، والبروتستانتية
ونفي بقراءة الكتب المقدسة بلغات الاصيلة ، وهذا ما زاد من أهمية
دراسة اللغة العربية وآدابها ، كوسيلة يستعينون بها في التفسير والفهم .

وفي الحقيقة ، لم يتطور الاستشراق الا بتأثير الاستعمار ، ولاجل
تحقيق اغراضه السياسية والاقتصادية ، فقد رأت الدولة الاستعمارية ان
الدراسات الشرقية ، التي كانت قائمة من قبل لاداف دينية ، يمكن الاستفادة
منها في معرفة عقلية الشعوب الشرقية للسيطرة عليها واستثمارها .

وهذا ما يقضي بنا الى القول ان الاستشراق ، كحركة ، ظل ضعيفا الاثر
حتى القرن الثامن عشر . ولم يثو ، الا بعون ورغد من الاستعمار . وهذا يدخل
الاستشراق في طور العلوم المنظمة ، حيث قامت بعد الدول الغربية وفي مقدمتها
بريطانيا العظمى على عمالها في بلاد الشرق ان يتعلموا اللغة العربية . كما

كما اهتمت فرنسا بالاداب الشرقية ، فاست المكنية الادلية ، في باريس
لجمع الكتب الشرقية . كما انشأت النساء عام ١٧٥٣ مدرسة لتعليم لغات الشرق
يدرس فيها الفناصل والتجار ، وحذت حذوها فرنسا في اقامة مدرسة اللغات
الشرقية المحلية لمثل هذا الغرض سنة ١٧٩٥ ، ثم " الجمعية الاسيوية " .
في باريس سنة ١٨٢٢ ، فقلدهم الانجليز بانشاء جمعية ايضا سنة ١٨٢٣ ، ثم
الالمان سنة ١٨٤٤ م .

واخيرا ، بدأ اطلاع الرساليات تتوافد كالسيل على الساحل السوري ،
وبلاد الشام ، سيما لبنان ، وقد كان نصيبه منها اكثر من اي دولة عربية اخرى .

ولا ينبغي ان المشرقيين على هذه الرساليات ، وواضعي منها —
التعليم فيها ، كانوا من المستشرقين اما الرهبان واما العلمانيين . (١)

ج - اثر المستشرقين في البرامج التعليمية :

لا يمكننا ان نفصل بين لبنان والعالم العربي ، كمنهج واحد استودفه
الاستشراق في غايته ، كما لا يسعنا الا ان نؤكد صلة الاستشراق بالتبشير
والمبعوثين الاجانب الذين وفدوا الى البلاد ، ليقوموا بدور اطلقوا عليه " التعليم " .

لذا ، سننصب منهجية التعليم ، ونوضح البرامج المدرسية ، وتأليف

(١) سنأتي على تفصيل ذلك في بحث التبشير .

الكتب ، الى نشاط حركة الاستشراق ، في المنطقة عامة ، ولبنان خاصة .

كما ان التركيز على التاريخ القديم ، كحلقة الفينيقيين دون غيرها ، هدف سياسي لا يمكن نسيان في البرنامج العام للاستشراق السياسي .

وقد بلغ الاهتمام بالتاريخ الفينيقي ، حدا ، باتت معه المراحل السابقة واللاحقة بالية ميتة . ودون اشارة الى عناصر الحقب الاخرى الصالحة للحياة والتي كان لها تأثير في تقدم الانسانية ؟ وبشكل عام ، كانت ابحاث المستشرقين من خلال برامج التعلم تتحصر في :

١ - بت الشعور بالسلفية التاريخية ، والتشجيع على الحفريات الاثرية .

٢ - تصوير الواقع بأسوأ حال ، وتزيين الحرب على انه الفردوس المأمول .

٣ - دراسة اللهجات العامية ومقارنتها بغيرها ، كحركة تركز تكريس

اللهجات وجعلها اساسية في التداول .

٤ - دراسة التاريخ العربي من زوايا الفتنة والاملية والخلافات المذهبية

ومظاهر الانقسام والتفسخ .

٥ - دراسة المذاهب بشكل تفصيلي من خلال ما اسماه حرية البحوث

العلمي .

٦ - بت الشعور بالسلفية التاريخية لما قبل الاسلام ، وذلك باعادة

تأليف الحقب التاريخية وفق منهج ثقافي دقيق . باتت معه

الانتصارات العربية والإسلامية حكايات تروى بشكل مختصر وسطحي . في حين
برز ما سمي بتاريخ لبنان في العهد القديم . وإذا ما تكلمت هذا المناخ عن
الإسلام ، فانه لا تتعرض إلا لفواصل تاريخية ضعيفة أو نقاط سوداء جبهت
حياتهم . فهي تحرم في الغالب حول الفتن الأهلية والخلافات المذهبية
ومظاهر الانقسام والتفجع . وهذا ما لدراسات قلما تعالج الحياة الاقتصادية
والاجتماعية والحركات الشعبية وتطور الأنظمة السياسية معالجة تحليلية
علمية .

كما ان ابحاث هؤلاء تركزت على واقع البلاد السي . واخذت في
توسيع الحزق على الواقع ، وتشويه معالم الحياة . حتى باتت البلاد ديارا
لا تلاق ، من الظلم الذي لن ينتهي ، والاستبداد الذي سيطر بالآمال
قبلا . معيق اذا لم تكن هناك دولة اوروبية تقف بالمرصاد بنسبة الحماقة
ونشر الطائف . والغيم في البلاد . هذا مع رسمته منا هجهم التربوية كي يدخل
في روع كل مواطن ان لا حياة مسكنة دون الاجنبي المديق .

كما شجعت ابحاث المستشرقين حركة العاميات المنحكية ، بما نشرت
من دراسات تتناول أهمية هذه اللغات وخصائص العامية في كل قطر . وما لها
من قيم صوتية تتشابه مع غيرها من اللغات . وقد كان أسلوب البحث العلمي ،
كالعادة ، رائد هم في هذا المجال . حتى اخذت أصوات تنادي باستعمال
العامية المنحكية كوسيلة للتفاهم والتعليم في المدارس بدلا من الفصحى ، التي
باتت - حسب رأيهم - حزمة ، ترفل بالتعقيد والتعمية .

ولا يعني هذا ان نقف من المستشرقين - جميعا - موقف العداء او المستكرين فهناك بعض المستشرقين قد اندفعوا الى دراسة اللغة العربية وآدابها بدافع من اهتمامهم الخاص وحبهم للعلم دون غرض من الاغراض فحسب المعرفة والبحث عن الحقيقة والتقيب عن التراث هدف من ابحاثهم ودراساتهم . بيد ان الجهود العلمية التي يبذلها هؤلاء الافراد لا يمكن ان تبدل الاتجاه العام في حركة الاستشراق . كما حددتها الدول الاستعمارية .

د - لغويو لبنان والاستشراق

لم يكن موقف كتابنا من الاستشراق واحدا ، بل متعدد ، يختلف باختلاف الميول والمصالح الخاصة في كثير من الاحيان . ويمكن ان نحصرهم في فريقين فريق عمل معظم فترة من الزمن . كناصيف اليازجي ، وبطرس البستاني ، ويوسف الاسمر . ولم يقف منهم موقف الصراحة في القول .

وفريق ثان ، عمل البعير منهم ، مع المستشرقين ، ثم انتقدهم ، وتبيين خطأهم وكشف ادعائهم وقصورهم في البحث العلمي والرب اللغوي . ومن هذا الفريق سنختار آراء لاحمد فارس الشدياق الذي بين ما وقع به المستشرقون من نقص واسطراب في التقدير والحكم ، وتشويه في التأليف

يقول الشدياق في هؤلاء المستشرقين ، الذين رأهم غمرا وبلاء لا نفع منهم ولا دفع ، في رد له على ما كتبه المستشرق الكسندر شذكو في فاتحة كتاب الفه في نحو اللغة الفارسية سنة ١٨٥٢ : " ان هؤلاء الاساتيد لم يأخذوا العلم عن

شيوخه وانما تطلقوا عليه تطلقا وتوثبوا توثبا ، ومن تخرج فيه بشي ، فانما تخرج على
" القس حنا والراهب توما والخوري متى " ثم ادخل رأسه في اضفاث احلام او ادخل
" اضفاث احلام في رأسه وتوهم انه يعرف شيئا وهو يجهل به .
" وكل منهم اذا درس في احدى لغات الشرق او ترجم شيئا منها تراه يخطط فيها خيط
" عشواء فما اشتبه عليه منها رقعته من عنده بما شأ . وما كان بين الشبهة واليقين
" حدس فيه وخمن فرجح منه المرجح وفضل المفعول . وذلك لانه لم يوجد عندهم من
" تعدى لتخطايتهم وتسوئتهم . (١)

وهكذا يمتضي الشدياق ، كاشفا زيفه ولا ، وادعاء بعضهم العلم ، فهم
يدمجون الكلم وفق اهوائهم ، ويشوهون اكثر ما ينقلون :

" من هو لا الاساتيد الذين يفسدون عبارة المؤلف ويحملونها معانيسي بعيدة
" يا باها الطبع والذوق " . (٢)

وينتبه الشدياق ، لقضية خطيرة في عهد هو لا ، استهدفت نقل اللغة
العربية والتراث العربي الى الغرب عبر نماذج كتابية مشوهة ، تسمى " لخصائص العربية
شكلا ومضمونا " من ذلك توسلهم ببعض الاقوال الفاسدة ، والنصوص الغامضة فيترجموها
الى لغتهم على انها آداب العربية .

(١) ذيل الساق ٠٠ الشدياق ٠٠ ص ٦٨٧

(٢) ذيل الساق ٠٠ الشدياق ٠٠ ص ٦٨٧

"فناية ما صنعوا انما هو واحد" ثم ترجم من لغتنا لغة الاطيار والازهار فخم فيها
"وحس ما شا" . وآخر ترجم محاورة يهودى سمسار واحقق من التجار .
"وأخر مسح امثال لقمان الحكيم الى الكلام الركيك المتعارف في الجزائر .
"وأخر تعنى لطبع اقوال سخيفة من رعا ع العامة في مصر والشام . وترك
"ما فيها من اللحن والفساد كما هو استراعا بقولة كذا رأيتها في الاصل" (١)
ويتساءل الشدياق عن سبب هذا التماثل على ترجمة مثل هذه الكتب وطبع مثل هذه
الاقوال الى اللغة الفرنسية ، فلا يرى الا "توهم ملفقها على الانخراط في سلك
المؤلفين" . (٢)

وكان الشدياق ، كشاف جهلهم ، فيقف متحديا اياهم في "ترجمة شيء من
الكتب (الفرنسية) الى العربية" ما داموا يدعون معرفة اللغتين . خاصة وان
في اللغة الفرنسية كتباً جليلة القدر في كل فن ، "اذا كانوا منزهين عن الغرض .
ويمضي الشدياق في تحديهم لهم الى ان يقول :
"واعجب من ذلك ان لم يحظر ببال احد منهم قط ان يترجم نحو لغتهم الى لغتنا .
ويرى السبب في ذلك فيقول :
"فيل من سبب آخر غير التحذر من ان يعرضوا انفسهم للتحقيق والغنيد والتحميم .

(١) ذيل الساق . . الشدياق . ص ٦٨٨

(٢) الساق الشدياق ، ص ٦٨٩

"فان عبارة النحاة والمعربين لا بد من ان تكون محررة صحيحة ولا عذر لهم معها
ان يقولوا كذا وجدناه في الاصل . (١)

"ويفضح الشدياق ، خطتهم الخبيثة في نشر العامية بين ابناء جلدتهم على انها
العربية الفصحى فيقول منددا بعلمهم هذا ، مستهزئا :
ويا ليت شعري ما الفائدة في كون احد هؤلاء الاساتيد يؤلف كلاما مسلطا فاسدا
في لغة اهل حلب ويسميه نحوا . . . وفي كون آخر يكتب بلسان اهل الجزائر كان
في واحد الدارياوات . . . فما بالكم يا اساتيد لا تؤلفون كتباً بكلامكم الفاسد
الذي تسمونه بنوى .

"وهل تشيرون على عربي اتمام بمرسيلية مثلا ان يتعلم كلام اهلها او كلام اهل باريس
ولو كان فعلاكم هذا فعل رشيد لوجب ان تقيدوا جميع الاختلافات والفروق الموجودة
عند المتكلمين بالعربية . فان اهل الشام يستعملون الفاظا لا يستعملها اهل مصر .
ومشى على ذلك سائر البلاد الاسلامية . بل ان لاهل صنع واحد اصطلاحات شتى .
فكلام اهل بيروت مثلا مخالف لكلام اهل جبل لبنان . وكلام هؤلاء مخالف لكلام اهل
دمشق . "

وما النتيجة من هذا العمل الدنيء ، برأى الشدياق ، الا السوس لهم وافساد اللغة
لنا ، وتأخذها الغيرة على العربية فيقول :

(١) الساق ، الشدياق ، ص ٦٨٩

"... هذه اللغة الشريفة التي من بعض خصائصها انها بقيت ثابتة القواعد قارة
" الا لليب على انقراض جميع ما عداها من اللغات القديمة . وان المؤلفين فيها -
" يومنا هذا لا يقصرون عن اسلافهم الذين انقروا من الف وماتى سنة . فهم -
" حسد شكونا على ذلك وحاولتم ان تحيلوها وتلحقوها بلختكم التي لا تفهمون -
" الف فيها من ثلثماية سنة . (١)

وهكذا ، يراعى الشدياق ، غير اهل للعلم ، وما هم الا ملفقون ، ويتساءل كيف ، رخص
لهم في ان يطعموا ذلك من دون الوقوف على حقيقته ، فان من هؤلاء " الاساتيد من لا
يفهم اذا خوطب فضلا عن جهل التأليف . ولا يفهم اذا قرأ . ولا يقوم الالفاظ فسي
القراءة "

وهزوى الشدياق قصة احد هؤلاء فيقول :

" سمعت مرة بعض التلامذة يقرأ على شيخه في مقامات الحريري ولا يكاد ينطق بحرف
" واحد نطقا بينا من هذا الحروف التي خلت منها لغتهم . وهي التاء والحاء و...
" وشيخة ساكت لما انه يعلم ان تصحيحه له لا يكون الا فاسدا ، فكيف يمكن لمن
لم يسمع اللغة من اهلها ان يحسن النطق بها . (٢)

وهو يطعن في كل ما القوه من نحو ، او ما ترجموه من قواعد عربية وذلك لاختلاف
النطق الاولي للحرف العربي ، وطريقة تركيبه ، وهو يتول في هذا الصدد :

(١) الساق ، الشدياق ص ٦٨٩

(٢) الذيل ص ٦٦٠

"كيف لا وار من الف منهم في نحو لغتنا شيئا فانما بنى نحوه كله على فساد .
فانهم يترجمون عن الحميم بلساننا بحرفي الدال والجيم بلسانهم . وقد جعلوا انه
ليس عندنا في العربية حروف مركبة كما في اليونانية . فان الابتداء بالساكن مرفوض
عند العرب ان لم نقل انه ممتنع " (١)
و . . .

وما على هؤلاء الا ان يكفوا عما ليس باستطاعتهم ، فهم وان عرفوا الكثير فسي
التاريخ ، كما يقول الشدياق ، الا انهم لا يفهمون ما كتبه اعلام هذا التاريخ . ولا
يدرون جزل الكلام من ركيك وثبته من مصنوعه . ولا المحسنات اللفظية والمعنوية .
ولا الدقائق اللغوية . ولا النكات الادبية ولا النحوية " (٢)

وغاية ما يقال " انهم نتفوا نتفة من علم الصرف بواسطة كتب الفتح بالفرنساوية .
وينتقد الشدياق ، المستشرق دى ساسي بعد ان يقر علمه وفنعه ، بقوله " على انسه
رحم الله لا ينظم في سلك العلماء المحررين فقد فاته اشياء كثيرة في الادب واللغة
والعروض " (٣)

(١)
(٢)
(٣)

ص ٦٩١

ويستغرب الشدياق جهل هؤلاء ، وهم الذين سافروا الى بلاد العرب ، واقاموا فيها اكثر من غيرها ، ومع ذلك لم يتعلموا سوى الركافة والخطل . (١)

الى ان يقول للقارىء العربي :

اعلم . . اني لم اجد من بين جميع ما طبعوا بلغتنا جديرا بالانتاد سوى مقامات الحريري . (٢)

(٥) ص ٦٩١

(٦) ص ٦٩٢

الفصل الرابع

التبشير ودور الرساليات في لبنان

أ - معنى التبشير

جاء في الاصحاح الحادي والستين من نبوة اشعيا ذكر عبارة التبشير ، بالمعنى التالي :

" ان روح السيد الرب عليّ لأن الرب مسحني لأبشر المساكين وارسلني لأجبر
" المنكسرى القلوب واتادي بعثق للمسبيين وتجلية للمأسورين " (١) .

وجاءت العبارة ، ثانية ، بعد سبعة قرون ونصف في الاصحاح الرابع من انجيل لوقا ، بالمعنى التالي :

" ان روح الرب عليّ ولاجل ذلك مسحني وارسلني لأبشر المساكين واشفي منكسرى القلوب (٢) "

وفي كلتا العبارتين ، يتفق مفهوم التبشير بمعنى واحد ، هو المناذاة بالانجيل .

وفي عبارة " مسحني لأبشر " بالذات ، دلالة واضحة على القصد ومحاولة متفائلة للقضاء على " الخطيئة " التي تشكل بضمونها البشري ، درجة من الدرجات الثلاث (٣)

(١) الكتاب المقدس ، العهد القديم ، المجلد الثاني ، نبوة اشعيا ص ٣٠٠ فقرة (١) .

(٢) الكتاب المقدس ، العهد الجديد ، انجيل لوقا ص ١٠٢ ، فقرة (١٨) .

(٣) الدرجات الثلاث : الخطيئة ، الخلاص ، الخدمة .

المؤلفة الجانب الفردى ووجه القضية التي اختص بها الدين المسيحي ، اعنسى بها ، علاقة الفرد البشرى مع ربه ، وفهم مدارها ، والتماس دور الصلاح ، من ثم .

ومن العبارة بالذات ، تتضح سمات المبشر المسيحي ، فهو تلميذ للمسيح ، يحدو حذوه في ثبيان حدود المسار الاخواني والكوني والالهي .

وبهذا ، يتجدد مفهوم التبشير ، بما يكل بداية الفرد الى درب الايمان ، وابعاده عن العنادة التي تهدم ركنا من اركان الاتفاق الروحي . وما دام الاتفاق حاصل ، والفرد يعيش معاناة الخلاص ، منتصرا على الخطيئة ، فلا واجب ملحق ، متبانت لردعه ، وضبطه في النهج الايماني ، الذي حققه عبر ايمان قد لاتعترف به المسيحية .

أما من وقف من المبشرين مزورا عن هذا ، فلا صفة تبشيرية صادقة له .

ولوبقي هذا المفهوم لمعنى التبشير ، لما انعكس آثار خطيرة على المجتمعات الانسانية ، بيد أن التبشير وقع تحت وطأة المأرب السياسي لدول اوربا وامريكا ، وارتبط الكاهن ، او الثوب الكهنوتي بوزارة الخارجية ، مباشرة ، او انه انسدح في سلك موظفي المخابرات والادارات الحكومية المختصة ببلاد الشرق عامة ، والوطن العربي خاصة .

هذا ، وقد كان المسيحيون ، القاطنون في هذه البلاد ، العربية ، مثلا ، معبرا لتلك الاهداف التي تضمنها مفهوم التبشير فيما بعد . وكان هؤلاء المساكين فرصة ذهبية سنحت لأولئك ، فسمعوا اليهم ، سعي الحبيب الى حبيبه ، والصديق الى صديقه . وما هم بأحبة ولا اصدقاء ، ولكنهم وجدوا في هؤلاء مواطني قدم ، ومراسي صالحة لرحلتهم الطويلة .

ب - الارشاليات التبشيرية في لبنان

شهد القرن السابع عشر ، بدايات البعثات التبشيرية التي كانت في معظمها كاثوليكية فرنسية في الغالب ، تنسب الى جمعيات اليسوعيين او الكبوشيين او الكرمليين .

وكانت جهود هذه البعثات في البداية ، محدودة الاثر ، تقتصر على انشاء عدد قليل من المدارس والمعابد في اماكن متفرقة من بيروت والجبل ، أو بعض مناطق في سوريا وفلسطين وكثيرا ما كانت تكفي بنشر بعض كتب العبادات ونشرات خاصة بها .

ولم تستطع هذه البعثات الأولى ان تعمل خارج نطاق بيروت مثلا لما كانت تلاقيه من رقابة شديدة من الولاة العثمانيين .

كما انحصرت رعايتها في الطوائف المسيحية الموالية لكنيسة روما ليس غير . لأن محاولات التبشير خارج نطاق طوائفهم كان يند غريبا من المغامرة المستحيلة نظرا للتمصب الشديد الذي كان يهود ذلك العصر .

وقد سبب احكام مراقبة العثمانيين هذه ، رحيل اكثرهم او تجميد نشاطهم على الاقل . ويبدو ان اليسوعيين ، كانوا اكثر المرسلين ، تحملا للادى العثماني واضطهاد حكامه ، ولعل هذا عائد لخبرتهم القديمة التي تعود الى حوالي سنة ١٦٢٥ م . وكما قلنا ، فان مجال نشاطهم ، كان لا يتعدى دائرة التعريف بالطقوس وكيفية القيام بعبائهم ، ولو كان غير ذلك ، لما اختلف مصيرهم عن غيرهم من المطرودين من البلاد .

وعلى أى حال ، ما ان انصر عام ١٧٧١ م ، حتى صدر مرسوم " فرمان يقضي
بتعطيل جمعيتهم ، فتفرقوا بددا ، واغلقوا اكثر مؤسساتهم ، تاركين المنشآت
للبعثات اللعازارية لتديرها .

ولم تستأنف هذه الجمعيات عملها الا في سنة ١٨٣١ م . ولعل من الاسباب التي
اوجبت عودتها أن البعثات التبشيرية الاميركية اخذت تعد الى بلاد الشام من—
عام ١٨٢٠ م ساعية جهدها في تحويل افراد الطوائف الكاثوليكية الى المذهب—
البروتستانتي .

الا ان عقبة جديدة ، وقعت في طريق المرسلين الاميركيين ، تضاف الى جميع—
العقبات التي اعترضت سبيل الجمعيات الكاثوليكية التي سبقتهم ، هي عدم وجود
طائفة بروتستانتية . وهذا ما جعلهم يعتمدون الى تحويل الافراد المسيحيين من
الطوائف الاخرى ، كوسيلة لجمع الاتباع . وقد ادى نشاطهم هذا الى اثاره روح العداوة
في نفوس رجال الدين من اهل البلاد ، واشتداد التنافس بين الطوائف بشكل حاد
كان لا يخلو في اكثر الاحيان من مناشير تتضمن الوعيد والتهديد والقذف والسب
بين هؤلاء وأولئك .

وجاء في قول لمؤلف المقاطعة الكسروانية في اخبار سنة ١٨٢٥ هذا النص :
" اذا كان من برهة قد حضر الى بيروت مرسلون بيليشيون اى انجيليون " البروتستانت "
قصدا لالذار في لبنان في شيعتهم ومعتقدهم الفاسد ، فتصدى البطريرك يوسف حبيش
لمقاومتهم وبأشد غير . وأبرز ضد هم منشورين بدما ينبه ويحرض ويحتم على ابناء طائفته
ليكونوا مسترسين من غشهم وخدايعهم .

ففي المنشور الاول يحتم المحتم الجازم بكلمة الرب العزيز سلطانها على الجميع
بأن لا أحد يقتني أو يبيعها أو يشتريها أو يهبها أو يطالع بها أو يقرأ ، ولا بأية
علة وسبب كان . ثم يمنع الاشتراك معهم بالصلاة والتعلم في مدارسهم أو مطالعة
مؤلفاتهم وأن الذي يخالف ذلك جميعه بجساسة أو يمنع نفوذ هذا المنشور ،
فان كان اكليركيا ^{سيدا} فكليلة ممنونا بذات الفعل من التصرف بدرجته ، وان كان علمانيا
فليكن ساقطا تحت طائلة " الحسم " المحفوظ حله للسلطان البطريركي (١)

ولم يتعد المنشور الثاني او غيره هذا المضمون من التهديد والتحذير .
ودخل الصراع بين المرسلين البروتستانت والكاثوليك مرحلة الرد المنظم ودحض
الحجج عبر البراهين المتأرجحة بين الانفعال العاطفي للدين حيناً ، والخوف
على المصلحة ونقد النفوذ حيناً آخر .

وهذا ما نراه في قيام المطران بطرس كم " رئيس ساقية بيروت " يومذاك ، بتأليف
كتاب " فند فيه مزاعم البروتستانت " (٢) كما حمل شاب ، كان كاتباً في ديوان ذلك
المطران ، على النهموض لمجادلته والرد عليه . هذا الشاب من بيت الشدياق
وهو سعد الشدياق اخو احمد فارس الشدياق واحب اخوته اليه .

(١) المقاطعة الكسروانية ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ ، صقر لبنان ، عمود ١٨٨٩ .

(٢) صقر لبنان ، عمود ، ص ٣٩ .

لكن امرده هذا، جرّ عليه الويل ورشق بالحجم الكبير، إذ " استدعاه البطريرك الحبيشي الى قنوين وظل هناك حتى قضى " (١)

وما لاقاه البروتستان من اخصامهم اليسوعيين، لا يعتدّ به، إذا ما قارناه بخصومة الموارنة لهم، ولا عجب في وثقة الموارنة هذه، و " التقليد يروى لنا " ان الموارنة لـم ينهضوا البروتستان فقط، بل قابلوا قبلهم الاباء اليسوعيين بمثل هذا الكره والمقاطعة وحالوا دون اقامتهم في بلاد جبيل^(٢) .

ولئن مضت هذه البعثات في تبشيرها، ساعة، فانها لم تبلغ الغاية التي استهدفتها من هذا العمل، لان الطوائف التي اعترضت طريق البعثات الاجنبية قبل الفتح المصري لبلاد الشام، بلغت مبلغا، ان لم يعطل جهودها تعطيلًا كاملا، فقد حصرها في اضية نطاق . وهذا ما يبرر بقاء الامريكان منذ وصولهم، داخل بيروت آنفئذ، مدينة مسورة لا يتجاوز عدد سكانها ٩٠٠٠ شخص (٢)

- عام ١٨٣٤ م، تحوّل خطر في تاريخ التبشير -

احدثت سياسة ابراهيم باشا، الذي جاء سوريا، فافتحا عام ١٨٣١ م، تفسيرات كثيرة في الحكم، كان منها فتح المجال امام البعثات التبشيرية الاجنبية، والسماح لها بحرية العمل . فتقاطر المبشرون على بيروت، ومنها انطلقوا الى سائر انحاء الشام، حيث نادى اليسوعيون مجددا في بداية العام، كما وصل مرسلون امريكان لينضموا الى سابقهم . وبأخذ التنافس على النفوذ والغلبة اشده، بين الكاثوليك والبروتستان، حتى يبلغ درجة التناحر في بعض الاحايين .

(١) صقر لبنان، عبيد ص ٣٩

(٢) صقر لبنان، عبيد ص ٤٠

وقد تميز هذا العام بثلاث حوادث مهمة ، كانت على التوالي :

— إعادة الآباء اللعازاريين افتتاح كليتهم الخاصة بالذكر في عن

طوره " عيطورة " .

— نقل مطبعة البعثة التبشيرية الاميركية من مالطة الى بيروت .

— قيام ايلي سميث " الامريكي " ، " ١٨٠١ — ١٨٥٧ " وزوجته

بتأسيس مدرسة للاناث في بيروت في بناء خاص بها .

وما انصرم عام ١٨٦٣ حتى كانت الارساليات الاميركية قد اسست لها مراكز

في عبيه وسوق الشرب وصيدا وحاصبيا وطرابلس . وثلاث من هذه المدارس لا تزال

ظائمة الى عهدنا هذا .

كما باشر المرسلون الاميركيون ، بعد ذلك ، بوضع نظام تعليمي ، وفق مخطط

محدد ، كان قد أعده الخبراء بالشؤون العربية واللبنانية ، وهم ما اصطالحوها

على تسميتهم بالمستشرقين (١) .

كما وقاموا بطبع كتب مدرسية مختصرة في أول الامر ، ثم طوروا ذلك بعد

حصولهم على مطبعة جديدة سبك حروفها ، المستشرق والمبشر ايلي سميث فسي

ليبرز ، وجعلها على نمط جديد من الحروف ، غير تلك الحروف القديمة انذاك .

(١) راجع الاستشراق ص ٥٦ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١

ومنذ حينها بدأت المطبعة هذه ، تتحمل أعباء مشروعات واسعة في الدعاية الحربية وخاصة اخراج الترجمة الجديدة للقرآنة .

وبعد أن حل المرسلون الالميركيون مشكلة الحرف والكتاب المدرسي ، اعترضتهم مشكلة تخريج المعلمين المؤهلين . فوجدوا لها حلا في تحويل المدرسة العالية التي أسسوها في بلدة " عبيه " بجبل لبنان الى كلية لاعداد المعلمين وتدريبهم .

وما ان اشرف عام ١٨٦٠ حتى كانوا قد أسسوا لهم ثلاثا وثلاثين مدرسة تضم نحو من الف تلميذ خمسهم تقريبا من البنات .

وفي مطلع سنة ١٨٦٢ ، اتخذت الارساليات الالميركية قرارا بتأسيس كلية للتعليم العالي عرفت بالكلية السورية الانجيلية ، وكانت تضم ١٦ طالبا فقط عسىام ١٨٦٦ . لكنها ترقى مع مرور الزمن حتى أصبحت في مستوى المرحلة الجامعية ، وباتت تعرف اليوم بـ " جامعة بيروت الالميركية " .

ولم تكن البعثات التبشيرية الكاثوليكية ، خلال هذه السنوات بأقل نشاطا من منافستها البعثات البروتستانتية ، ولعل اليسوعيين ، أكثر هذه البعثات الكاثوليكية مضاه وعزيمة ، خاصة في ميدان تعليم الذكور .

وقد سبق القول انهم عادوا الى الشام سنة ١٨٣١ ، وبعد سنتين ١٨٣٣ - ١٨٣٤ عادوا لفتح اثنتين من مؤسساتهم السابقة في جبل لبنان ، ثم التحقت فيما بعد مدرسة بكل واحد منها . وأنشأوا مدارس في بيروت " ١٨٣٩ " و" ١٨٤٣ " و" ١٨٤٤ " .

وأصبحت مدرسة غزير في جبل لبنان ، ذات قيمة تاريخية بعد نقلها الى بيروت سنة ١٨٧٥ وتسميتها بـ " جامعة القديس يوسف " .

وكذلك بدأ اليسوعيين في ميدان الطباعة ، فأسسوا أول مطبعة لهم سنة ١٨٤٧ م . وكانت مطبعة حجرية ، ولذلك كان نتاجها ضئيلا جدا . ولم يبدأوا الطباعة بمطابع ذات حروف منفصلة الا في سنة ١٨٥٢ . وحين نقلوا مركز تعليمهم العام الى بيروت أصبحت لديهم أجهزة طباعة كاملة العدة .

كما نشطت البعثات الكاثوليكية الاجنبية الاخرى ، ففضلا عن اللعازارين الذين أعادوا افتتاح كليتهم في " عنطورة " . أسست راعيات المحبة ، والمدونات الدينية الاخرى مدارس للبنات والبنين في بيروت وبعطيك وفي مناطق متعددة من جبل لبنان .

هذا وقد تعرضت الكثير من المنشآت التبشيرية للهدم أو التدمير أو الخطر أثناء الاضطرابات التي كانت تهز البلاد من حين الى آخر ، وخاصة حوادث ١٨٦٠ الاممية . مما كان يستدعي اغلاق بعض هذه المنشآت في أغلب الامم . غير أن الامر قد انقلب الى صالح هذه الارشاليات ، مباشرة عقب فتنه ١٨٦٠ . فباتت جهودهم حثيثة لملء الخلاء . جدية المنجزات ، واسعة الوصاية بشكل أخذ يشمل أكثر المناطق في الجبل والساحل وبيروت .

ويحدد ذلك الدكتور البشرى فيقول : " يرجع اقبال الاوربيين على ارسال البعثات وتنشيط رعاياهم للاقامة في الامبراطورية العثمانية الى اطمئنانهم للسكن تركيا منذ أن أصبحت زعامتها بأيديهم بعد ابعادهم اياها من نشاط التوسع العصرى على اطماعهم ثم لتنافسهم على استعمارها اقتصاديا ، وتأليب كل منهم للحصول على أكبر حصة من ميراث الرحل المريض . فتغلغللت بعثات التبشير المختلفة . ولستم يكن اهتمام الغرب بارسال البعثات التبشيرية الى الشرق وغيره الهدف الرئيسي منها بقدر ما كان ذلك وسيلة لتمهيد الطرق امام الاستعمار في صورته الحالية " (١) وهذا ما يؤكد الدكتور عمر فروخ حيث يقول :

" من المعلوم ان فرنسا كانت تطمح منذ مدة طويلة في امتلاك بعض البلاد العربية ، ولا سيما سوريا ولبنان . وكانت تعتمد لتمهيد السبل الى ذلك بوسائل شتى ، وكان أهم هذه الوسائل الاستعانة بالارسلات الدينية والمؤسسات التعليمية لبث الدعاية لها بين أهل البلاد .

" ولهذا السبب بذلت جهودا كبيرة لتكثُر عدد هذه الارسلات والمؤسسات ولتوجه أعمالها في الاتجاه الذى يساعد على احتذاب الناس اليها " (٢)

ويمكن لنا تحديد هذه الاهداف بالنقاط الرئيسية التالية :

(١) أثر سياسة القوميات في الحركة العربية ، د. عبد الشفي البشرى ص ١٤٦ .

(١٩٦٤ ، ادارة المطبوعات والنشر للقوات المسلحة) .

(٢) التبشير والاستعمار ، عمر فروخ ، ص ٢١٠ .

١ - اضعاف الشعور القومي :

كثار من الباحثين العرب واللبنانيين خاصة الذين **يخفرون** القرن التاسع عشر ، حصل الاتجاه القومي ، ايماناً منهم بان الفكر القومي طفق يسعى بين أرجاء الأمم بدءاً هذا القرن الذي استحق لقب " قرن القوميات من جدارة " .

بيد أن الأمر ، يحلوا لبعض المؤرخين " اللبنانيين " في ان يجعلوا بواعث الفكر القومي ، واحبائه وليد جهود المبشرين وارسالياتهم التعليمية في لبنان . الا أن الواقع يبدد هذا الزعم ، فتاريخ التعليم التبشيري ، ما حفل يوماً بالدواحي القومية لما فيها من خطر يتنافى ووجود هؤلاء .

ان حركة البعث القومي التي اشرقت في أواخر القرن التاسع عشر ان هي الا حركة وطنية بحتة قام على احيائها علماء ، مخلصون ، نزرخوا انفسهم لأمم ووطنهم وأمتهم . من هؤلاء تألفت شمس التجديد الفكري ، أعني بهم ، أحمد فارس الشدياق وبطرس البستاني ، واليازجيان ، وبوسفالاسير ، وسعيد الشرتوني ، وسواهم .

ومن يعد الى المناهج التربوية التي قام المبشرون باعدادها يجد حقيقة ما نذهب اليه من أنه اعداد واستهدف تأمين مصالحه السياسية أولاً ، ثم ، أولى وجهه عن شؤون هذه الأمة ساعياً - بذلك - الى تشتيت الفكر القومي وتسميم العقليسة العربية تحت شعار " الثقيف " و " البحث العلمي " .

ولنسمع الى حديث الامماني في حاضرة اللغة نقلاً عن ساطع الحصري فسي ^{حارلو} جولة الثقافة حيث يقول : " أما المدارس الاممانيّة ، فقد كان هدف ارسالياتها استعمارها بحثاً يمهّد للدول الاممانيّة في ميادين التبشير الذي يجعل من المستجيبين مخلصين لمصالح الدولة الاممانيّة التي تدين بمذهب ارسالية " .

وأثبت الواقع أيام الامتراك وأيام الانتداب الفرنسي وفي عهد الاستقلال

نجاح هذه المدارس في مهمتها تلك .

والميدان الثاني التسميم الثقافي على الأقل عند من لم يستجيب للمذموم

التبشيري^(١) ويمكننا حصر نطاق عمل هؤلاء المبشرين في جانبين مهمين يشكلان معا

وحدة وجود الاممة قلبا وقالباً . هما اللغة والثقافة .

أ - اللغة والتبشير : لما كانت اللغة ، تشكل بغيرها الاجتماعي اظهر

الثقافة ، وتقرر صفتها ، بات من الضروري أن تكون هدف المبشرين الاول واليها

توجه السهام وتراش النبال .

ورب قائل يقول : " ان تعليم الامم العربى ، واللغة العربية وجد مؤثلا في

المدارس الاجنبية^(٢) .

أجل هذا ما كان في بداية أمرهم ، لكنهم ، سرعان ما قلبوا لهذه اللغة ، ظهر

المحن ، بعد أعوام ، حين أيقنوا من ثبات منسبتهم وبرامجهم وما لا تقوم من اقبال متزايد

بغية العلم الذى غلبه أبناء الشعب عقب حرمان خمسة قرون في النظام العثماني .

وعلى هذا مأخذت اللغة الاجنبية محل اللغة العربية التي انزوت في

مناهج ضيقة لا تنم عن أى أمل بالتطور والنماء .

(١) حاضرا اللغة في الشام ، الافغاني ص ٢٣ وما بعده .

(٢) ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٨٢

وقد يحد البعض تسويها لهذا فنقول : " ولكنها " أي رسالة الأمريكان " اضطرت أخيراً للتخلي عن هذا التقليد " التعليم باللغة العربية " الجميل لأسباب عديدة منها تنوع الجنسيات التي كانت تتمثل على أرض الجامعة ، ومنها صعوبة إيجاد معلمين من ذوي الخبرة الكافية في اللغة العربية ، وصعوبة إيجاد الكتب المدرسية وتختلف العربية ذاتها عن اللغات بركب العلوم والفلسفة (١) .

في حين قد مهد لقوله هذا بالحجارة التالية " يتجلى حرصها في الحفاظ على التراث القومي في جعلها اللغة العربية لغة تدريس " .

وأنا لنخلص من هذا التناقض في قول حتي ، إلى تأكيد ما ذهبنا من نوايا خبيثة كان يعمد التشهير من أجلها ، ولنسمح الآن لفتاوي وهو يقول في هذا الصدد :
" أما في مدارس الرسائل الأجنبية ، فقد جعلت العربية لغة التعليم أولاً ، ثم عدلت عن هذا المنهج ، وكانت قد اجتذبت الطلاب وعواطف الأمهات ، جامعة التعليم قسمة بين اللغة العربية ولغة الدولة الأجنبية ، لكن هذا العدول لم تكن فيه جميع المدارس سواء ، كالمدرسة الانجيلية مثلاً ، التي ظلت على نهجها التعليمي ...
والأمر أن هذا التحول عن التعليم باللغة العربية ، في هذه المدارس الأجنبية يعود إلى خشيتها أن تنفذ لغة البلاد فتخلق في النفوس المناعة على أهدافها الحقيقية ، وهي لم تنشأ لهذا .

(١) لبنان في التاريخ ، حتي ، ص ٥٥٢ .

الما است لتفتيت وحدة الامة وجعل بعضها حربا على بعض ، ولتستعيد عقول النش لمثلها ولغاتها وثقافتها حتى يسلخوا من لغتهم وامتهم الواحدة . وسائر مقوماتهم ، لهذا سرعان انتكست جميعا بعد فترة قصيرة وصارت تتراجع بعد ان اعترف بها وقويت بالامتيازات الاجنبية وكثرة الاقبال عليها فجعلت لغة التعليم لغة الدولة الاجنبية التي تنتمي اليها ، وبقيت تدرس العربية لغة ثانوية في بعض الحصص تدرسا مهما يكن ضعيفا لم يدل الى العدم كما في المدارس الحكومية " التركية " (١) .

ولقد ادرك المبشرون ، ومن ورائهم الاستعمار ، ان وراء وحدة هذه الامة ، لغة ينبض فيها قلب الشعب ، وتخزن ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين . وفيها يتحرك كل روحه .

وان هذه البلاد ، لن تؤول الى ممتلكاتهم السياسية الا عندما تصبح لغتهم هي القومية ، فالعمل الجبار اذن ، الذي يترتب عليهم انمازه هو السعي وراء نشر لغاتهم بين الامة مالي - بالتدريج - الى ان تقوم مقام اللغة العربية .

وهذا ما يفسر تركيزهم في تعليم اللغة العربية . فالمدرسة الانجيلية (الكلية الاميركية) بيروت مثلا ، خرجت عن خالصها فجعلت التعليم بالانكليزية . وكانت تدمت على ان يدرى عريدها خير للشعب ، وهي انما ارسلت لتخرجه من مقوماته وتمسح منه اشباه امريكيين ، شأنها في ذلك شأن بقية الارساليات والمدارس الاجنبية " . (٢)

(١) حاضر اللغة العربية في الشام ، الافغاني ص ٢٢

(٢) حاضر اللغة العربية في الشام بالافغاني ص ١٧

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد ، بل تجاوزوه الى رمي اللغة بنعمة الاستزادة بالعامية ، التي شجع عليها غير ما سماء دراسة خصائص اللهجات تارة و " اللهجات المقارنة " تارة و " دلب البحث العلمي " وغير ذلك من الأساليب الخداعة .

ثم روجوا لبضاعتهم ، بنعمة ثانية ترى اللغة بالقصور العمي عن أن تلحق بركب الحضارة ، وصعوبة ايجاد المصطلحات العلمية والتقنية الجديدة في مفرداتها . وهذا ما أسماه البعض " تخلف العربية " . من اللحاق بركب العلوم والفلسفة . (١)

إن في جعل اللغة الأجنبية ، لغة أولى أو شريكة للعربية ، مؤامرة بحسب ^{ونفس} الناشئة . وتفتيتها لقدراتها .

ومن ثم ، فهي عملية تشكيل نفسي وذمني خادع ، ولقد اثبتت جميع الأبحاث النفسية والاجتماعية والتربوية أنه لا يجوز تدريس مطلق علم من العلوم بسغير اللسان القومي . هذا كي لا تضاف عقبة فهم غير القومية على عقبة فهم المادة الفكرية . " فالإنسان عاجز قومياً من أن ينتهي الى أكثر من مجتمع واحد . كما هو عاجز عن أن ينتهي الى أكثر من أم واحدة . العلم التربوية واللغوية والنفسية والاجتماعية ، تزيد على ذلك قائمة : ولا على الانتماء الى أكثر من لسان واحد (٢) .

(١) لبنان في التاريخ حتي ص ٥٥٢ .

(٢) في فلسفة اللغة كمال يوسف الحاج ص ١٣٢ .

" والولد الذي يزاول أكثر من لغته القومية وهو دون العاشرة تضعف طاقته الاستيعابية بين لغتين ، واحدة يتكلمها تلقائية وواحدة يتكلمها بجهد في اللسان والفكر ، مما يضيغ عليه وقتا كبيرا ويجعله يتذبذب بينهما بدلا من أن يستقر بصورة نهائية ، وإن تسييا في صحن لغته القومية . وهكذا يتوزع الولد بين أمتين ، بين تاريخين . . .

ولعل هذا ما يبرر اهتمام الرسائل في التعليم الاولي ودور الحضاسة اهتماما بلغ حد العناية القصوى . لقد كان جيل الناشئة أمل المبشرين في كل قرية لبنانية .

ويكفي لنا كمال يوسف الحاج ، قصة تعليم هذا الطفل ، فيقول :
" ان كلمات النير تسقط على " اذنه " وترسخ في ذهنه ، بدون أن يعتمد الانتباه الى استعمال أوجه الالفاظ . . . تتسرب الى فؤاده بلا استئذان تحدث تلقائيا بطريق المحاكاة . هذا التسرب الى الذهن بصورة عفوية ، لا يحصل تماما لـ انتمى الانسان الى أكثر من مجرى واحد مجتمع واحد . . . لان الطفل لا يستطيع أن يجهد فكره ليتعلم اللسان بطريقة واعية . . . على اللغة اذن أن تندس بشكل عفوى في لسان الرطب و اللسان واحدة " (١) .

ثم يقول :

" قد تتوالى ^{تتوالت} عضويتان على مدى الزمن ، الواحدة تلوا الاخرى . أما سكتهمما تحت سقف واحد ، في زمن واحد ، فهذا اشد من رابع المستحيلات .
" قد يستبدل ^{تستبدل} عضو ^{عضو} بعفوية . اذ ذاك يستبدل مجتمعا بمجتمع . . (٢)

(١) في فلسفة اللغة ، كمال الحاج ، ص ١٢٨ .

(٢) في فلسفة اللغة ، كمال الحاج ، ص ١٢٨ .

كل هذا السعي بغية تكريس ازدواجية جديدة تفصم فكر الأمة ، وتقصم

تأثيرها • وتجعل من المواطن فكرا موزعا بين تاريخين ، وثقافتين ، —

يكون متدا باأحدهما ، كما لو كان في ثقافته التومية •

ب — الثقافة :

ان عمر الثقافة ، منوط ، بعمر اللغة • واندثار لغة من اللغات ، أو " تأجيبها "

يخني أن ثقافة أصحابها ليست مما تقدر له الحياة •

وهناك ، صفة واحدة يصح اعطاءها للثقافة ، وهي الصفة التومية • وهذه

تحدد لها لغة التوم أو الأمة ، لأنها أداة التعبير الأساسية ، ومستودع الأفكار والأحاسيس

والأخيلة ، التي كانت تعبر في نفوس الأجداد وعقولهم •

وعلى هذا فاللغة والثقافة بحكم ارتباطهما الوثيق يمثلان جانبا واحدا من حياة

شعب أو أمة • من هذا المنطلق ، حدد المرسلون اتجاههم الثقافي " فشكلوا ثقافة تخدم

مصالحهم غير تلك البرامج التعليمية ، التي صممت ببراعة وذكاء من قبل المستشرقين

والغبراء الشريريين •

وقد قسمت هذه الاتجاهات ، حسب مواد التسليم • فأبحاث التاريخ تقوم على

مسح مسطح للتراث السياسي والاجتماعي والثقافي ، مرتكز على فواصل زمنية وأهمية

كحروب الردة مثلا ، وفتنة عثمان ، وصراع معاوية مع الامام علي " رضي الله عنه "

والحزبيات في العصر الأموي ، والانشاقات المذهبية ، وغير ذلك من جروح أصابت

الأمة الإسلامية والعربية ، منكبين على تفصيلها وأسبابها ^{ونشأتها} / مفرغين عن مذاهب الانتصارات

العدائية في الفتوحات التي وان ذكرها فلا تزيد عن غزوات استهدفت المال والنساء ،

في حين تقوم أبحاث التاريخ الأميني على رسم الجوانب الإيجابية التي تخلق للجيميل

المسلم عالما جميلا في الماضي والحاضر • لتزيد في شعير البؤس عند المواطنين
من مقابلة الصورة التي يعيشها في وطنه والتي يعيشها المواطن في ارضه •

هذا معدا عن اهتماماتهم بالتاريخ الاعلى القديم ، وينشر خرافة الحضرات
الارلى كالفيديقية في الشام والاشورية في العراق والفرعونية في مصر وهكذا • اما في
الادب العربي ، فتدوب معايير الجمال امام نتاج الشعراء والادباء والكتاب بمواطن
من هذا التراث مجموعة وثقات ظلمية ، او انذابا ماحيا خلفها الى الخمرة والمرأة • او
غولها جنسيا شاذا للظلمان • او وصفها ماديا نكيا للطبيعة / لا يحدوا الاهتمام الحسي
في حين تتجلى المعايير الجمالية في ابيس خلفها امام نتاج الادب الاوروبي شعرا
ونثرا •

ان تثقيف الناشئة في هذه المدارس لا يندرج عن الا الانزواء المعنوي •
والا الاتكالية النفسية والميل الفكري الى المجتمع الآخر •

واخيرا لا بد من توضيح مسألة في غاية الخطورة وهي مسألة ربط الابعاث
القومي يوما رافق ذلك من احياء للتراث بالجهود التبشيرية في لبنان وسورية • ذلك
الربط الذي يحول بعض المؤرخين اللبنانيين ، فيرجعون في كل حديث لهم الى ان شر
الثقافة وبث الوعي القومي بين افراد الامة ما كان ليحدث لولا جهود المبشرين •

ان هذا الادعاء مبالغ فيه الى درجة الدس والتشويه التاريخي • • وخير دليل
على دحض ما يذهبون اليه حوادث لبنان عام ١٨٦٠ ، تلك الفتنة التي غذاهم هؤلاء ،
مستفيدين من جهل بعض الفئات وتعصبها ، لذر قرن الخلاف بونعزيق شمل الامة ،
ثم " ما عقب ذلك من نتيجة سيئة في محاولة شد لبنان والاتجاه به خارج الحليرة
العربية " (١) .

(١) بنة الحارب ، جورج انطونينوس مرزا ١٢٦ وما بعدها •

ومما لا ريب فيه ، أن هذه الرسائل ، قد ساعدت على انشاء الكثير من المدارس وتطوير أنظمة التعليم ، ونشر الكتاب كما أدت بطريق غير مباشر الى نشر حيز من الثقافة بين أفراد الامة ، وتكوين جيل طليعي مثقف فكر في البعث القومي بعقلية مستنيرة على أننا نرى ان هذه البعثات التبشيرية لم تقصد بعث الروح القومية ، بل اتر ذلك بشكل غير مباشر عن طريق الاسهام في تجديد المجتمع واشاعة الحلم بين فئات اللبنانيين " المسيحيين خاصة " .

البسملة الثالثة

الفصل الاول

اتجاهات البحث اللغوي في لبنان في القرن التاسع عشر

اتسم الدرس اللغوي ، في القرن الماضي ، عند اللبنانيين ، بسمّة الجمع والربط والتنسيق والابتداع والاتباع لطرائق البحث وعرض المسائل في حدود التفكير اللغوي العام . فقد نظر هؤلاء ، في جوانب متعددة ، في اللغة ، جديدة بالدرس والنظر ، وبالرغم من تشعب هذه الجوانب وتنوعها ، فانه يمكن تصنيفها الى طائفتين رئيسيتين :

- طائفة تتصل بجوهر اللغة وحقيقتها ، وما يتمثل فيها من جوانب ترتبط بعناصرها الاساسية المكوّنة لها من دراسة للصوتيات والصيغ والتراكيب والمفردات ومدلولها وغير ذلك .
- وطائفة تتمثل في مجموعة القضايا والمسائل التي تتصل باللغة من قريب او بعيد ، كمسألة وظيفتها في المجتمع واللهجة واسباب تنوع اللهجات في اللغة ، والمستويات اللغوية (الفصحى والعامية) والصواب والخطأ في اللغة وغير ذلك .

اولا : الطائفة الاولى :

قلنا ان الطائفة الاولى تنطوي على تلك الجوانب الرئيسية التي تتصل بجوهر اللغة وحقيقتها ، والتي ترتبط بعناصرها الاولى المكوّنة لها . وهذه هي عبارة عن اصواتها وصيغها وتراكيبها ، ثم مفرداتها ، ومعاني هذه المفردات ، وكل ما يتعلق بها من قضايا .

والجدير بالذكر ان لغوي لبنان في القرن التاسع عشر ، لم يخصصوا لكل جانب من هذه الجوانب فرعاً من فروع علم اللغة ، او مستوى معيناً من البحث ، يلزمون جهودهم لخدمة هذا الجانب او لدراسة مشكلاته ومناقشة حقائقه ، بل كانت هذه الجوانب تندرج - معاً - في مقدمة كتاب مثلاً ، او بتطبيق عملي من خلال قاموس كما فعل الشدياق في كتابيه ، الجاموس على القاموس وسر الليالي في القلب والابدال . او انها تشكل مادة كتاب معينة ، كما فعل

جرجي زيدان في " فلسفة اللغة " . وانها ترد بشكل مقالات متفرقة لا رابط بينها ، كما هو الحال عند ابراهيم اليازجي ، في مجلة الجنان والطيب . او بشكل تنبيهات كما هو الشأن في تلك الردود اللغوية عند الاسير والشرتوني والبستاني وغيرهم .

وسنتناول من هذه المباحث الفكرة الصوتية ، والفكرة الصرفية ، وعلم النحو بحدوده الضيقة اى في نطاق مداره التقليدى من بحث في الاعراب ومشكلاته ، ومحاولات في ايجاز الالفية والمتون والشرح المختلفة او التعليق عليها .

- اما الفكرة الصوتية فنعني بها هنا ، الجانب الثاني من دراسة الاصوات ، اى جانب علم وظائف الاصوات اللغوية " الفونولوجي " حيث قامت دراسة الشدياق ، ومن بعده زيدان ، فنظر الى هذه الاصوات نفسها ، من زاوية وظائفها اللغوية في الكلام ، كعناصر مميزة له . وهذا ما كان اساس نظرية الجذر " الثاني " عند الشدياق ، وزيدان ، وما قام عليه مضمون معجم " سر الليال " عند الشدياق .

اما الفكرة الصوفية فنعني بها الفكرة المعجمية التي تراوحت بين النظرية والتطبيق والوضع والنقد عند الشدياق والبستاني والشرتوني . وما كان من مجال البحث في المفردات او الثروة اللفظية لمادة المعاجم القديمة . والتصرف بها من خلال التعديل والاضافة والحذف والتصحيح . ثم ماكان من محاولة وضع هذه المادة وضعاً جديداً يتلاءم ومتطلبات العصر في تناول المادة . وهذا ما تمثل في تنبيهات وانتقادات الشدياق في " الجاسوس " على نقده للفيروز ابادى ، ووضعه لنظرية المضاعف الثنائي . وتنبيهات الشرطوني في " ذيل " " افسر بـ الموارد " او تنظيمات البستاني في تنسيق المادة ومترعاتها .

ثم مرافق دعوة الشدياق واليازجي والبستاني والشرتوني الى وضع اللفظ ، والمصطلحات العلمية والفنية التي استلزمها الحياة الجديدة . داعين من خلال ذلك الى الاشتقاق والنحت في يتم جمع هذه الثروة اللفظية التي تنقصنا .

- الفكرة الصوتية -

مهدت الفكرة الصوتية - عند بعض لغويي القرن الماضي - طريق البحث العام ، في اكثر شؤون اللغة . فقد كان لهذه الفكرة الاثر الواضح في عظمهم الذي تجسد في معجمات وكتسب لغوية ومقالات .

واولى هذه الافكار الصوتية :

أ - محاكاة اصوات الطبيعة :

كان لفكرة محاكاة اصوات الطبيعة ، او الاصوات المسموعة والعمل على تقليدها ، اكبر الاثر في تفكير واعتقاد ابرز هؤلاء العلماء ، كالشدياق وجرجي زيدان ، وابراهيم اليازجي . وكانت مدار ابحاث كثيرة عندهم ارتبطت باساس نشأة معظم الكلمات في العربية ومختلف اللغات الاخرى . ذاعبين في هذا مذهباً قديماً طرقة ابن جني في الخصائص وابن سينا في اسباب حدوث الحروف ، تلك النظرية التي تذهب الى ان الانسان بدأ بمحاكاة الاصوات ، وقصد من هذه المحاكاة التعبير عن الشيء الذي يصدر عنه الصوت المحاكى او عما يلزمه او يصاحبه من حالات وشؤون . مستخدماً في هذه المحاكاة قدرته على لفظ اصوات مركبة ذات مقاطع . مما جعل لفته في مبدأ امرها محدودة الالفاظ ، قليلة التنوع قريبة الشبه بالاصوات الطبيعية التي اخذت عنها ، قاصرة عن الدلالة على المقصود ، ولذلك كان لابد لها من مساعد يمين على ادراك ماتربي اليه . وقد وجد الانسان خير مساعد لها في الاشارات اليدوية والحركات الجسمية التي سدت فراغاً في اللغة الصوتية . واتسع نطاق اللغة من ثم ، تبعاً لارتقاء التفكير ومظاهر الحضارة واخذ الانسان يستغني شيئاً فشيئاً عن مساعدة الاشارات . وتبعد اللغة عن اصولها الاولى تحت تأثير عوامل كثيرة مثل التطورات الطبيعية التي تعتور الصوت واعضاء النطق الانساني ، والعلاقات المجاورة والمشابهة التي تعتور الدلالات وما الى ذلك * (١) .

(١) الفلسفة اللغوية ، جرجي زيدان ، من حاشية الكتاب للدكتور مراد كامل ص ٥٨ .

وقد كان لهذه النظرية الصوتية اهتمام من ثلاثة لغويين سنتناول رأى كل واحد منهم على حدة ، لفروقات في التفاصيل رغم وحدة المبدأ . وهم احمد فارس الشدياق في كتابه : " الجاسوس على القاموس وسر الليال في القلب والابدال " . وجرجي زيدان في كتابه " الفلسفة اللغوية " . وابراهيم اليازجي في مقالات متفرقة في مجلة " الجنان والطيب " .

١ - احمد فارس الشدياق :

مضى الشدياق ، ايماناً منه بهذه الفكرة الصوتية ، في عمل معجم اسماء " سر الليال في القلب والابدال " وقد قام هذا المعجم على نظرية الجذر (المضاعف الثنائي) كأساس عمل لغوي عام .

ويجب ان نربط ، هنا ، بين اعتقاده في المحاكاة ونظرية المضاعف الثنائي هذه ، كأساس في نشأة الكلم . وهو ما ارتضاه لنفسه من ترتيب المواد في المعجم الذي اراد .

ويقول الشدياق في مقدمة معجمه ، سر الليال ، مبيناً ذلك : " اني رأيت ان معظم اللغة مأخوذ من حكاية صوت او حكاية صفة ، وان حكاية الصوت انما تأتي من المضاعف انحدوب ودق . . . " (١) .

والشدياق ، حين يشرح معاني الالفاظ يحاول ان يردّها ، او يرد المعاني التي تدور حولها المشتقات الى هذا الصوت او ذاك .

ففي حديثه عن مادة " عب " يقول : " العب شرب الماء او الجرع او تتابعه ، والكرع ، وهو حكاية صوت . . والمعب ، المياه المتدفقة والعباب بالضم معظم السيل وارتفاعه وكثرته او موجه . وجاء من بع . البع : الصب في كثرة وسعة ، والبعاع ثقل السحاب من المطر والحوو الاباب والحباب . وكل ذلك يؤيد ماقلته من انه حكاية صوت " (٢) .

(١) سر الليال ، الشدياق ، ص ٢٢ وما بعدها .

(٢) سر الليال ، الشدياق ص ٥٧ .

وكذلك يفعل في كثير من المواد . من مثل : طب وتعدب وهب . . . مبينا انه -
مأخوذة من حكاية الصوت او حكاية صفة .

ويقول الكاتب في موضع اخر من الكتاب ذاته * على اني اقول وبالله استعين في تحقيق
المقول : ان الفعل في الاصل كالاسم في كونه يوقف عليه بالسكون قبل اتصاله بفعله . فاذا اتصل
بفعله فتح . وتقرير ذلك ان الواضح لما وضع قد ودق ودق لم يقصد بها في اول الامر ان تكون
فعلا ولا اسما ، بل مجرد حكاية لصوت توهمه بقطع النظر عن شي * اخر . فلما وصل دق بفعله
قال " دق الرجل ولما اراد تخصيصه بان يكون اسما قال دق الرجل . ولهذا كثيرا ما ترى صيغة
الاسم والفعل في هذا الباب واحدة .

ويتابع الشدياق قوله : " ولا يكاد يأتي ثلاثي حكاية صوت الا وكان مقلوبه وما يجانسه
كذلك . " وذلك نحو دق وقد وقص وقص وقط .

" وربما جاءت مواد متعددة مبدوءة بحرف واحد حكاية اصوات . وذلك نحو الصي *
والصاصة والصب والصقب والصت اى الصر . . . وغير ذلك مما يطول تعداده ويميل مراده " (١) .

٢- جرجي زيدان :

ويذهب زيدان نفس المذهب الذى سلكه الشدياق . فيرى ان نشوء اللغة وارتقاها -
راجع الى " موهبة جعلها الخالق في الانسان ، وهي موهبة التقليد " (٢) . فالتقليد - عنده -
اساس اللغة ، واصل نشأتها ، ومدار ارتقاها . " لان التفاهم سوا " كان بالاشارات او بالاصوات
فهو راجع الى التقليد " .

(١) سر الليال - الشدياق ص ٢٢ - ٢٤ .

(٢) الفلسفة اللغوية ، جرجي زيدان ، ص ١٣٣ .

ويتابع زيد ان حديثه فيربط بين حكاية الصوت ونظرية الجذور اللغوية فيقول :
 " اننا نستدل من انكان تجريد قسم عظيم من الاصول الثلاثة الى اصول ثنائية تحاكي اصواتا
 طبيعية ، ومن كون الفاظ اللغة من شأنها التغير والتنوع لفظا ومعنى ، على ان اللفاظ
 المانعة الدالة على معنى في نفسها يرد معظمها الى اصول ثنائية أحادية المقطع تحاكي
 اصواتا طبيعية " . (١)

ويعضني في تبين ذلك في كتابه فيقول في موضع آخر منه : " ان الاصوات الطبيعية
 على اختلاف مصادرها ليست من المقاطع الواضحة في شي " ، ولكنها تؤثر في اذهاننا تأثيرا اذا
 اردنا التعبير عنه نطقنا بمقطع او لفظ يشبهه ، وهذا ما نريد به حكاية الصوت " (٢) .

الى ان يقول :

" فمن حكاية الاصوات الطبيعية الحية وغير الحية على اختلاف مصادرها ومظاهرها
 اقتبس الانسان لغته ، فاتخذها أولا بالتقليد للتعبير عما يحدتها او ما يتعلق به ، وهذا ما
 يسميه باللغة الطبيعية ، ثم تنوعت وتفرغت بالنحت والابدال والقلب تبعاً لاحتياجات الانسان
 حتى صارت الى ما هي عليه بتوالي الاجيال " . (٣) .

ويشرح زيد ان طريقة المحاكاة هذه غيرى انها تبدأ في " ان يقلد الانسان تلك
 الاصوات او ما يحاكيها للدلالة على الاشياء التي تحدثها كما لو اراد الدلالة على الكلب
 بتقليد صوت عوائه ، او الاشارة الى الريح بتقليد صوت هبوبها ، او اراد قولنا (قطع)
 تقلد صوت القطع ، وهو " قط " او ماشاكي ذلك (٤) .

وكأن زيد ان ، يدرك صعوبة قياس هذا على كل مفردات اللغة ، فيتوسل طريق
 المجادلة معتمدا على مرحلة التطور التي فرعت ونوعت معاني الكلم جريا على ناموس الارتقاء
 المصمم .

(١) الفلسفة اللغوية ، زيدان ص ١١٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٠ .

(٣) = = ص ١٤٠ .

(٤) = = ص ١٤٠ وما بعدها .

ولنتركه في سبيله يدافع قائلا : " وقد يعثر التسليم بنشوء اللغة عن الاصوات الطبيعية وحدها لانها لاتكاد تذكر بالنسبة الى الفاظ اللغة واشتقاقاتها وانواع تعبيرها مما يعهد بمئات الالف ، على حين ان الاصوات الطبيعية لاتكاد تزيد على المئة ، والجواب ان ذلك طبيعي جار في الطبيعة يتناول سائر الاجسام الحية وما يتعلق بها ، فكلها تنمو وترتقي وتتفرع وتتكاثر جريا على ناموس الارتقا^١ العام . فقد رأيت فيما تقدم من تاريخ الانسان انه تدرج الى سائر حاجياته ، فارتقى من ابسط الاله^٢ وابتدأ الى ما يتركب منها حتى صارت تعد بالمئات ، فكانت القطعة من الجلد مثلا تقوم عنده مقام كثير من الثياب والاثاث ، فكان يتزويها نهارا ويحلفها ليلا . . .

وقد يستعين بها على اعمال اخرى كثيرة لاتحصى ، فهي تقوم عنده مقام اللباس والفراش . . . غير ذلك . وهكذا يقال في الفاظ اللغة ، فقد كانت اللفظة الواحدة ، او المقطع الواحد يقوم مقام مئات من الالفاظ ، من امثلة ذلك ان الانسان رأى الماعز مثلا وسمع صوته ، فدل عليه بحكاية صوته ، وهي " مع " وهكذا يفعل الاطفال اليوم ، فانهم يدلون على الماعز بقولهم " مع " ولكنهم يدلون بها ايضا على لحمه وعلى ^{سفره} وعلى اشياء اخرى يختلف تعيينها باختلاف الاحوال والانسان في اول فطرته سمع صوت القطع مثلا ^{تفعلوه} بقطع " قط " وجعل يدل به عما هو في لغتنا قطع او كسر ، ولكنه كان يدل به ايضا على كل ما يتعلق بالقطع ، مثل فعل القطع ، والمادة المقطوعة واليد التي قطعت والاحوال التي قطعت فيها وما شاكل ذلك .

ثم ان كل مقطع من المقاطع الطبيعية يتحول بالزمن والابدال والقلوب ، وبالنمو ، والتفرع والتشعب الى الفاظ كثيرة مشتركة في المعنى الاصلي ، فيخصص الانسان كل تفرع لفظي بتفرع معنوي على اساليب وطرق لاضابط لها " (١) .

ويمعن زيدان في التدليل على مذهبه ، بعودة تاريخية للالفاظ ودراسة احوال اللغات على اختلاف درجاتها منتهاها الى ان لاغرابية في مذهب اليه .

ويورد امثلة تقريبية نوجز منها هذا المثال : " لفظوى ، وهي لفظ ينطق بهـــــــــــــــــا

(١) الفلسفة اللغوية ، زيدان ص ١٤٠ - ١٤١ .

الانسان للتأوه من فطرته ، وقد تركب منها ومن لام الجر لفظ ، ويل ، يدلون بها على التفجيع او حلول الشر ، وقد حرقوها وزادوا فيها ، فقالوا ويل وتويل وتوايل وانت حملوها اسما لواء في جهنم السح . . .

"وقد شق الانسان من حكاية صوت التوجع "آه" فعلا فقال : (آه يأوه أوها) اي شكا وتوجع وهكذا (تأوه تأوها) . وقد دعوا داء الحصبة (آهة) والجدرى (مأهة) وكل ذلك لتناسب في المعنى واللفظ ، وهذه التسمية تذكرنا بلغة الاشارات حيث يعبرون عن المعنى بتقليد صفة من صفاته ، او تشخيص حادثة ملازمة له ، فانهم بتسميتهم الحصبة (آهة) كأنهم يشخصون ما يرافق ذلك الداء من تأوه المريض . . (١)

٣- ابراهيم اليازجي :

ويتابع ذلك ابراهيم اليازجي في احدى مقالاته ، ولكن يحذر وتحفظ شديدان ، رغم اعتقاده بأصالة الفكرة . فيران الجدير هنا في البحث ان اليازجي لا يذهب مذهب تعميم الشدياق او مغالبة زيدان . بل يكفي بعرض الفكرة عرضا يفهم منه انه ناقل ، وراصد للفكرة ليس الا .

فهو يقول : " ثم انا اذا تفقدنا الالسة القديمة وجدنا كثيرا منها منقولا عن الاصوات الطبيعية ، تحددها الانسان بمطلقه ، وحكى بها الصوت المسموع ، فاهتدى السامع السسى مراده بمعرفة ذلك الصوت في عهده . . "

ويتتبع خطى الشدياق ، ناقلنا نفس الا لفاظ فيقول : " وذلك ان لفظ دق مثلا ، اذا اعتبر فيه جانب الحكاية ، ولا شك انها كانت معتبرة زمان الوضع ، كان حقيقيا ان يدل بنفسه على المعنى المقصود منه ، لانه حكاية الصوت الطبيعي الناشئ من صك جسم جامد بمثله . وقس عليه كثيرا من امثاله ، وان تفاوت امرها في الوضع والخفصا " (٢)

(١) الفلسفة اللغوية ، زيدان ص ١٤٧ .

(٢) عن الروائع ، جز ٤١ ، فؤاد افرام البستاني ، ص ٢١ .

وهكذا يرجع اليازجي " اصل المواد في اقدم اللغات الى ذينك الحرفين ، المشكلين صوتا بسيطا (١) نتج عن الاصوات الطبيعية . و " آثار هذا في لغتنا اكثر من ان تحصي ، وذلك كقوله ، خسر العا ، ونشت القدر ، وطن الذباب ، وهلم جرا ، (٢) مما لاشك في كونه مأخوذا من الاصوات الطبيعية لظهور حدايتها فيه .

لكن ابراهيم اليازجي ، سرعان ما ينسب هذا القول الى غيره فيقول : " وهذا هو القول الشائع عند جمهور علماء اللسنة ، واليه مال ابن جني وغيره من المحققين (٣) . "

ب - الاصوات التي تدخل في تركيب الكلمات :

تابع اللغويون في القرن الماضي ما بدأ به ائمة اللغة قديما من درس لمسألة الاصوات التي تدخل في بنية تركيب كل لغة ، هذه الاصوات التي يرمز لها بالحروف .

وقد بحث الشدياق في هذا ، موضحا معنى اختلاف عدد الاصوات في كل لغة عنه في الاخرى ، واختلاف دوران الصوت الواحد في اللغة الواحدة واثلاث الاصوات او عدم اثلاثها في اللغة الواحدة . وتعرض لهذه المسائل جميعا مبديا موافقته احيانا لما ذهب اليه اللغويون الاولون ، او معلننا مخالفته لهم احيانا في اكثر من موقف .

وهو يذكر لنا ان اللغويين يختلفون في عدد حروف الهجاء ، وفي ترتيبها ، فعند بعضهم ومن جعلتهم الخليل بن احمد والمفارية انها تسعة وعشرون حرفا ، وعند بعضهم ثمانية وعشرون . وكان حجة من يعدها تسعة وعشرون ان الالف احدى حروف العلة فهي اذا حرف . . . (٤) . وحجة من يعدها ثمانية وعشرين انها اي (الالف) لا يفردها باب في اللغة ، لانها لا تكون الا زائدة او مقلوبة فلا تفر عليها افعال كسائر الحروف .

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٢ (بتصرف)

(٢) = = = ص ٢٢ (بتصرف)

(٣) = = = ص ٢٢ (بتصرف)

(٤) الجاسوس - الشدياق ص ٤٠ .

"وبقي علينا ان نعلم . . . وان نعلم ايضا من رتب الحروف هكذا . ولاى سبب فصل بين المتجانس منها مثل التاء والذال والطاء والهمزة والعين . والثاء والذال والظاء - والحاء والهاء ، فانا نرى بعضها ينقلب عن بعض في الفاظ كثيرة لاتعد ولا تحصى "

وفي الصحاح والقاموس والمعاجم واساس البلاغة والنهاية والعلقات رتب الراء قبل الهاء وفي المصباح ولسان العرب وشفا الغليل رتب الهاء قبل الواو (١) .

ويتابع ذلك فيقول ايضا : " واغرب من ذلك مخالفة المفارقة لنا في ترتيب حروف الهجاء جملة فانها عندهم هكذا (٢) " اما ترتيب الحروف على ابيجد فالظاهر انه جرى على ترتيب اللغة السريانية الى حرف التاء وهي فيها تاو . ثم زادوا عليها تخذ ضطع . . . (٣) .

كما عرض الشدياق لاختلاف آخر يتعلق باختلاف عدد الاصوات في كل لغة عنها في الاخرى . والاصوات التي تتألف منها الكلمات في العربية ، غير تلك التي تتركب منها فـسي السريانية ، غير تلك التي تتركب منها في الانكليزية . . . وهكذا .

ويرى الشدياق ان اللغويين العرب قد وقعوا في بعض الاخطاء عند محاولتهم حصر هذه الاصوات وبيان ما يوجد منها في لغة العرب ولا يوجد في غيرها من اللغات . وانهم قد جازفوا حين قالوا ما قلوا . ولنسمعه في حديثه : " وانما نقل الشارح عن المحشي ان الشيخ ابا حيان رحمه الله قال : ان العرب انفردت بكثرة استعمال الضاد وهي قليلة في لغة بعض العجم ومفقودة في لغة الكثير منهم وذلك مثل العين المهملة . وذكر ان الحاء المهملة لاتوجد في غير كلام العرب (٤) . ونقل ما نقله في الضاد عن شيخه ابن ابي الاحوص . ثم قال : والظاء يعني المشالة مما انفردت به العرب دون العجم . والذال المعجمة ليست في اللغة الفارسية . والثاء المثلثة ليست في الرومية ولا الفارسية قاله ابن قريظ . والضاد ليست في لسان الترك . قال : فهذه فوائدها يحتاج اليها وقد اوردها بالمناسبة لخلو كثير من المصنفات منها مع انه ربما يتوقف عليها كثير من الاحكام اللسانية . اهـ .

(١) الجاسوس ص ٤٠ .

(٢) الجاسوس على القاموس ، الشدياق ، ص ٤٠ - ٤٢ .

(٣) اب ت ش ج ح د ذ ر و ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش ه ولاى .

(٤) انظر جمهرة ابن دريد ص ٤ .

قلت هذا الذي ذكره لا يحتاج اليه اصلا لانه غير صحيح . فان الحاء توجد في
السريانية والعبرانية وغيرهما . ووجود الثاء في اللغة الرومية اكثر منه في اللغة العربية .
والفاء توجد في اللغة التركية فما معنى هذه المجازفة " (١) .

ومسألة الاختلاف في عدد الاصوات في اللغات المختلفة انما تظهر آثارها في ترتيب
المصطلحات واسماء الاعلام ، ان في مثل هذه الحالة يحتاج المترجم الى ادخال صوت جديد
في اللغة والى التعبير عنه برمز جديد .

كما عرض الشدياق لمسألة الاصوات التي تأتلف والتي لا تأتلف ، ثم الاصوات المتولدة
حين يكون اثلافا منتجا او عقيما . وهي مسألة عرض لها الاقدمون ايضا في الكثير من الكتب .
وبخاصة تلك التي كتبت في العهد الاول من عهود اللغة كالعين للخليل وجمهرة ابن دريد .
وكل كتاب لغوي جمع وحرص فيه صاحبه على بيان الكلمات المستعطة والكلمات المهمة . وهذا
هو قول ابن دريد في الجمهرة : " (فأول) ما يحتاج اليه الناظر في هذا الكتاب ليحيط علمه
بمبلغ عدد ابنتهم المستعطة والمهمة ان يعرف الحروف المعجمة التي هي قطب الكلام .
ومترجمها : بخارجها ومدارجها وتباعدها وتقاربها وما يأتلف منها وما لا يأتلف وعلامة امتناع ما امتنع
من الائتلاف وامكان ما امكن . وانا مفسر لك ان شاء الله تعالى الفاظ الحروف المعجمة بخارجها
ومدارجها وتقاربها وتباعدها وما يأتلف وما لا يأتلف بعلمها (٢)

والشدياق حين يدلنا على الصيغ المهمة لا يذكر لنا الاسباب الدائمة الى هذا
الاهمال في وضوح وبيان . كما كان الاقدمون من اللغويين يفعلون . وانما كان يكتفي بان يقول
لنا ان العرب لاتجمع بين هذا الصوت وذاك او هذا الحرف وذاك في كلمة واحدة . . .

(١) الجاسوس على القاموس ، الشدياق ص ٢٨٩ .

(٢) جمهرة اللغة ابن دريد ، ج ١ ص ٤ . (طبعة بالافست) دار صادر . بيروت

وهذه بعض الامثلة التي اورد الكثير منها في كتابه "سر اللبالي" لم يأت في التركيب
 قلب ولا مقلوب له " (١) " لم يجي " تركيب ذت ولا شي " بعده (٢) " " واعلم انه لم يجي "
 في تركيب الكلام تص (٣) " " لم يأت في الكلام ذت ولا شي " متفرع عليه ولا مقلوبه (٤) " "
 " ثم الاجاص بالكسر مشددة ثم ام دخیل لان الجيم والصاء لا يجتمعان في كلمة واحدة من
 كلام العرب (٥) " ، " واعلم انه لم يجي " عجب لمكان الميم والقاف (٦) " " واعلم انه لم يجي " في
 الكلام فجسر " (٧) " .

وهكذا يفصل حين يتحدث عن الصيغ المعقبة " يقول : " فته في الماء فطه ومثله غسه
 وفسته وبالا مر كده ولا يخفى مجانسة الغمين للكاف والتاء للدال " وهو من الانفعال المعقبة (٨)
 " ثم ولي رت زت وهذا التركيب عقيم (٩) " .

اما الاقدمون فقد حاولوا تحليل هذه الظواهر " وهم في تحليلاتهم لها يحاولون
 ارجاع السبب الى عمل الارادة الصوتية الى عمل الحنجرة " .

— اما اليازجي ، فيتناول موضوعا دقيقا يشرح فيه معنى الصوت والاشارة ، واقتديت
 الصوت الذي يمثل آلة التفاهم والبيان ، لانه يتناول بالاذن " فيصلح لافهام المقبل والمعرض
 وسائر الدوالي من الاشارة ونحوها ، وان قامت ببعض هذا البيان ، لا تتناول الا بالنظر " و . . .
 تادية المعاني بالصوت ، امر طبيعي مخلوق في الانسان . . .

الى ان يقول " . . لما كانت جوارح الصوت في الانسان اطوع لتكييف وتحقيق مقاطعه

(١)	سر اللبالي ، الشدياق ، ص ٢٠٩	(٧)	سر اللبالي ، الشدياق ، ص ٤٥١
(٢)	= = = ص ٢٩٣	(٨)	= = = ص ٢٨٨
(٣)	= = = ص ٣١٥	(٩)	= = = ص ٣٠٢
(٤)	= = = ص ٣٧٧		
(٥)	= = = ص ٤١٨		
(٦)	= = = ص ٤٤١		

كان الانسان ناطقا بالطبع ، ويدل على كل معنى بلفظ موضوع له ، وسائر الحيوان لا يخرج عن مثل ما ذكر من الاصوات الطبيعية يدل على انفعاله بطبقة الصوت ، وهيئة اطلاقه ، بين ان يكون ليثا ، او خشنا ، او عاليا ، او سافلا ، الى ماشاكل ، ذلك فهو بالصوت الموسيقي اشبه منه بالصوت المنطقي . ولذلك كان اكثر حاله الدلالة على المعاني الوجدانية من نحو الحزن والالام
وقلما يدل على معنى خطابي ، كدعاء الوالدة من الطير فراخها للزق . . . الى غير ذلك مما يقع به التفاهم ، ومما اتفق عليه علماء الطبائع بتكرار المشاهدات ، وان لم يتبينوا كيفيته ، الا انسه على الجملة محصور في حدود لا يتعداها ، ترجع الى صيانة الحياة وبقا النوع (١) .

ويمضي اليازجي في تبيان اولية هذه الالفاظ الدالة على الوجدان ، في الوضع ، لكون معانيها اقدم في الطبع ، فيقول : " ولذلك كثر فيها الصوت الهامى الذى هو ابسط الاصوات ونعني به حرف اللين على اطلاقه . " وقلما دخل في تركيبها غير احرف الحلق لقرب مخرجها - من الحنجرة التي هي موضع تمثل الصوت ، وذلك من نحو : آه ، وآخ ، ووى واشباهها - مما نعبر عنه باسماء الاصوات ، وهي من اللفظ المشترك في اكثر اللغات على صور متقاربة " (٢)

ج - العلاقة بين الصوت والمعنى :

من كل ما تقدم من درس للصوتيات ، يتبين لنا ان علماء القرن الماضي ، في لبنان ، قد اولوا هذه الوجهة عنايتهم حتى اتملت صورة الفكرة الصوتية بمبحث العلاقة التي اعتقدوا بوجودها بين الصوت والمعنى ، او بين الحرف الذى يرمز الى الصوت والمعنى . فقد رأوا كما رأى القدماء من اللغويين العرب ، قبلهم ، ان بعض الحروف تدل على الصلابة والقوة ، وبعضها يدل على اللين والرخاوة وهكذا

ويعرض الشدياق لهذه المسألة على نظام دقيق فهو يتناول الحروف حرفا حرفا ، ويحاول ان ينبه على المعاني التي يوحي بها ، او يدل عليها الحرف . وهذا ما فعله في كتابه " منتهى المعجب في خصائص لغة العرب " الذى لم يطبع ، وما زال مخطوطة مفقودة .

(١) عن الروائع ، فؤاد افرام البستاني ص ٢٠

(٢) نفس المصدر ص ٢١ .

وبعض سوانح وردت في " المساق على المساق " .

ولنصمعه في مقدمة " الفساريان " (١) هذا يقول : " فمن خصائص حرف
الحاء السمة والانبساط نحو الابتحاج والبراج والابطح والابلنداج . .

" ومن خصائص حرف الدال اللين والنعومة والفضاضة نحو البراخدة والتيد
والثاء والشهد . . والشهد . . الخود . . وربما عادلوا في بعض الحروف . اي
راعوا فيها الاكثار من النقيض فان حرف الدال يشتمل ايضا على الفاظ كثيرة تدل على
الصلابة والقوة والشدة . وذلك نحو التأدى والتأكيد والتأييد والجلمد والحديد
والتشدد . . الخ

" ومن خصائص حرف الميم القطع والاستئصال والكسر نحو أرم وأزم وترم وجزم
وجرم وجزم . . ويلحق به من الامور المعنوية حتم الامر اى قضى وحرم وحتم وحزم فان
معنى القطع ملحوظ فيها . ويكثر في هذا الحرف ايضا معنى الظلام والسواد .

" ومن خصائص حرف الهاء الحق والغفلة والرتث . اي قلة الفطنة نحو
اله وأمه وبلسه . . وقس على ذلك سائر الحروف (٢) .

وما يذكره الشدياق ايضا في هذه المقدمة ، انه قد درس في كتابه " منتهى
المعجب . . . " اشياء اخرى تدخل في خصائص هذه الحروف وعجيب صفتها وغريب
امرها . وما يدخل في بحث كون بعض الصيغ يختص بمعنى من المعاني نحو اجره
واسمهر (٣) .

هذا ويشرح لنا الشدياق ، تلك الصلة الكامنة بين الاصوات والمعاني
حين يتحدث عن حكاية الصفة وكونها عاملا من عوامل نشأة اللغة ، فيقول :

" اما حكاية الصفة فهي نظم حروف يتوهم الناظم منها انها تدل على صفة
شيء باعتبار ما في تلك الحروف من اللين والترخيم والشدة والتفخيم كقولهم مثلا شي .

(١) كلمة منحوتة من (المساق على المساق فيما هو " فارس الشدياق ") تدل
على اسم الكاتب .

(٢) من مقدمة المساق على المساق ، احمد فارس الشدياق ص ٦٥ - ٦٦

(٣) = = = = = ص ٦٦ .

منظم أى مزخرف . . . وشي " ملطس او مدور مضموم مجتمع . . . وقولهم امرأة
رجراجة أى يترجرج عليها لحمها (وربما التبست عنا حكاية الصفة بحكاية
الصوت) وقول العامة مررب للمصين المكتنز " (١)

" وعلى هذا الاساس السابق اساس الصلة بين الحرف والمعنى كان
الاقدمون يقولون بان الكلمات التي تكون فأوها وهينها من اصوات واحدة تكون
معانيها متشابهة او متقاربة .

ويقول الشدياق " ان الزمخشري قد ذكر هذا عند تفسيره لقوله تعالى
واولئك هم المفلحون . من كتاب الكشاف .

" وهذا ما ذكره الزمخشري على الصورة التي اورد بها الشدياق (المفلح)
الفائز بالهزيمة كانه الذى " انفتحت له وجوه الظفر ولم تستفلق عليه . (والمفلح)
بالجيم مثله . ومنه قولهم للمطلقة استفلحى بامرك بالحا " والجيم . والتركيب دال
على معنى الشق والفتح وكذلك اخواته في الفا " والعين نحو فلق وفلذ وفلى " (٢) .

وللشدياق ايضا بعض الاراء التي استخلصها من مطالعته في الكتاب
اللفوية ، وقد سجلها في " سر الليال " من هذه الاراء ما ينطوى على فهم دقيق
للسوتية . وقد جاء في الصفحة الثامنة من مقدمة الكتاب المذكور ما قوله : " وكثيرا
ما ترى معنى القطع يجمع معنى الجمع فان من اراء مثلا ان يضمن ابريقا ونحوه فانه
يجمعه أولا . . . فهذا الجمع لا يخلو من القطع ومن ثم جاءت الفاظ كثيرة بمعنى
القطع والجمع فمن باب الباء وحده جاء قطب أى قطع وجمع وشعب أى جمع وفرق وصرب
قطع وصرب اجتمع واكثر الافعال المقترنة تأتي مفتوحة العين في هذا الاسلوب
واللازمة مكسورة .

" وكثيرا ما تجد المضاعف به لى قطع ومعتل اللام بمعنى جمع نحو جب وجبى
وقب وقببا .

(١) سر الليال ، الشدياق ، ص ٣١ .

(٢) الجاسوس على القاموس ، الشدياق ، ص ٢٧ .

" واجدر بالمعتل ان يمسى صدى المضاعف فانه اهدا يحكيه وهذا كثيرا

ايضا ما تجد الفعل مهدو^١ بالكسر مثلا ثم يشتق منه الفاظ للقطع نحو همس
كسر والهسهاس القصاب او يبتدىء بالطعن ثم ينتهي بالقلع كما في لشعرا
بالقطع ثم يشتق منه لفظ للتبديد او للانساد لما تقدم من ان هذه المعاني
اخوات^(٢) وكتهيرا^(٣) ما تجد فعلا واحدا متضمنا لمعنى القطع والكسر كما في
اجترع او يكون جامعا لجميع هذه المعاني كما في عبط فانه بمعنى ذبح
وقسر وجفروشق واثار واقتري واجرى .

" وربما ذكرت مثلا من حكاية صوت او كان حاصله الشق او القطع او
اسما من حكاية صفة من دون تنبيه على ذلك . . . وقلما رأيت مادة خالصة
من فعل يدل على القطع الا ووجدت فيه لفظة ترادف قطعة او فرقة وهذا
النوع لم احرص على تتبعه كما حرصت على تتبع الافعال وانما جمعت منه ملحقا^(١) .

ولا يخفى ما للدراسات القديمة من اثر في كل ما ذهب اليه الشدياق
وفيره من الملما^١ المحدثين في ربط الحرف بالمعنى وعلائق الجذر بالاشتقاق
وعلائق المقطع بمدلوله وفير ذلك من المباحث الصوتية التي ذهب اليها الشمالي
في " نكه اللغة " واهن جنى في " الخصائص " وسواهم .

ويتابع زيد ان ما ذهب اليه الشدياق ، فيرد الالفاظ كلها الى اصل هذه
العلاقة بين حروفها والمعنى . مبينا ان الالفاظ ذات المعنى الواحد -
حسب رأيه - ترتد الى اصول ثنائية (احادية المقطع) ثم يقيم الصلة بين
هذه كاصول والمعنى الطبيعي . و " قط " وقطب وقطف . . . جميعها تتضمن
معنى القطع . . . والاصل المشترك فيها قط ، و " هو بنفسه حكاية صوت القطع
كما لا يخفى (٣) " . و " منها جذ وجذب " يقال جذب الريق اذا انقطع . . .
وجذر وجذف وجذم وكلها بمعنى قطع ، ويجانس جذر وهذه حكاية صوت المقص ،
اذا جرسعرا او صوفا . . . و " تنوهات هذا المعنى تفوق المثات عددا ، وقد

(١) سر اللبالي ، الشدياق ص ٨ و ٩

(٢) سر اللبالي ، الشدياق ص ٨ من المقدمة .

(٣) الفلسفة اللغوية ، زيدان ، ص ١٠٠ (بتصرف) .

تصرفوا في استعمالها على طرق مختلفة حقيقة ومجازا ، وكلها ترد بالاستقرا
الى اصل واحد ، وهو حكاية صوت كما رأيت (١) .

ويتابع قوله ، فيرى انه " من ضروب الفتح (لنا) فق وفقاً وفقح . . والعامّة
تقول فقع وجميعها ترد الى فق وهذه حكاية صوت القرية اذا شقت وهي ملائمة
او ما شاكل (٢) .

وستتناول قضية المضاعف الثنائي ، ونظرية تشكيل الجذر عند هؤلاء اللغويين
في الفصل التالي من البحث .

الفكرة الصرفية والروابط الوضعية :

قلنا ان اللغويين اللبنانيين في القرن الماضي نظروا في الفكرة الصوتية
من زاوية وظائفها اللغوية في الكلام كعنصر مميزة له . وقد ارتبطت هذه الابحاث
(المورفولوجية) الى حد كبير بقضايا العلائق الوصفية التي في اصل الجذر ،
ومراحل تطوره ، وما لحق ذلك من مسائل في الاشتقاق والقلب والابدال .

ومما هو جدير بالذكر ان كثيرا من هذا الاعتقاد او التطبيق الذي قام به
بعضهم كالشدياق ، او ما استدلوا به من برهان ، يرتبط بالدرس اللغوي القديم ،
وقليلا ما يخلو من التقليد والاتباع ، كما لا ينجو - احيانا كثيرة - من الخطأ والزلل .
وان كان المنطلق الاساسي بيدوسليما في البداية .

فكرة الجذور - " النظرية الثنائية " :

كان من نتائج الدرس اللغوي في الصوتيات ، وعلائقها الطبيعية ان
اعتمد لغويو القرن الماضي ، تقرير نظرية واحدة في الجذور اللغوية ، آمنوا بها ،
ودافعوا عن اصلتها وصوابها .

(١) الفلسفة اللغوية ، زيدان ، ص ١٠٠

(٢) الفلسفة اللغوية ، زيدان ص ١٠١ .

ويمكن ان نعتبر " نظرية الثنائية " فكرة عامة ، عند هؤلاء ، اقتنعوا بصوابها ، وما يتفرع عنها من قضايا . هذا الاعتقاد بـ " الثنائية " تمثل في ناحيتي ، النظرية والتطبيق . وغالبا ما كانت الناحيتان تتمازجان في كتاب واحد مثلا كما هو الحال عند جرجي زيدان في " الفلسفة اللغوية " . او تنفصل النظرية عن التطبيق فيكون لكل منهما كتاب بعينه ، كما حاول الشدياق في " الجاسوس على القاموس " و " سر الليال في القلب والابدال " . اما ماعداهما من اللغويين ، فقد كانوا عالة عليهما ، حتى ، يمكننا ان نقرر بان الشدياق هو الوحيد قد تفرد بالعمل الكبير ، ولحقه زيدان ، فيما بعد ، في اكثر آرائه .

لذا ، سنتناول كلا من نظرية الشدياق وزيدان على حدة ، دون ان نوحده بينهما في كل متجه ، لانه على الرغم من اتفاقهما على المبادئ فانهما يختلفان في التفاصيل .

— احمد فارس الشدياق ونظرية " المضاعف الثنائي " —

يمكن اعتبار ان الشدياق اول من بحث في الجذر اللغوي في راصوله ، في القرن الماضي . حيث استقى من درسه اللغوي نواة نظرية آمن بها ، ما لبثت ان تبلورت في عمل معجمي كبير . اعتمدها في اساس ترتيبه وتنظيم موادها . وهذه النظرية تعتبر ان الثنائي اصلا في المادة المعجمية .

فیر ان مصطلح " الثنائية " تسمية ، هكذا ، لم يرد بصراحة عند الشدياق بل وردت التسمية التي ارتضاها لعمله المعجمي في كتاب " سر المال في القلب والابدال " بـ " المضاعف الثنائي " .

ورغم اختلاف التسمية تبقى النظرية الثنائية هي ذات المضمون ، والنهج اللذين اتضحا من خلال معالجة الشدياق للفعل ومقلوبه . " فمقلوب حث ، مثلا ،

في معجمه ثج (١) ، ومقلوب عث ثج (٢) ، وجث نج (٣) وجبأ نج (٤) وهكذا ...

ومعلوم ان طريقة القلب هذه ، عند الشدياق واعتماد المضعف
اصلا ، تعود الى دعوة الخليل ابن احمد ، في القرن الثاني الهجري ، في
معجمه " العين " الذي صدره بعقدمة دعا فيها ماندعوه اليوم بالفعل الثلاثي
المضاعف ثنائيا مضاعفا ، وخصه بفصل خاص صدر به الباب الذي يفترض ان ينتظمه .
وكذلك فعل ابن دريد في الجمهرة ، وابن فارس في المقاييس ، وابن القوطية
وابن القطاع في كتاب الافعال (٥) .

" وحين وضع الراقب الاصفهاني (٩ - ٥٠٢ هـ) معجمه (المفردات
في غريب القرآن) وضع هذا الفعل موضع الثنائي فلعتبر مادة مذ (م د) ، لا
(م د د) . وعلى ذلك قدمها على مدح وبابها (٦) .

لكن هؤلاء اللغويين ، ماسعوا في عملهم هذا بغية الكشف عن نظرية
تقوم على ثنائية اصل هذا الفعل ، وجل ما ارادوه ، او كانت الغاية منه - في
الغالب - حصر الالفاظ وتصنيفها ليس اكثر .

غير ان لغويي القرن الماضي ، في لبنان ، كثيرا ما استهوتهم فكرة
ثنائية الاصول " فاتخذوا منها اساسا لنظرية شاملة تنتظم معظم الالفاظ العربية (٧)

(١) سر الليال ، الشدياق ، ص ٣٦١

(٢) = = = ص ٣٦٥

(٣) = = = ص ٣٧٤

(٤) = = = ص ١٠٣

(٥) = = = ص ٨٩

(٦) = = = ص ٨٩

(٧) = = = ص ٩٠

وهذا ما حدا بالشدياق الى تأليف معجمه المذكور .
وهكذا يحتذى الشدياق في تقاليبه للفعل المضاعف حذو الخليل الذي
يقول : " اعلم ان الكلمة الثنائية المضاعفة تتصرف على وجهين نحو قد دق وشد
دش " (١) .

اما الدوافع التي حدت بالشدياق الى اخذ " المضاعف الثنائي " اصلا
فيمكننا حصرها من مجموعة تصريحات له وردت في مقدمة " سر الليال " نستخلص
منها مايلي :

١- كون " معظم اللغة مأخوذ من حكاية صوت او حكاية صفة " (٢) .
و " ان حكاية الصوت انما تأتي من المضاعف نحو دب ودق ودق وهز
وصف وقسر . فاذا ارادوا الزيادة في المعنى ضاعفوا الحروف فقالوا
دبدب ودق دق . الخ
فقولهم مثلا : هزهز وحتحت ان هو في الحقيقة الا هزهز وحت
حت " فلما بنوه هكذا احتاجوا الى التسكين (٣) .

وقوله في موضع آخر " لمعنى ان من لم يكن يدري شيئا من لغة العرب
فاذا سمع مثلا لفظة طنطن ودندن وجلجل ، وكان ذا ذوق سليم
فلا بد وان يتوهم انها حكاية اصوات (٤) .

٢- تأكيد على ان اللغة ليست نظاما مستقرا بقدر ماهي تغير لغوى
" ان اللغة كغيرها من الطائع والموضوعات البشرية لا يحدث
شي " منها تاما كاملا من اول وهلة ولكن على التدرج " (٥) .

وهذا ما جعله يبدأ بالمضاعف أولا ، كرم ، اث ، وحت ، وخت وعت وفت .
ثم بالاجوف الواوى فالليالي ، ثم بالمهموز ، فاذا لم يكن الاجوف فانه
يذكر المهموز (٦) ، وينتهي بالفعل السالم ، لمجيئه - حسب رأيه -
آخر الافعال .

(١) مانشر من كتاب العين ص ٩ (انظر ترزى ص ٩١) .

(٢) سر الليال ، الشدياق ص ٢٢

(٣) = = = ص ٢٢

(٤) = = = ص ٢٥

(٥) = = = ص ٢٥

٣- انه رأى "حكم ترتب المزيد على المضاعف لا يكاد يتخلف" (١) فقلما يرى المرء في المضاعف معنى الا ويرى في مزيد، مثله او ما يقاربه (٢) . ومن الامثلة التي اوردناها على ذلك ما يلي : سلّ وسلب . لبّ ولبث . نمّ وزمّ (ملا) ، كدّ وكدح الح .

٤- ان زيادة حرف على المضاعف اليق بحكمة المواضع في التفتن من نقصه ،
ان لو جعلت السالم اصلا لزم عنه العدول من الكمال الى النقصان (٣) .

٥- انا نجد انفعالا مجهولة الاصل واصليها من المضاعف معلوم ، وذلك نحو
امتخر المظم اى استخرج مخه فهو ولا بد ان يكون من امتخ اذا لم
يجي " المخر بمعنى المنح (٤) .

هذه هي الثنائية أو " المضاعف الثنائي " كما فهمها الشدياق ، وكما
ارتضاها اساسا لمعجمه ، " سر الليال في القلب والابدال " ، اعتقادا منه ان هذا
المنحى يكفل للالفاظ معانيها جميعا ، بعدما تفرقت في معاجم لم تلتزم ترتيبا
جديرا بالتناول كما هو مؤمن .

وخير دليل على نظريته هذه ، ما جاء مثلاً في كتابه المذكور . فالقرن بين
نظائر فل^١ وفلج وفلح وفلذ وفلح^٢ وفلق وفلى مثلاً ، هو الوسيلة المثلى لمثل هذا
الجمع (٩) .

وعلى هذا الترتيب للعادة والاعتقاد بالمضاعف الشائي أصلا للجذور ، يكون الشدياق قد جعل الكلمات المشتركة في حرفين أصليين تحما . قد ، مشتركا مسن المعنى . وان هذا القدر المشترك يتوجه توجهها خاصا بالنسبة لما يضاف إلى هذين الحرفين من حروف أخرى . فقم وغمد وغمز وغمس وغمض وغمط كلها تدل على المتر والتغطية ، ولكن الحرف الأخير في كل منها يحوّر هذه الدلالة العامة تحويرا خاصا فيكسب الكلمة التي يعقبها معناها الحقيقي .

(١) سر الليالى ، الشدياق ، صفحة ٢٥

صفحة ٢٥ = = = (٢)

(٣) سر الليالى ، الشدياق ص ٢٦

ص ٢٦ = = = (٤)

• ٢٧ ص = = = (٥)

وهذا ما يعطل طريقة القلب والابدال عند الشدياق التي ارادها هدف ترتيب مظاهر المضاعف الثنائي حيث يأخذ في قلب الاعمال ، نظرية القلب المطلق ، والاتباع على الاطلاق كوسيلتين استفاد منهما في التدليل على ما ذهب اليه اولا ، وهلى مصرفة سر الوضع والتكثير اللغوى .

كما ان نهج القلب والاتباع - عنده - ادى الى دورانه حول اصول ثابتة بعيدة عن العفو والارتجال . غير ان الاتباع ماكان على نسق واحد ، فتارة يلحق اتباع العجاسة ، وتارة يتسع حتى يضم حروفا لا تتناسب قيمها الصوتية او انه يجمعها جميعا شاذا .

ويبين الشدياق اسباب نشوء القلب والابدال في اللغة ، فيرى ان الالة الصوتية او آلة ارسال الكلام وهي الحنجرة تؤدي الى عمليات لغوية هي القلب والابدال . فالقلب يجي* من عدم اهتمام السامع بما ينطق ووجه لما يقول . فينطلي الزبرج الزبرجد " ص ١٨٢ وتصيح هذه لفظة (١) . وينص الشدياق على هذه المسألة فيقول : " لان منشأ القلب كلمة المبالاة " (٢) .

ويرى ان الابدال يجي* من الاختلاف في نطق الصوت ومن عدم قدرة الحنجرة على ان تؤديه على الصفة المطلوبة . جاء* في الجاسوس مايلي : " وقال ابن دريد فاما بنو تميم فانهم يلحقون القاف باللهاء فتخلط جدا فيقولون الكوم فتكون القاف بين الكاف والقاف . وقال الازهرى . قال المفضل من العرب من يبدل الظا ضادا فيقول قد اشتكى ظهري بمعنى ظهري . ومنهم من يبدل الضام ظا فيقول قد عظت الحرب (٣) فعيوب النطق ، وخلل الحنجرة - كما صرح الشدياق - يؤدي الى القلب والابدال .

وعلى هذا الاساس نستطيع ان نفهم من اين نشأت هذه اللغات التي يتفرد بها بعض القبائل العربية والتي صورها الشدياق في كتابه الجاسوس على القاموس ، والتي نذكر منها مايلي : " ومن ذلك المعننة وهي في كثير من العرب في لغة قيس وتميم يجعلون الهزرة العبدو* بها عينا فيقولون في انك عنك . والفخفة في لغة هذيل يجعلون الحاء عينا والوكم في لغة ربيعة وهم قوم من كلب يقولون عليكم وبكم حيث كان قبل الكاف ياء او كسرة . والمجمجة في لغة قضاة يجعلون الياء الشددة

(١) و (٢) الجاسوس ، الشدياق ص ١٨٢

(٣) الجاسوس ، الشدياق ص ١٨٤

جيمًا . . ومن ذلك الاستنطاط في لغة سعد بن بكر والازد وهذيل والانصار .
يجعلون العين الساكنة نونا اذا جاورت الطاء كَانطى في أعطى . . والششنة
في لغة اليمن تجعل الكاف شيئا مطلقا كليش في لبيك والديش في الديك (١) .

وهكذا لا يمكن فهم نشأة تشابه اللغات - حسب رأى المؤلف - او
اختلاف اللهجات او ماكان في اللغة من ترادف وقلب وابدال الا على هذا الاساس
لان ذلك مرده - عند الكاتب - الى قدرة الانسان على التقليد لما يسمع
والمحاكاة له او عدم قدرته على ذلك . وهو ما يؤدي الى مسائل كثيرة في اللغة ،
كالذى ذكرنا .

كما ينسب في مكان آخر ، الى اختلاف ائمة اللغة ، مسؤولية وجود القلب
والابدال هذه . فهو يقول في مقدمة الجاسوس ، " ومن الخلاف الذى وقع ايضا
بين ائمة اللغة ، وهو ما يتفرع عنه مسائل مهمة ومشاكل جمّة خلاف القلب نحو
يرض ، ورضب وانضب القوس وانضها (٢) .

ويعمل اسباب الخلاف هذا فيرى انه " انما يجي " من ان بعضهم يرى ان
احدى الكلمتين لغة في الاخرى وبعضهم يرى انها مقلوبة عنها ويترتب على ذلك
ان ماكان مقلوبا لا يكون له مصدر وانما يستعمل مصدر الكلمة المقلوب عنها ليكون
شاهدا على اصلتها كما في المحكم واللسان (٣) .

ويلخص الشدياق هذه المسألة بقوله :
" يقول الجوهري في جيز جيزت الشي * مثل جذبته مقلوب منه فانكر عليه
المصنف ذلك بقوله : " الجيز والجذب ، وليس مقلوبه بل لغة صحيحة . .
وهو الجوهري وغيره كالاجتياز . وعبارة الصفاني في المعيار : جذبت
الشي * مثل جذبته مقلوب منه . وهي لغة عشيمية . واجتيزت الشي * مثل اجتذبت
والانجيزان مثل الانجذاب .
" وقال صاحب اللسان : جيز جيزا لغة في جذب . وفي الحديث جيزني
رجل من خلقي ، وظنه ابو عبيد مقلوبا منه . قال ابن سيده وليس ذلك بشي * . .

(١) الجاسوس ، الشدياق ص ١٨٣ .

(٢) و (٣) الجاسوس ، الشدياق ص ٤٣ .

ويتابع الشدياق فيقول :

"وقال ابن جنى : ليس احد عما مقلوبا عن الآخر • جذب وجبذ ، وذلك
انهما يتصرفان جميعا تصرفا واحدا • تقول جذب بجذب جذبا فهو جاذب • وجبذ
يجبذ جبذا فهو جابض • فان جعلت مع هذا احد عما اصلا لصاحبه مكد ذلك
لانك لو فعلته لم يكن احدهما اسعد بهذه الحال من الآخر • فاذا وقفت الحال
بهما ولم تؤثر بالمزية احدهما وجب ان يتوازيا فيتساويا • • • فان قصر احدهما عن
تصرف صاحبه فلم يسلموه فيه كان اوسعهما تصرفا اصلا لصاحبه • • • وذلك نحو قولهم
انى الشئ • يانى وان يئين • فان مقلوب من انى والدليل على ذلك وجودك مصدر
انى يانى ايناه ولا نجد لان مصدرا (١) • • •"

ويضيف الشدياق :

"وهنا ملاحظة من عدة اوجه :

- ان اهل المغرب مقتضرون على استعمال جبذ دون جذب •
- ان كلا منهما يرجع الى اصل يدل على القطع ، اعني جذ وجبذ ، فان
حقيقة معنى الجذب والجبذ تحويل الشئ • عن موضعه جراً ، وفي الجرا ايضا معنى
القطع ، فهو دليل على اصاله كلا الفعلين (٢) • •
- ان قول ابن جنى كان اوسعهما تصرفا اصلا لصاحبه يستلزم معرفة الاوسع
تصرفا • لان اهل اللغة لا يصرحون بذلك ، فانهم يقولون مثلا : انضب القوس وانبضها •
- ان صاحب المصباح حكى في مادة " اين ان يئين ايناه مثل حان يحيين
حيناه وزنا ومعنى فهو آين • وقد يستعمل على القلب ، فيقال انى يانى مثل سرى
يسرى ، الى ان قال وان يئين ايناه تعب • فهو آين على فاعل فجعل ان اصلا لائى •
وهو عكس ما ذهب اليه صاحب اللسان •

(١) الجاسوس ، ص ٤٤

(٢) نفس الصفحة •

• اللغة •

— ان الامام السيوطي دعا في المزهرة ابن دريد في الجمهرة ما نصه
باب الحروف التي قلبت وزعم قوم من النحويين انها لغات وهذا القول خلاف على
اهل اللغة ثم ذكر جند وجذب وما اطيبه وما ايطبه الخ مع ان الخلاف واقع بين
اهل اللغة انفسهم •

ان قولهم المقلوب ليس له مصدر ، وانما يرجع فيه الى مصدر الاصل المقلوب عنه غير
متفق عليه • فقد حكى الصغاني في ^{المشعر} الباب الفاشي والقاريش على القلب وله نظائر (١) ص ٤٥

اذن ، مشكلة القلب ، فيما يرى الشدياق ، وفيما هو الواضح من تعليقه
على قول ابن جني لا تحل بهماطة • وانما تحتاج الى استقراء وتتبع لهذه الالفاظ
في الاقاليم المختلفة ، وهل تشمل في كل اقليم او ان المستعمل منها لفظ واحد ؟
وهل بعضها اوسع تصرفا من الاخر او هما سوا ؟ وماذا يكون العمل لو ثبت ان
كل واحد من اللفظين يرجع الى ما يرجع اليه صاحبه (جند وجذب) الى القطع •

جرجي زيدان ، والثنائية في الجذور :

يرى جرجي زيدان في " الفلسفة اللغوية " مارآء من قبله الشدياق في ان
الاصول اللغوية تعود الى الاصل الثنائي غالبا •

لكنه لا يتفق معه في تصميم الاحكام ، كما كان محدد ا بوضوح لتسمية
" الثنائية " ومعناها اللغوية عنده •

ويمهد زيدان ، في ذكر رأى اللغويين الذين " يردون كلاً من الاسم والفعل
الى اصول معظمها ثلاثية وبعضها رباعية ، ولا يرون هذه الاصول قابلة للرد الى
اقل من ذلك (٢) •

(١) الجاسوس على القاموس ، الشدياق ص ٤٤ - ٤٥ •

(٢) الفلسفة اللغوية ، زيدان ، ص ٩٨ •

ثم يعقب على ذلك بقوله : "وعندى أنها غلبة" (١) لكنه يستدرك بقوله :
 "ولو بعد عنا" (٢) .

وتبعاً لذلك ، فإن الأصول الرباعية (التي) اجمموا مؤخرًا على القول أنها
 ثلاثية مزيد فيها " تبقى مزيدة في الثلاثي أيضا ، و " الاصل فيها ثنائي غالباً (٣)
 و " ان الالفاظ المأثمة الدالة على معنى في نفسها يرد معظمها الى اصول ثنائية
 احادية المقطع ، تحالي اصواتا طبيعية (٤) .

ويتناول ، زيدان ، الاصول الثلاثية ، لأنها " الاكثر في اللغة ، فلذا كان
 للبحث فيها أهمية كبرى (٥) مركزاً اهتمامه عليها ، في يحاول اثبات ما اراده من
 ثنائيتها .

وقد بحث في بحثه هذا مسلكين :

الاول : " استقرا " الفاظ اللغة العربية ومقاييلتها (ويفيد غالباً في الاصول
 الفعلية (٦) والثاني : " استقرا " بعض احوال اللغات الاجنبية وحملها بقياس التمثيل
 على لغتنا (٧) .

ويبين رأيه في المسلك الاول ، فيقول ان : " الباحث في دلالة الفاظ العربية
 المدعوة مجردة (يرى) ان للمعنى الواحد الفاظاً عديدة تتقارب لفظاً ، ويمكن
 تقسيم الفاظ المعنى الواحد الى مجموعات ، تشترك الفاظ كل مجموع منها بحرفين
 هما الاصل المتضمن المعنى الاصلي . والزيادة ربما نوعته تنويعاً طفيفاً (٨) .

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٩٨ .

(٢) = = = ص ٩٨ .

(٣) = = = ص ٩٩ .

(٤) = = = ص ١١٣ .

(٥) = = = ص ٩٩ .

(٦) = = = ص ٩٩ .

(٧) = = = ص ١٠٨ .

(٨) = = = ص ١٠٠ .

ويذكر الكاتب امثله ، منها : "قط وقطب وقطف وقطع وقطم وقطل جميعها تتضمن معنى القطع . الا ان كل واحدة منها استعملت لتنوع من تنوعاته ، فالثاني والثالث مشتملان مع القطع معنى الجمع ، والخامس العض والسادس الشدة والاصل المشترك بينهما قط ، وهو بنفسه حكاية صوت القطع كما لا يخفى . ويجانس قط قص ومنها قصم وقصل وقصب وقصر وقصف جميعها تفيد القطع !

ويجانس قص قص ومنها قض وقاض وقض وقضب وقضج ويجانس كس وكسها كس وكسر وكسع وكسم ، والاولى والاخيرة من هذه السلسلة تتضمن معنى الدق والفت ويجانيس قص ، ايضاً جذ ومنها جذ وجذب (١) .

وجذر وجذف وجذم وكلها بمعنى قطع . ويجانس جذ جز وهذه حكاية صوت المقص اذا جز شعرا اوصوفا ومنها جز وجزاً وجزر وجزع وجزن وجزل وجزم وجميعها من باب القطع . وتنوعات هذا المعنى (كما يعتقد زيدان) تفوق المئات عدداً . وقد تصرفوا في استعمالها على طرق مختلفة حقيقة ومجازاً . وكلها ترد بالاستقراء (حسب رأيه) الى اصل واحد . وهو حكاية صوت . . . وهكذا الحال في القسم الاعظم من كلمات اللفظة . (٢)

وينتقل الكاتب بعد ان اورد شواهد مناسبة الى الحديث عن الحروف المزبلة فيذكر "ان الحرف المزيد قد يكون في اخر الكلمة" وهذا هو الاغلب . . . وذلك كما في الشواهد السابقة ، وقد "يكون في الوسط" بين الحرفين الاصلين كشلق من شق ، وفرق من فق ، وقرط من قط ، وقرص من قص ، وقرض من قض . . . وقد يكون في اول الكلمة نحو رفت من فت ولهب من هب ، ورفض من فض ، ولمس من مس ، ونطح ويطح من طح و . . . قس عليها (٣)

وما يلاحظ في هذه الامثلة التي ذكرها زيدان انها x جميعا x من الافعال فقط ، باستثناء مثال واحد (٤) (وهو التفت والتفت ، حيث يجمع بين الاسم والفعل) وان جل هذه الافعال افعال بدائية تتصل باصوات طبيعية وتؤدي معاني فطرية كالقطع ، لاقص ، القرف ، والعض .

(١) الفلسفة اللغوية ، زيدان ص ١٠٠

(٢) - - - - - ١٠٠

(٣) - - - - - ١٠٠

(٤) وهو قوله التفت والتفت ، وسج الاظافر ويقاربه تضي وتفل ويصق وجميعها اشتراك

بمقطع "تف" وهو من الاصوات التي ينطق بها الانسان غريزيا عند القرف . ومنها

ايضاً التفتن اى الوسج ، وتفه قلبه وخس "زيدان ص ١٠١" وهو يجمع في هذا

المثال ، كما يلاحظ بين الاسم والفعل .

ويرى زيدان ان كلا " من هذه التنوعات اما ان يكون حاصلها في تركيب
اصلين لكل منهما معنى في نفسه ، او لا (١) . فاذا كان الاول كان حصوله على
طرق . منها النحت اى ادغام كلمتين فاكثرا الى كلمة واحدة نحو " قطف " والاصل
فيه - كما يعتقد - " قطف " والاولى قطع والثانية جمع (٢) .

وهكذا في " جمع " حيث يردها الى " بيع " او يتم " بواسطة الترخيم
(اى اعمال القسم الاخير من الكلمة فنحن في اللفظ كقولهم " يا ابا الحكا " في
" يا ابا الحكم " واحتسب في احتسب وتجنس في تجمع . الخ . . . (٣)

وهنا يقول " فهل يبعد تركيب اصلين ثنائيتين وتحولهما معا الى اصل واحد
ثلاثي على طريق الترخيم " ^(٤) غير انه لا يذكر مثالا على ذلك .

ثم يتابع فيقول : " واذا لم يكن لكل من اللفظين معنى في نفسه فلا يخلو
ان يكون لاحدهما او لا ، فان كان الاول كان احد اللفظين فعلا ، والاخر حرفا زيد
اعتباطا ، وهو في الغالب احد هذه (الاحرف) : ل . م . ن . ر ، نحو فـضـ ورفضـ ، وهـب
ولهب . وشق وشلق ، وكن وسكن (٥) . " واذا لم يكن لاحدهما معنى في نفسه
اى ان لا يكون اسما ولا فعلا فلا يخلو ان يكون حرفا ، وربما كان اسما او فعلا فسي
الاصل ، ولم يعد مميذا الان (٦) " نحو لفظه " مال " مركبة " ما " الموصولة ولام
الاضافة التي تعني " الذى لك " وكذلك " ويل " فانها مؤلفة من " وى " ولام
و " لام الاضافة " التي اصلها ويلى " وكلمة ليس . فانها مركبة من " لا " و " ليس " .

(١) الفلسفة اللغوية ، زيدان ، ص ١٠٢

(٢) = = = ص ١٠٢ - ١٠٣

(٣) = = = ص ١٠٥

(٤) = = = ص ١٠٥

(٥) = = = ص ١٠٥

(٦) = = = ص ١٠٦

اما المصطلك الثاني الذي اراده ، زيدان ، بغية تدعيم نظريته الثنائية هذه فهو كثرة استخدام اصحاب اللغات الاخرى - ولا سيما الآرية منها - للنحت في تكوين الكلم ، مما حمله على الاعتقاد بان لا يستبعد ان يكون العرب - كثيرهم - قد لجأوا اليه ايضا في القديم لصوغ كلمات من العسير علينا ان نعرف اليوم الاصول التي اخذت منها .

ومن الواضح ان هذا الدليل لا يمكن الاخذ به من الناحية العلمية ، اذ ان لكل لغة ، او مجموعة من اللغات ، نظامها الخاص ، وطرقها الخاصة في صياغة الكلام وبناء الالفاظ .

القلب والابدال عند زيدان :

يتابع زيدان ما ذهب اليه ، الشدياق من قبله ، من ان القلب ، ناشي " في الغالب (عن) الميل لتخفيف اللفظ او للتفنن فيه ، و (انه) " يحدث في الغالب اعتباطا (١) .

ويورد امثلة على ذلك من الكلمات العامية اللبنانية فيقول :

" ومثل ذلك كثير الحدوث بين عامتنا فان معظمهم يقولون " رعبون " في " عربون " و " اجر " في " رجل " والسوريون ولا سيما البيروتيون يقولون " اجا " في " جا " . (٢)

اما الابدال ، فيعطي زيدان اهمية كبرى ، كسبب في التكثر اللغوي ، ويستدل على قابلية الحروف للابدال ، بما طرأ على اللغات السامية بعد تفرقها لانه " من المقرر - حسب رأيه - انها - اى العربية والعبرانية والسريانية - كانت لغة واحدة تتكلم بها امة واحدة . . . وانها بعد ان قدر للناطقين بها بالفراق اخذت تتنوع تبعاً لمقتضيات احوال كل فريق منهم ، فوصلت اليها على ما شاهدتها (٣) .

(١) الفلسفة اللغوية ، زيدان ص ٦٠

(٢) نفس المصدر ص ٦٠

(٣) نفس المصدر ص ٦١ .

(١)
ويورد هذا الاختلاف كله "لناموس الابدال" ويرى زيدان ان هذا الناموس
ينسحب على الاحرف بشكل قياسي ، وذلك "بدليل ثبوت النسبة بين الاحرف
المتبادلة (٢) " .

ويذكر امثلة مقارنة بين العربية والعبرانية والسريانية هك احدىها ،

" اذا كان احد المقاطع اللفظة العربية " تا " مثلا يكون في مكانها
في العبرانية " شتن " وبالسريانية " تا " نحو وثب " العربية فانها في العبرانية
(يشب " وفي السريانية " يتب " و " ثدى " في العربية فانها " شدا " في العبرانية
و " تدا " في السريانية " (٣) .

وبعد ان يورد امثلة كثيرة تؤكد ما ذهب اليه ، يغتم حديثه بمثل ما انتهى
اليه الشدياق ، فيرى ان الابدال واقع في الالفاظ المتقاربة لفظا ومعنى وهي كثيرة ،
مجددا اعتبار السبب الاساسي الذي هو " في الغالب نتيجة علة طبيعية في اعضا"
النطق في اول الامر ، ثم بالاستعمال تحفظ التنوعات وربما خصصوا كل تنوع لفظي
بتنوع من المعنى الاصلي (٤) .

هذا عن نظرية الجذور والاصول الثنائية ، التي تمثلت في نظرية عند لغويي
القرن الماضي ، وسنتناول في الفصل التالي ، الفكرة المعجمية ، طريقة الوضع التي
آمن بها لغويونا ، وكيفية ترتيبهم للمواد في عمليتين كبيرتين قام بهما البستاني والشرتوني .

(١) نفس المصدر السابق ص ٦١

(٢) = = = ص ٦١

(٣) = = = ص ٦١

(٤) الفلسفة اللغوية ، زيدان ، ص ٦٥ .

الفصل الثاني

الفكرة المعجمية عند لغوي القرن

التاسع عشر

في لبنان

لم تنفصل الدراسات المعجمية ، في القرن الماضي عن اسباب للتدرس اللغوي العام ، بل كانت مسألة يعرضون لها ، وينظرون في مناحي تطورها التاريخية ، واصحاب قصورها من ثم ، محددين رأيهم في ذلك كله من خلال اتصال تعملت في معاجم اتسمت بطوايح الجدية في البحث ، والابتكار في التنظيم والتجريب والمنهجية الواعية ، النازعة الى ربط المادة باصولها وفروعها ، ودونما اضطراب وفوضى ، كهلك التي شهدتها المعجم العربي في تاريخه .

والجدير بالذكر ، ان الثقافة الغربية ، وطريقة المعجم الاجنبي كانتا ذات اثر جلي في هذه الاعمال ، ولا سيما شكل المعجم ، وهيكلته العامة . ولا يخفى ما لاثر شخصية هؤلاء القوية ، التي تجلت في ترتيب المادة وتقسيم مشتقاتها ، ومحاولة ضبط بنية الكلمة وفق نظام مطرد ، وغير ذلك مما يدخل في حيز الشكل والمضمون .

وحين نتكلم عن العمل المعجمي ، في القرن الماضي ، فاننا نملي بذلك ثلاثة لسويين لبنانيين في ثلاثة اعمال قاموسية لهم ، هم على التوالي :

بطرس البستاني في معجم " محيط المحيط " ومختصره " قطر المحيط " .
وسعيد الشرتوني في معجم " اقرب الموارد الى فصيح العربية والشوارد " .
واحمد فارس الشدياق في معجم (لم يكتمل) " سر الليلالي في القلب والابدال " .

وقد حدد هؤلاء ، منفردين في العمل ، مناحي القصور في المعجم القديم منتبهين الى حصر اسباب مشاكل المعجم العربي في اربع قضايا هي :

- اولا - ^{المعجم} الذي ساد المعاجم القديمة .
ثانيا - سوء ترتيبها .
ثالثا - التقصير في شرح موادها .
رابعا - الغموض في التمريف .

وستتناول كل قضية ، منفصلة عن اختها ، ليتسنى لنا دراستها في معاجم هؤلاء ، وتلمس الهدى عندهم ، نظرية او تطبيقا .

اولا - جمود المعجم القديم .

انتقد ، هؤلاء ، قصور معاجمنا القديمة عن الاحاطة بما ندّ عن تطور في الفكر الانساني الحديث ، وما نتج عنه من تفتح حضارى ، تتوق الى مزيد من المعلوم المستحدثة ، والرفعة في ايجاد مستلزمات لها من تقنية وتعبيرية وهو ما ينطوى تحت مبحث " المصطلحات " .

هذا القصور عن اللحق بركب العلوم ، ومدلولاتها ، حدثت بالبستاني الى تأليف معجم يضم عددا كبيرا من هذه المصطلحات العلمية والفنية والتقنية ، كيلا يتسنى للطالب ، او القارىء العربي ، معرفتها في كتاب معجمي عربي ، دون ان يبذل المشقة في تلمسها في معاجم اجنبية .

وهكذا فعل من بعدهم الشرطوني ، الذي احتذى حذو سلفه في كثير من ايراد هذه النماذج الجديدة في اللفظ .

وما هو جدير بالانتباه ، ان البستاني والشرطوني لم ينتقدا جمود المعجم بشكل نظرية او كتب لغوية ، بل اقتصرا على تلافي العيب من خلال عملهما فحسب .

اما الشدياق ، فقد انتقد هذا القصور بشكل مباشر ، وذلك في مجموعة الاراء التي اندرجت بشكل منظم في عمله الكبير " الجاسوس على القاموس " حيث حدد في نقده لمعجم الفيروزابادى ، مشاكل المعجم عامة ، ومنها جموده هذا .

كما لعقب ذلك ، بعد حين ، بمحاولة جريئة لم يقم بها احد من لغويي القرن الماضي ، لعني بها محاولة استحداث الفاظ عبر الاشتقاق والنحت . وضمها الى الثروة اللفظية في المعجم العربي (١) .

رأى الشدياق ، في كتاب " الجاسوس " ان الاقدمين قد الفوا لعصورهم ، وجروا في كتب اللغة على ماكانت تقضي به اصولهم اللغوية في ذلك الحين ، وانه لاعيب عليهم في ذلك (٢) .

ويبقى هذا الاحساس رائد العمل في كل فصول " الجاسوس " حيث ينتقد الشدياق نقاء المنهج على ماكان عليه في النسق الاول ، داعيا الى التأليف المستحدث ، الذي يهتم بالاصول اللغوية التي فرضتها الحياة ، وما لعقب ذلك من تجديد وتطور ، لا امل في ايجادهما ، او ايجاد دلالاتهما في الحياة اللغوية القديمة . " وانما العيب ان نقف نحن حيث وقفوا . وان لانصدر نحن في عمل المعاجم عن فكرة جديدة تتفق وما في الحياة اللغوية من حركة ومن نمو وتجدد (٣)

ويتابع نقده فيقول :

" ان المؤلفين الاولين رحمهم الله الفوا وبرعوا واجادوا ، وصنفوا ، ونقصوا ، وافادوا ، غير انهم الفوا كتبهم على حسب افهامهم واذهانهم وافهام اهل زمانهم . فاختصروا واوجزوا واشاروا ورمزوا (٤) " .

فهي دعوة جريئة الى وضع منهج جديد للعمل المعجمي ، ايماننا بانفتاح اللغة على غيرها من اللغات ، وتقرير حقها في الحياة . سره المتكلمين بها ، حيث لا يمكن للغة من اللغات ان تعيش وحدها - كالامة - من غير ان تختلط بامة اخرى ، وانه من هنا تدخل الفاظ امة في الفاظ امة ثانية . مما يفهم منه ، ان الشدياق يقرر حق المحدثين في الوضع ، شرط ان يراعى فيه اللزوم والضرورة وتهذيب اللغة .

(١) انظر فصل " الالفاظ المستحدثة " ص

(٢) = الجاسوس على القاموس ، الشدياق ، ص ٣ وما بعدها .

(٣) = = = = =

(٤) = = = = =

ويدافع الشدياق ، في مقال له في الجوائب ، عن احقية هذا الاتجاه والتحرر اللغوي ، وايجاد الالفاظ الجديدة ، التي استلزمها الحياة الجديدة فيقول :

"ولو ان الصرب الاولين شاهدوا البواخر وسلك الحديد او اسلاك التلغراف والغاز .. ونحو ذلك مما اخترعه الافرنج لوضعوا له اسما خاصة (١) " .

وهنا يختلف الشدياق ، مع من جاء بعده من اللغويين اللبنانيين ، في معنى الجديد ، وكيفية رند المعجم لتخليصه من جموده ، فالشدياق ، لا يكتفي باضافة هكذا الفاظ فقط ، كما فعل البستاني والشرتوني ، بل يرى ان فك المعجم من هقال قصوره يكون في تحريره من الخلل الذي اصابه ، فالجمود كامن فيما اصاب القاموس من اضطراب اللغويين في تحديد الهدف ، وعدم تعرفهم على المقاصد التي من اجلها الفوا كتبهم .

وهكذا ، يتجلى الفرق بين مفهوم الجمود كعمل يخص المضمون عند الشدياق ، وعمل يخص الشكل واطافة او الصاق مواد عند البستاني وغيره ، فالشرتوني مثلا ، ذهب الى وضع مفردات كثيرة ، ليست من معجمات اللغة . اخذها من مفردات ابن البيطار ، والمقد الفريد ، والالفاظ الكتابية وسواها .. مقلدا سلفه البستاني ، الذي كان قد ادج اصطلاحات في العلوم والفنون وكثيرا من كلام المولديس واللمة الدارجة . وغير ذلك مما لا يتعلق بمتن اللغة ، وذلك ليكون المعجم - حسب رايه - " شاملا يجد فيه كل طالب مطلوبه " (٢) .

واننا لنخلص الى تأكيد نتيجة هي ان الشدياق ابرز هؤلاء ، وانضجهم فكرا في المباحث المعجمية فقد سار وفق مسار لغوي دقيق ، وذلك بابقائه مفهوم المعجم ضمن تناول المادة اللغوية ، على نسق القدامى ، وعني بالتركيز على اصلاح منهجية هذا تناول ، دون ان يدخل في المعجم مصطلحات تقنية او اسما مخترعات ، او مفردات الطب والزراعة والصنائع .. كما فعل البستاني والشرتوني حيث كان يرى ان لكل من هذه المواد معجمه الخاص .

(١) منتخبات الجوائب ، مجموعة مقالات للشدياق ، ج ١ ص ٢٠٥

(٢) من محيط المحيط ، للبستاني ، خاتمة حرف الرا ، ص ٨٤٧ .

ثانيا - سو* الترتيب - ب :

اولى علماؤنا ، في القرن الماضي ، ثلاثهم ، جانب الترتيب اهتمامهم
الكبير ، لما فيه من تحقيق غرضين هامين : اولهما : سرعة الوصول الى الوقوف
على المعنى المراد .

وثانيهما : بيان خصائص العربية ، والوقوف على سرها من خلال الوضع .

ويتفق العلماء الثلاثة في الغرض الاول . وهذا ما تمثل فعلا في معاجمهم
بشكل تطبيقي ، وخاصة في " محيط المحيط " للبستاني ، و " اقرب الموارد " للشتوني ،
الكفا* بالتطبيق ، دون درس لغوي للنظرية تاركين التخصص بالقضايا النقدية
والوقوف على دقائقها للشدياق ، الذي جز الجميع عمقا ورعيا . ونحن ، واجدون
فعلا ان الغرض الثاني ، وهو بيان خصائص العربية والوقوف على سر الوضع لم
يتجل بصورة علمية الا في ابحاث الشدياق .

ولعل الشدياق ، في هذا ، يعتبر اول من انتقد طريقة الترتيب المتبعة
في المعاجم القديمة وذلك بكتابه الكبير " الجاسوس على القاموس " فقد حلل سبيل
العمل القاموسي ، وانتهى الى وضع ترتيب متكامل لجانب المعجم ، جانب المواد ،
وجانب المشتقات او الصيغ في المادة الواحدة .

ولمزيد من التفصيل ، سندرس طريقة الشدياق في ترتيب المعجم ، على
حدة ، ثم نأتي على ذكر طريقة البستاني والشتوني من بعده .

- الشدياق وترتيب المعاجم :

بين الشدياق ، ما انطوت عليه المعاجم القديمة ، من اضطراب في وضع
المادة وسو* ترتيب لها ، موليا هذه القضية اهتماما كبيرا جاعلا النظر في جانبين :

اولهما : ترتيب المواد في المعجم

ثانيهما : ترتيب المشتقات او الصيغ في المادة الواحدة .

هذه النظرية الثنائية الجامعة لطرفي المشكلة ونتجت عن قراءة كتب اللغة جميعها على أساس تاريخي ، مما ييسر للشدياق من ثم ، طريقة العمل ، ولكنه من تفسير الكثير من الظواهر اللغوية والاجتماعية الخاصة بمسائل الترتيب هذه .

وكثيرا ما كان يقف في بعض الاحيان ، ليصحح من مسائل هذا التاريخ مدليا بآراء مهمة ، ان دلت على شي ، فانما تدل على طول باع ونفاذ بصيرة وعمق ادراك لما هو بصدده .

ولنسمعه يقول في هذا :
" ثم ان اول من الف في اللغة الخليل بن احمد ، كما ان اول من الف في النحو خريجه سيوييه رحمهما الله " (١) .

هذا وقد وقف في بحثه للترتيب على رصد الطرق المتداولة في المعاجم القديمة أولا ، ليتسنى له نقد عيوب كل منها على حدة ، مبينا من ثم ، ان ترتيب المواد في الكتب هذه يجي " متكئا على الحروف ، واذا كان اللغويون يختلفون فيما بينهم في عدد الحروف ، وفي ترتيبها ، فقد اختلفت المواد في ترتيبها بالنسبة الى الكتب المختلفة .

كما اختلف هذا الترتيب لسبب آخر هو ان من اللغويين من يكتفي بجمع المواد التي على حرف واحد ، في موطن واحد ، ومنهم ينظر الى اوائل المواد واواخرها ، ومنهم من كان يكتفي بالاوائل من المواد (٢) .

هذه الطرائق الثلاث في الترتيب ، فسرهما الشدياق على ضوء نظريته محددة كمن بها ، منتقدا في سبيلها طرق القدامى في الترتيب . هذه الطريقة التي ارتضاها لعمله تتمثل في نظرية " المضاعف الثنائي " الذي سبق الكلام عنها . وسنورد طريقة ترتيبها بعد تحديد موقف الشدياق من تلك الطرق الثلاث التي سار عليها العمل المعجمي القديم .

(١) الجاسوس ، الشدياق ص ٢٢ .

(٢) = = ع ٢٠ وما بعدها .

١ - جمع المواد على حرف واحد .

رفض الشدياق طريقة جمع المواد على حرف واحد ، تلتزم الترتيب الحلقى ، وهي طريقة الخليل بن احمد في " العين " والازهرى في " التهذيب " وابن سيده في " المحكم " التي تقوم على جمع المواد حسب مخرج الحروف وقلب الالفاظ ، فقد رأى الشدياق ان الفائدة المعجمية غير محققة في هذا الترتيب . كما وليست مجدية في الوصول الى المعاني في سهولة ويسر .

و " بالجملة فالبحث عن الالفاظ في هذين الكتابين " التهذيب " للازهرى و " المحكم " لابن سيده ، اصعب جدا ، لانك اذا اردت ان تبحث مثلا عن لفظة (رقب) لم تدر هل هي في الاصل ، فتبحث عنها في الراء ، او مقلوبة عن (قرب) فتبحث عنها في القاف . او عن " برق " وما بين هذه الحروف مسافة بعيدة (١) .

ويبين الشدياق السبب الذي حدا بالخليل ومن تلاه - حسب رايه - الى اخذه المبدأ الحلقى والبداية بالهمزة دون غير فيقول نقلا عن المسيوطي في " الزهر " قال سمعت من يذكر عن الخليل انه قال : لم ابدأ بالهمزة لانه يلحقها النقص والتغيير والحذف . ولا بالالف لانها تكون في ابتداء كلمة ، ولا في اسم ولا فعل الا زائدة ، او مبدلة . ولا بالهاء لانها مهموسة خفيفة لاصوت لها . فنزلت الى الحيز الثاني ونبه العين والحاء فوجدت العين انصع الحرفين ، فابتدأت به ليكون احسن في التأليف .

" وليس العلم يتقدم شي * على شي * لانه كله مما يحتاج الى معرفته ، فبأى بدأت كان حسنا واولاها بالتقديم اكثر تصرفا (٢) .

ويعمل الشدياق طريقة العمل هذه ، باهتمام الائمة الاولين في جمع اللغة وصونها من التبديد والضياع فقط .

(١) الجاسوس ، الشدياق ، ص ٢٣

(٢) = = ص ٢٢ .

اما ان يكون الترتيب هذا خطوة تيسيرية للمعجم فهذا ما يفرضه
اعتقادنا منه بان فكرة الجمع هذه ما استوجبت من ترتيب ، لم تخدم الا بيان
الصيغ المهمة والانفعال العقيمة او الميتة .

٢- طريقة اوائل الكلم واواخرها

يرى الشدياق ان طريقة اوائل الكلم واواخرها ، كالطريقة التي جرى
عليها الجوهرى في ترتيبه " الصباح " وابن منظور في " اللسان " والفيروزابادى
في " القاموس المحيط " فهي - لاريب - مسهلة للمطلوب وخصوصا جمع القواني .
غير انه - حسب رأيه - فاصل لتناسق معانيها (اى القواني) ،
ومسوار لاسرار وضعها ومعانيها ، وفيه اجحاف باحرف الكلمة .

كما ، ويبين الشدياق ، بانتقاده هذا الطريقة الوضع التي اهتمدى
اليها صاحب الصباح واللسان والقاموس ، خطأها من خلال الاستعمال ،
الكفى للفظ الواحد . فقد ترد الفاظ كثيرة في المعتل . كانت قد وردت
في المهموز " نرى كثيرا من الالفاظ التي وردت في المهموز تعاد ايضا في
المعتل نحو : برا الله الخلق وبراهم ، وبارأ امرأته وباراها "

وان الالفاظ التي تأتي من الثنائي المضاعف تعاد غالبا في غيره .

٣- طريقة اوائل الكلم دون اواخرها

يرى الشدياق ، في مراعاة طريقة اوائل الكلم دون اواخرها صنيع
الزمخشري في " الاساس " والفيومي في (الصباح) صلاحية الترتيب ، وحسن
المعمل ، وحكمة لحظها امام العربية الزمخشري .

والذى جعل الشدياق يميل الى تفضيل هذا الترتيب ، اخذه
بنظرية ثنائية الجذور وقيام فكرته اللغوية على حداية الصوت المتأنية من المضاعف
وهذا ما يبين اصراره على رفض طريقة اواخر الكلم لما فيها - حسب رأيه - من

تفريق لمعاني الالفاظ وتشيت لمبانيها .

لكن الشدياق يزيد على طريقة اوائل الكلم ، نظريته او طريقته في ذكر المادة ومقلوبها . وذلك لاعتقاده بدلالة الاصوات على المعنى او فحواه . وان ترتيب الاصوات على تقديم وتأخير في الكلمة الواحدة ذال على اصلتها في اللغة ، وذال على اصالة هذا المعنى ودورانه في هذه الاحرف او هذه الاصوات .

هذا مارأه الشدياق في سوء الترتيب لمواد المعجم القديم ، وما اعتقده من خطوات تكفل اصلاح سوء الترتيب هذا .

- اما الجانب الثاني : ترتيب المشتقات او الصيغ في المادة الواحدة فيعتقد الشدياق ان ما اصاب اللغة من اضطراب ، ناتج عن عدم التزام اللغويين نظاما معيناً في هذا الشأن وعن قصورهم في تحديد الهدف .

ويرى ان ما اصاب الالفاظ والمشتقات من خلط ، خير دليل على هذا الاضطراب . فهو يقول :

" ان من اعظم الخلل واشهر الزلل في كتب اللغة جميعاً ، قديمها وحديثها ، ومطولها ومختصرها ، ومتونها وشروحها ، وتعليقاتها وحواشيها ، خلط الالفاظ الثلاثية بالالفاظ الرباعية والخماسية والسداسية ، وخلط مشتقاتها . فربما رأيت فيها الفعل الخماسي والسداسي قبل الثلاثي والرباعي . او رأيت احدهما في الفعل في اول المادة وباقى معانيه في آخرها .

ويمجب الشدياق - اشد المجب - من ان احداً من المصنفين وكتاب الشروح والحواشي لم يتنبه لهذا الخلط اللغوي الناتج عن خلط الالفاظ ومشتقاتها .

ويرد الشدياق ، هذا القصور الى البلادة والفقر العلمي حيث يعمى ايثار التقليد على الاجتهاد سنة البحث والتأليف .

وبزید فی تبيين هذا الاضطراب ، فيرى انه عائد الى انحصار اللغويين
القدامى في جمع الالفاظ فقط ، دون ان يراعوا مستلزمات الجمع من " الترتيب
والانتظام ووضع كل شيء في محله " (١) .

طريقة الشدياق في ترتيب المعجم :

يطرح الشدياق ، بعد هذه المقدمة من الانتقادات فكرة الترتيب
المعجمي عنده ، غير انه ينبه قبل طرح الفكرة الجديدة ، الى وجوب الاخذ
بما جاء في كتب اللغة ، وذلك لتحقيق غايتين ،
- الانتفاع من القراءة في هذه الكتب .
- للانتفاع في التأليف للمستقبل .

وهو ما قلنا عنه في بداية البحث ، ان طريقة علمائنا في القرن الماضي
كانت تسمى الى تحرير اللغة من روابطها القاسية ، وتجديد دمعها ، وذلك
عبر شمار : " اولى خطى التجديد قتل القديم بحثا " .

ولنستمع الى الشدياق في رأى له حول كيفية النظر في مواد المعجم
القديم :

" ولهذا انصح مطالعي كتب اللغة ان لا يقتصروا على فهم اللفظ في
موضع واحد . بل لابد لهم ان يطالعوا المادة من اولها الى آخرها . لاجرم
ان هذا التخليط والتشويش في ذكر الالفاظ ليذهب بصبر المطالع ، ويحرمه
من الفوز بالمطلوب فيعمود حائرا باثرا . فاذا رأى المطالع ان المادة تملأ
صفحتين او ثلاثا عاد نشاطه ملالا ، وجده كلالا ، فربما تصفح المادة كلها
او اخطأه الغرض . بخلاف ما اذا كانت الافعال مرتبة على ترتيب الصرفيين ،
فانه ينظر اولا الى الفعل الثلاثي ومشتقاته في اول المادة ، والى الخماسي
والسداسي ومشتقاتهما في آخرها ، والى الرباعي ومشتقاته في وسطها . فلا
يضيع له بذلك وقت .

ثم يقول :

(١) الجاسوس ، الشدياق ص ١٠ و ١١

(٢) = = ص ١١ و ١٢ .

"ولا بأس أيضا بان توضع حبال المواد الغزيرة رقم بالهندي على

الحاشية فيوضع رقم (٣) مثلا قبالة الفعل الثلاثي ، (٤)

قبالة الفعل الرباعي وهكذا " . .

وانسجاما مع رغبته في الوصول الى نسق افضل ، يعمدنا من الاضطراب والتكرار في ذكر المادة ومشتقاتها ، ويقل حرص المؤلف والقارى في الوصول الى كل معاني الالفاظ والاطلاع على اصل وضعها وحكمة مبناها ، يجرى الشدياق في كتابه " سر الليال في القلب والابدال ، على هدى منهج ليس فيه من نسق القدامى شيء " . رغم انه يرى في مخالفة ما اجمع عليه بدعة .

هذا النسق الذى ارتضاه لنفسه ، والذى يقوم على نظرية " المضاعف الثنائي " ، يهدأ بالمضاعف ثم الاجوف الواوى والبياني ، ثم بالمهموز . فاذا لم يكن الاجوف فانه يذكر المهموز (١) .

ولا يخفى ، مالحذانية الصوت من اثر في تقرير المنهج عند الشدياق ، واخذه من ثم ، للمضاعف كقاعدة متأتية عن ذلك .

" فاقول ان من شاء ان يطلع على سروض الافعال وتناسب بعضها - - - ببعض واصل مبانيها وكنه معانيها فلا يرى محيصا عن الاقرار بان الابتداء بالثنائي المضاعف على نسق كتابي سر الليال في القلب والابدال بقطع النظر عن قلب الافعال هو المتكفل بجميع هذا وحسبك شاهدا على ذلك هذا المثال . وهو ان تبتدى " مثلا بفعل فت وهو حكاية صوت فيظهر لك منه معنيان وهم - - - الانكسار والانفتاح والاول مستلزم للثاني بالضرورة فان كل ما انكسر انفتح ثم تأخذ بعده فتا كمنع ومعناه كسر واطفا وفتى " عنه كسمع نسيه فكأنك قلت انكسر عنه ومنه قولهم مافتى " زيد يفعل فان فعل المكسور العين كثيرا ما يأتي مطاوعا لفتوحها ولا سيما فيما كان متضمنا معنى الكسر والقطع فانهما متلازمان (٢)

وهو يقول في هذا الصدد : " لعمري ان من لم يكن يدري شيئا من لغة العرب فاذا سمع مثلا لفظة طنطن ودندن وجلجل ورثم وكان ذا ذوق سليم فلا بد وان يتوهم انها حكاية اصوات (٣) .

(١) الجاسوس ، الشدياق ، ص ٦٠٧

(٢) سر الليال ، الشدياق ، ص ٢٥ وما بعدها .

وعلى هذا الاساس الصوتي ، يكون الترتيب هادفا الدلالة على المعنى الاصيل - حسب رأيه - بغية تبين اسرار الوضع " والكشف عن خصائص اللغة " .
ان من شأنه ان يطلع على سروض الافعال وتناسب بعضها ببعض . واصل مبانيها ولكنه معانيها فلا يرى محيصا من الاقرار بان الابتداء بالثنائي المضاعف على نسق كتابي سر الليال في القلب والابدال ، بقطع النظر عن قلب الافعال هو المتكفل بجميع هذا " . (١) .

كما يقول في موضع آخر من الكتاب : " . . . فهذا النسق هو الذي يكشف عن سروض الالفاظ ونسبة بعضها الى بعض " . وهو الذي اختاره الزمخشري وبنى عليه الاساس . واقتدى به صاحب المصباح . والسابق الى ذلك ابن فارس فسي المجلد رضي الله عنهم اجمعين " (٢) .

ومما لا ريب فيه ، ان هذا الترتيب ييسر لنا الوصول الى المعنى ، ولا يدفمنا بالتالي الى البحث عن اصل المادة في المزيد وفي المعرب او الاعجمي . الامر الذي اتعب اللغويين الذين اعتمدهوا في الترتيب اوائل المواد واواخرها . فقد كانوا يختلفون في تحديد الاصل . ومن هنا كانوا يوردون اللفظة الواحدة في موطنين باعتبار انها قد ترد الى اصليين لغويين متساويين في الدلالة . او لم يستطع اللغوي ان يقرر اي هذين هو الاصل .

يقول الشدياق :

" ونظير هذا الخلل في ترتيب الالفاظ ايراد الجوهرى (ترجم) ،
(الترجمان) في " رجم " وحقه ان يذكر في مادة على حدتها . لانك اذا جعلت التاء مزيدة كان الترجمان ، على وزن تفعلان (وترجم) على تفعمل . وكلاهما مفقود .

" ثم ان اعتبار هذه الزيادات لغوى الامام " ابن سيده " والامام النواوى " باشتقاق (الاندلس) من مادة (الدلس) وهو الظلام .

ويضيف فيقول :

(١) الجاسوس ، الشدياق ص ٨٦

(٢) = = ص ٩٠ .

"واقرب من كل غريب لاعتبار المصنف والصفاني الههزة في (ايجد)
زائدة ولذا ذكرها في (بجد) فكيف تكون زائدة وهي اولى الحروف (١) .
اما البستاني فقد اقتصر عمله على المعجم ، ملتزما طريقة وضع المادة ،
من الفعل الثلاثي المجرد ، ثم حسب الحرف الاصلي الاول ، ثم تأتي باقي
المشتقات . وسأتي على ذكر هذه الطريقة في فصل خاص حين نتكلم عن
معجمه محيط المحيط .

وهكذا الشرتوني ، الذي اتبع طريقة سلفه . او ما صرح به هو في
مقدمة معجمه "اقرب الموارد" انه اتبع طريقة المجل وما شاكله من حيث
ايراد الالفاظ باعتبار اصولها "وهو ما سأتي على ذكره بفصل خاص .

ثالثا - التقصير في شرح المواد :

حاول البستاني ان يني شروح الالفاظ ، بما اضافته من معانسي
جديدة استعدها من مطالعته الغزيرة لكثير من المعاجم الاوروبية ، او
المعاجم المقارنة بين العربية واللاتينية لفوليوس وفريثغ مثلا ، او بما قام به
من مقابلات ومعارضات بين المعاجم العربية القديمة وكتب اللغة .
ورغم ذلك كله ، بقي "محيط المحيط" دون بلوغ الغاية المرجوة
منه . ولعل الشرتوني في "اقرب الموارد" كان اكثر منه عوا في تطوير الشرح
وتوسيع معانيه ، رغم بقاءه في حيز التقليد اجمالا .

وما اورده الشدياق عن القصور قوله :

"ومن هذا القصور تعريفهم لفظة بلفظة اخرى من دون ذكر
"الفرق بينهما بالنظر الى تعديتهما بحرف الجر . كقول
"الجوهري مثلا : الوجمل الخوف ، ومثلها عبارة القاموس والمصباح
"مع ان وجل يتعدى بمن وخاف يتعدى بنفسه .

"وقوله ايضا الجنف الميل ، وقد جنف بالكسر يجنف جنفا . ومنه
"قوله تعالى : فمن خاف من موص جنف . وهو يوهم انه يقال :
"جنف عنه وعليه واليه ، كما يقال مال عنه وعليه واليه . وعبرة
"المصباح جنف جنفا من باب تعب وظلم ، وهو يوهم انه يقال :
"جنفه . كما يقال : ظلمه . وعبرة العباب : الجنف الميسل
"والجور والمدول . " ١٠

رابعا - الغموض في التعريف :

استمرى غموض عبساسة المعجم القديم ، انتباه الشدياق ، فطالب
بوضوح التعاريف ، وانتقد ما جاء فيها من ليس وتعمية ، وقد ارجع اسباب ذلك
الى الجهل او الغفلة او الاعمال .

ويلوم الشدياق المعجميين القدامى الذين لم يتحاشوا قضية مثل
هذه بشي " من الفطنة والذكاء او من الجدة والمثابرة .

ويورد في سبيل ذلك ، بعض نقود ، تتم عن عمق لغوى ، ونفاذ بصيرة
في شؤون المعجم . فقد رأى ان اعتماد المؤلف القديم على معرفة الناس
للتعريفات ، او نقله من غيره دونما تحقق ، او الكفائه بنقل الالفاظ من الكتب التي
نقل عنها ، دون تفسير للمادة ، ظنا منه ان ايرادها دون تفسير يقلل له
الايجاز ، وان المطالع لها لا بد وقد اطلع عليها في غير كتابه .

"نشأ هذا الخلل في القاموس ان مصنفه كان يرى هذه الالفاظ مفسرة
في الكتب التي نقل منها فاورد ها من دون تفسير اما لتوهمه ان المطالع قد
اطلع عليها قبل مراجعة كتابه او انه يحرفها من سياق عبارته . (٢) .

(١) الجاسوس ص ١٢

(٢) الجاسوس ، ص ٣٤٩ وما بعده .

هذا ، وقد اضاف الشدياق نقدا جديدا على النقود السابقة ،
مستهدفا به قاموس الفيروز ابادى بما اسماء الشمول للالفاظ التي استعملها
الادباء والكتاب . وكل من اشتهر بالتأليف ، وهو مطلب يقوم اولا وقبل كل
شيء على الاحصاء الدقيق .

وكل ما يطلبه الشدياق من المؤلف هو الا يخلط بين مسائل اللغة
ومسائل "دوائر المعارف" او الكتب العلمية ، فيضيع في القواميس ما حقه
ان يكون في غيرها .

ولعل هذا للنقد موجه الى المستلني ، الذى اضاف الى المعجم
القديم كثيرا من المصطلحات العلمية والتقنية واسماء المدن والاعلام وغير
ذلك .

هذا ، وقد ذكر لنا الشدياق مسائل كثيرة لا يكون محلها كتب
اللغة . جاءت في بعض هذه الكتب القديمة .

"ومن دأب المصنف - سامحه الله - التهاافت على الالفاظ التي
اختلف فيها المفسرون ، وجعلها من كلام العرب لقوله في جزأ وجعلوا له
من عباده جزءا الى اثلاثا " .

ويتابع فيقول "ونظائر هذا كثيرة ، التصدى لها في كتب اللغة
فضول كما قال المحشي " (١) .

اما المعاجم ، ففي الفصل التالي .

(١) الجاسوس ، ص ٥٠ = ٥٢ .

الفصل الثالث

معاجم القرن التاسع عشر

في لبنان

١- معجم "محيط المحيط" ومختصره "قطر المحيط" للمؤلف: بطرس البستاني (١)

(١) - بطرس البستاني : ١٨١٩ - ١٨٨٣ م .

ولد بطرس البستاني عام الف وثمان مئة وتسعة عشر في قرية "الديبة" تعلم في صغره ، على طريقة رجال العصر الماضي ، في مدارس السنديانة ، على يد الخوري مخايل البستاني ، كاهن القرية ومعلم اولادها . ثم ارسله المطران عبد الله البستاني ، راعي ابرشية صور وصيدا ، الى مدرسة عين ورة بكسروان ، حيث تلقى فيها فنون الادب في لغة العرب ، من صرف ونحو وبيان وعروض ومنطق ، واخذ بقسط وانمو من علم الفلسفة واللاهوت الادبي والنظري ، ومبادئ الحق القانوني . كما تمكن من اللغة السريانية ، وعرف اللاتينية والاطالية . تعرف عام ١٨٤٢ على بعض المرسلين الاميركان ، من دعاة المذهب الانجيلي فواثقهم على العمل . يعلمهم العربية ، ويترجم لهم الكتب بها ، ومن الذين تعرف عليهم من هؤلاء الدكتور كرنيلوس فاندريك ، وصار البستاني انجليا ، فكان من مؤسسي الطائفة الانجيلية في بيروت . اعان فاندريك المذكور على انشاء مدرسة في عبيه ، ثم عمل مترجما في قنصلية اميركا ، ثم انصف بعدها الى التأليف والترجمة ، عمل مع الدكتور عالي الميث في ترجمة جل اسفار التوراة . وقد درس من اجل ذلك ، العبرانية واليونانية والارامية . ثم اشترك مع لفيف من اخوانه ، كفاسيف اليازجي ويوسف الاسير ، في مساعدة فاندريك على ترجمة البقية من اسفار الكتاب المقدس . ثم اخذ بالعمل في مادة قاموسه من محيط المحيط ومختصره ، فبدأ به ، ثم اخذ يعد النفس الى انشاء دائرة المعارف . طبع اول نشرة عوممة ظهرت في سوريا في سنة ١٨٦٠ ، سماها "نفي سوريا" وفي عام ١٨٦٣ انشأ في بيروت مدرسة عالية سماها "المدرسة الوطنية" وفي عام ١٨٧٠ انشأ مجلة علمية ادبية سميها "الجنان" .

اصدر بطرس البستاني ، هذا القاموس في جزئين ، فرع من الجزء الاول (١)
في ٢١ تموز ١٨٦٦ / ١٢٨٣ هـ . ومن الجزء الثاني (٢) في ١٢ تموز ١٨٦٩ /
١٢٨٦ هـ .

ولم يبين الدافع المباشر ، الذي حدا به الى تأليف هذا المعجم الكبير ، كما
لم يمهّد لهذا العمل بدراسة نظرية ، كما فعل الشدياق في " الجاسوس على
القاموس " مثلاً . وانما اكتفى بمقدمة وجيزة ذكر فيها مصادر دراسته التي قامت على
ما في محيط الفيروز ابادى ، بشكل رئيسي ، ثم مآد له من زيلوات كثيرة وجدها في
كتب السلف والمعاصرين ، وما يحتاج اليه القارى . - في عصره - من اصطلاحات
العلوم والفنون .

يقول المؤلف في مقدمة الجزء الاول من المعجم :

" ولما كان هذا المؤلف يحتوى على ما في محيط الفيروز ابادى الذى هو اشهر
قاموس للعربية من مفردات اللغة وعلى زيادات كثيرة عثرنا عليها في كتب العلوم
القدم ، وعلى ما لا بد منه لكل مطالع من اصطلاحات العلوم والفنون سميناه بمحيط
المحيط " . (٣)

..... - انظر بطرس البستاني :

- ١- تراجم مشاهير الشرق ، جرجي زيدان ، ص ٢٩ .
- ٢- مصادر الدراسة الادبية ، يوسف دلفر .
- ٣- المسلم بطرس البستاني ، ميخائيل صوايا ، ص ١٨ وما بعدها .

(١) يبدأ بباب الهمزة ، ص ٣ ، وينتهي بحرف الشين ، مستغرقا ١١٥١ صفحة
قطع كبير .

(٢) يبدأ بباب الصاد ، ص ١١٥٢ ، وينتهي بحرف اليا ، مكتملا ب ٢٣٠٧ صفحة
قطع كبير .

(٣) من مقدمة الجزء الاول ص ٢ .

غير ان البستاني مالبث ان ذكر الدافع ، الى عمله هذا في معجمه الثاني (المختصر) " قطر المحيط " حيث قال : " ٠٠٠ فلما كان احيا اللغة العربية التي هشمتم اياى الزمان ، وحالت دون نور حياها الساطع ودون اهلها براقع الهجر والجهل والنسيان ، فرضا على كل من نطق بالضاد ، وكان امر تحصيلها وتسهيل اسبابه من مرفويات من اتصف بالحماسة الوطنية والحمية العربية ، رأينا ان نضع فيها هذا المؤلف على وجه هين المراس ، سهل المأخذ ، ليكون للطلبة مصباحا يكشف لهم عما اشكل عليهم من مفردات اللغة التي معرفتها عند المحققين هي نصف العلم لان افادة العلم واستفادته تتوقفان عليها (١) .

ويبدو من النص ان بعث العربية ، واحيا تراثها ، هدف البستاني اولا وآخرا ، ورغبة منه في تيسير المادة اللغوية لابناء العربية ، والطلاب خاصة .

ولعل رغبته الاخيرة في تسهيل الامر على الطلبة ، هي التي دفعت من بعد ، لعمل مختصر سماه " قطر المحيط " كي يمكنهم من تناول المادة المطلوبة باقرب سبيل ، ويحقق بالتالي طلبتهم في البحث العلمي .

وقد اهدى معجمه " محيط المحيط " للحضرة الشاهانية ٠٠٠ السلطان عبد العزيز خان " (٢) .

— مصادر ومعجم البستاني : —

ذكر المؤلف في مقدمة الجزء الاول ، ما انطوى عليه المعجم من مادة استفادها بشكل رئيسي ، من " محيط الفيروز ابادى " مضافا اليها ، ما وجد على المجتمع من علوم ومخترعات ، استلزمها الحياة الجديدة ، مما يحتاج اليه القارى في القرن التاسع عشر وعصر النهضة .

(١) من مقدمة قطر المحيط .

(٢) من مقدمة الجزء الاول (محيط المحيط) .

مادة معجم البستاني ،

يبين البستاني مادة كتابه على أنها تحتوى " على ما في محيط الفيروز آبادى ..
من مفردات اللغة ، وعلى زيادات كثيرة عثرنا عليها في كتب العلوم وعلى ما لا بد منه
لكل مطالع من اصطلاحات العلوم والفنون " .

ويتابع في تبیان ذلك في خاتمة باب הרא من الكتاب فيقول :
" وقد أضفت الى اصول الاركان فروعاً كثيرة ، وتفاصيل شتى ، والحقت بذلك
اصطلاحات العلوم والفنون ، وكثيراً من المسائل والفوائد والقواعد والشوارد وغير ذلك
مما لا يتعلق بمتن اللغة " .

ويكمل هذا القول في خاتمة " قطر المحيط " متحدثاً عن المحيط :
" وقد أدرجنا فيه كل ما قدرنا ان نقف عليه من مفردات اللغة واصولها
وفروعها واصطلاحات ... وكثيراً من كلام المولدين ، واللغة الدارجة ، ورصعناه
بالشواهد من القرآن (الكريم) والحديث (الشريف) والشعر وامثال المرب الى
غير ذلك من الفوائد والنوادر والشوارد ما لا غنى عنه للمطالع " (١) .

من كل ما تقدم ذكره ، يتبين ان هذا المؤلف ، قد احتوى على الكثير من النوادر
والفوائد مما جعله يقول عنه " محيط المحيط " .

— نسق المادة في " محيط المحيط " —

التزم البستاني في وضع المواد طريقة اعتبار الحرف الاول — وحده — من
المادة الاصلية للثلاثي المجرد ، ثم قسم الباب الى فصول ، سالكا مسلك الزمخشري
في " اساس البلاغة " ، في تنظيم مواد المعجم حسب الحرف الاول والثاني والثالث
قالرابع من حروف المادة الاصلية .

(١) من خاتمة " قطر المحيط " .

فـ " اذا شئت كشف لفظة " فاذا كانت مجردة فاطلبها في باب اول حرف منها ، واذا كانت مزيدة فجردها اولا من الزوائد ، ثم اطلبها في باب اول حرف منها ، واذا كان في الكلمة حرف مقلوب عن آخر فاطلب تلك الكلمة في مكان الحرف الاصلي المقلوب عنه (١) . "

هذا ، وقد استهل كل باب بتمريف عام للحرف الذى هو بصدد ، حدد فيه موقع الحرف من الالفيا ، واسمه في العبرية والسريانية ، واحوال نطقه عند العامة ، وقدره في حساب الجمل . . . فالحـ " مثلا . . (الحـ " وتقتصر الحرف السادس من الحروف الهجائية ، وهو في العبرانية والسريانية جـث ومعناه حائط لان صورة سماء بالفينيقية تشبه الحائط والحـ " في حساب الجمل عبارة عن ثمانية من العدد " (٢) .

الصرف في معجم " محيط المحيط " :

بدأ البستاني محاولة منهجية ، في التزام طريقة الترتيب ، لكنه لم يكملها ، فقد حاول مراعاة تسلسل انتقال المادة من الفعل الى المصدر الى الوصف . . . دون ان يأخذ وجهة محددة ، فكثيرا ما كان يقدم ويؤخر بدون ضابط ، متصرفا فسي ترتيب الالفاظ في داخل المادة ، كما يشاء . غير انه راعى طريقة ضبط بنية الكلمة ، واحوال تغيرها من مفرد الى تثنية فجمع . كما ظل وفيما بوضع الفعل الثلاثي المجرد فالمزيد . . وهكذا . .

٢ - ضبط بنية الكلمة :

لم يفكر البستاني علامة اورمزا لاهواب الاوزان الستة ، مما جعله يذكر الماضي مع رسم الشكل احيانا ، ضمنا للالتباس ، وايراد المضارع بعده ، موسوم العين واللام بالحركة المناسبة ، مصرحا بالحركات على طريقة الفيروز ابادى مع اهمال طريقة التمثيل ، لقوله في مادة " د ش " :

(١) من المقدمة ، تحت عنوان ، فائدة .

(٢) انظر باب (الحـ ") .

دش فلان يدش دشاً . . دون ان يذكر رمزاً يشير الى ان الفعل من باب نصر ، فيعني نفسه من ذكر مضارعه .
 واذا سمع للفعل الثلاثي وزنان ، فانه يذكرهما مع ذكر مضارعهما . كقوله
 في مادة : "رغد" . رغد عيشه يرغد رغدا
 ورغد يرغد رفادة طاب واتسع .

ب - الصيغ

يقول البستاني في خاتمة حرف الراء :
 "ولاجل التسهيل على الطالب ميزت بين الافعال والاسماء وبين المجرد والمزيد من الفريقين" كل نوع على حدته مندرجا مع نظيره من الابنية " (١) .
 لكن البستاني لم يحقق ما ذهب اليه من وعد ، بل كثيرا ما ينقل المادة ، مرتبا الفاظها حسب ما يتهيا له من ترتيب ينطبق مع منهجه مرة ، ومع محيط الفيروز ابادى مرة ثانية ، وهكذا حيث يقدم ويؤخر بدون اى ضابط .
 اما الجمع فقد قلد فيه رمز صاحب القاموس . فللجمع (ج) وللجمع الجمع (جج) .
 اما المتنى فلا يذكر الا ان يكون للثنين في الاستعمال شأن خاص . وهذا شأن المعاجم القديمة .

مصطلحات الشكل عند البستاني

اتبع البستاني في رسم هيكلية الصفحة شكل جدولين ، يقسمانها الى يمين الصفحة ويسلوها كلمة عن يمينها ايضا تشير الى الكلمة الاخيرة في جدولها ، ويسار الصفحة ويعلوها كلمة عن يسارها ايضا ، تشير الى الكلمة الاخيرة في جدولها .
 (عمود عن حرف الالف)

(١) من خاتمة حرف الراء ص ٨٤٧ .

نقد وتعليق

تعرض معجم "محيط المحيط" للبستاني ، لموجات نقدية عارمة ، كان اغنيها حملة احمد فارس الشدياق على الكتاب ، والجدير بالذكر ان الشدياق لم يصرح بهذا النقد بشكل مباشر ، وليس هذا عن خوف من البستاني ، وانما عن ترفع وزهو . فقد عمد الشدياق الى انتقاد كتاب " القاموس المحيط " للفيروز ابادي وهو الكتاب الام السذي استقى منه البستاني كل مادته تقريبا ، وقد تمثل هذا الانتقاد في عمل معجمي كبير سماه " الجاسوس على القاموس " .

وقد وصف هذا العمل غير المباشر ، مارون عبود بقوله :

" ولا اكتمك عنا ان الشدياق انتقد قاموس الفيروز ابادي ليهدم محيط المحيط الذي انتقد فيه البستاني على القاموس . فاصاب عصفورين بحجر واحد " (١) .

كما عمد الاب استاس الكرمل الى نسخة من الكتاب " تقع في خمسة مجلدات و اضاف الى كل جزء قوائم بيضا " بعدد قوائم الاصل ثم حشاها بزياداته ومستدركاته مما فات البستاني " (٢) .

" ونبه ايضا على ما في الكتاب من اوهام واغلاط ، وهي على مايقول كثيرة جدا ، واول غلط وقع فيه البستاني ، حسب رأى الكرمل - تسمية كتابه . فمن رأى الكرمل ان يقال " المحيط بالمحيط " لان الصحيح احاط بالشيء لا احاط الشيء " (٣) .

هذا ، وقد نبه ابراهيم اليازجي على غثات فغل عنها البستاني ايضا ، في الكتاب ذكرها بشكل تعليقات على حواشي ، الكتاب بالقلم دون ان يطبعها . وقد جمعها المؤلفان سليم شمعون وجبران النحاس في كتاب لم يصدر من اجزائه الا باب الهزمة فقط ، في مائة صفحة قطع كبير .

وسنأتي على ذلك بذكر النقد المعجمي ، بالتفصيل ، لكننا نورد ، هنا مثالين من امثلة نقد اليازجي هذه :

(١) صقر لبنان ، مارون عبود ، ص ١٤٢ .

(٢) انظر ، مقالة لمحمد رضا الشبيبي ، مجلة المجمع (القاهرة) ٩٢ / ١٩٥٧
صفحة ٤٢ .

(٣) نفس المصدر .

صفحة	جدول	سطر
٢٣	١	٢ - (البلية) في المتن ، (والالية البلية)
		اه . وانما الألب لغة في اليلب وهي
		الترسة والدروع الخ . . واحدها الالة
		ولا معنى لليلة هنا .
٢٤	١	٢٤ - مأبر : في متن المحيط ، والمثير والمثار بيت
		الابرة ، والتميمة وانساد ذات البين وما يلقح
		به النخل وما رق من الرمل ج مأبر ، اه .
		كتب الشيخ ابراهيم على الهامش : " ومأبر
		ولثير من هذه المادة لم يذكر في القاموس
		ولا الصحاح . . اه .
		" التنبيه على مأبر لانها جمع المثير فقط واما
		المثار فالقياس ان تجمع على مأبر .
		- لارب ، ان مؤلف محيط المحيط للبستاني ، كان نواة معجم عصرى جديد ،
		فيه الكثير من مآمن العثار . وتلافي كثير من عيوب المعاجم القديمة ، مما لا يجوز نكرانه
		باى حال من الاحوال .
		ويمكننا ايجاز حسنات هذا المعجم الكبير بالنقاط التالية :
		١- سهولة التعبير في الاسلوب ، ووضوح الدلالة في تركيب العبارة ،
		حيث اعتمد البستاني لغة استجمع فيها شتات اللغة واستندنى اليه
		شواذها على اسلوب لين وماخذ سهل . بما سوى بين المعالم والجاهل ،
		والمنتهى والمبتدى في التناول منه .
		٢- اسقاطه للمهمل من الاستعمال ، ومالم يتداوله الناطقون بالضاد .
		ايماناً منه ان تلك الثروة الواسعة مما خلفه العرب ، والذي بات في حكم
		المهمل ، يجب ان يصير الى مخزونات أمات المعاجم الكبرى : فلكل عصر
		لغة ، ولكل زمان بيانه وذوقه .

٣- تركه لكثير من المترادف ، مما نتج او ينتج عن تضارب اراء العلماء فيه ،
فكل مترادف غريب ، قاسم مهجور او لفظ ثقيل على اللسان ، لم يجد أية
فائدة من الاحتفاظ به ، كان يسقطه .

٤- قلما اهتم للاضداد ، كانه رأى فيها مضيعة للوقت ، والاهتمام بها ضرب
من الثعنت وارهاق الذهن فيما لاجدوى من ورائه .

٥- قلّة اكتراثه للفروقات اللغوية ، فهي - برأيه - وان دلت على دقة
تصور البدوى ، وفسحة خاطره ، فانها تحمل رواد هذه اللغة على ان
ينقلبوا عن موردها ثافرين ، ولا سيما في هذا العصر ، الذى ازدحمت فيه
الحاجات وضائق وجوه الارتزاق واصبح الناس اميل الى تعلم احمدى
اللغات الحية في اسرع ما يمكن الوقت .

٦- كما اوضح اصل كلمات عديدة ذهل اللغويون عنها ، او جهلوا اصلها ،
واشار ايضا ، الى اصل كثير من الكلام المعاصي فائدة للاعاجم الذين
يقبلون على درس اللغة العربية .

لذكره مثلا "الخرجة (قطعة من البناء حولت الى الخارج) .
" الدبافة (موضع الدبافة) .

" المرجوحة (مهد يعلق لينام فيه الطفل) .

" السارقة (منشار صغير له نصاب كالسكين) .

" الشقفة (القطعة من كل شي " و " صفن ") بهت

كالمفكر في امر) . وغير ذلك

٧- وشرح اصول بعض الالفاظ الاعجمية ، وجمع شيئا كثيرا من اصطلاحات
المعلوم والفنون المختلفة الداخلة في اللغة مع المعربات .

٢- معجم " اقرب المواد في فصيح العربية والشوارد " للمؤلف : سعيد الشرتوني (١) .

انتوى سعيد الشرتوني اصدار معجم في قسمين كبيرين :

(١) سعيد الشرتوني : ١٨٤٩ - ١٩١٢ م .

١٢٦٥ - ١٣٣٠ هـ .

ولد سعيد عبد الله الشرتوني عام الف وثمان مئة وتسعة واربعين في قرية " شرتون " تعلم متأخرا في سنة ١٢٩٠ في سنه عند المرسلين الاميركان في " عبيه " عام ١٨٦٢ وبعد عامين انتقل الى مدرسة " سوق الغرب " فاتم دروسه فيها وكان للحظ المحلة الكبر الاثر في حياته ، فهي المدرسة الاولى التي تخرج منها الكاتب . امتحن في التعليم في مدارس الالباء اليسوعيين ضيلة ١٥ عاما ، وكان قد تولى تصحيح مطبوعات اليسوعيين نحو ٢٢ سنة . لم يكن يفتر فيها بحكم الضرورة وعامل الرغبة من مواصلة البحث والتنقيب في اسفار اللغة العربية .

صرف بقية عمره ، باحثا منقبا ، لفائدة ابنا العربية ، واحيا ما طهر من مسالم اللغة ، وظل يؤلف وينشر المقالات في الجرائد والمجلات حتى وفاته في عام ١٩١٢ م .

- انظر سعيد الشرتوني :

١- الاعلام للزركلي طبعة ثانية ، ج ٣ ص ١٥١ .

٢- المقتطف م / ٤١ / ص ٢٢٥

٣- الآثار م / ١٠٥ /

٤- المششرق م / ٢٤ / ص ٢٤٢ .

الاول : في مفردات اللغة الصرفية .

الثاني : في المصطلحات العلمية والكلم المولد والاعلام .

غير ان المؤلف لم يصدر الا القسم الاول مستدركا اياه بـ " ذيل " .

اما القسم الثاني فلم يعدره ولا ندري السبب في ذلك .

وقد استغرق القسم الاول مع الذيل ، اثنين وخمسين والفى صفحة من القطع

الكبير ، توزعت على ثلاثة مجلدات ، جمع المجلد الاول والثاني تحت عنوان " معجم

اقرب الموارد الى فصيح العربية والشوارد " وجعل المجلد الثالث تحت عنوان " الذيل

كملاحق للمعجم .

أ - مجلد القسم الاول :

صدر المجلد الاول منهما بمقدمة " وسبعة مقاصد " تحدث فيها عن منهج

الكتاب وما ارتضاه لنفسه من تنظيم . رجا منه فائدة الدارس مع تهيان الدافع الذى حدا

به الى القيام بتأليف الكتاب .

وقد تضمن القسم الاول هذا ، بمجلديه ، على " مفردات اللغة الصرفية ، مع

ذكر شي " من مصطلح المروض ونزرا لا يحفل به من الالفاظ المولدة والاعلام ذهابا مع

عادة السلف من مؤلفي اللغة رحمهم الله " (١) .

ب - الذيل :

صدر المؤلف هذا الملحق ، الذى استدرك به القسم الاول من المعجم ، بثلاثة

مقاصد موسما بها دائرة العمل الذى بدأه . فجعلها كما قال في مقدمة كتابه (٢) :

- الاول : ماكنت قد اعطته وذهلته من الكلم الوارد في كتب اهل اللسان .

- والثاني : كل ماند عن التدوين مما افلته اقلام العلماء من اصحاب الشأن ،

وهو الضوال التي من الله علي بها باستدراكها على المتقدمين

في العلم والزمان " (٣) . وقد استخرجها المؤلف من تصانيف

البلغا " ودواوين الشعرا " ومن كتب اللغة التي عنيت في مثال

هذه البحوث (٣) .

(١) من مقدمة الجزء الاول " اقرب الموارد " ص ٦ .

(٢) من مقدمة الذيل ص ٤ .

(٣) المعاجم العربية ، عبد السميع احمد ص ١٦٩ .

وانظروا المعجم العربي الكتاب القيم . للمؤلف الدكتور حسين نصار . / .

- والثالث : اصلاح ما آدب اليه الاطمنان الى القاموس وغيره من الالفاظ

• اللغوية

هذا ، وقد ختم " الذيل " بجدول مطول يقع في اربع وتسمين صفحة كبيرة
ضمنها بحثا يتناول على بيان الاغلاط التي وقعت في معجمات المتقدمين مع اصلاحها ،
كذلك الاغلاط الواردة في معجم الاساس والتاج والقاموس المحيط • معتمدا في تصحيحها
على ما نقله من كتب ائمة اللغة والبيان •

ثم يقترح " تذييل كل كتاب من كتب اللغة بذيل يتضمن اصلاحا تاما ••
لما وقع فيه من اغلاط التأليف والطبع وفا " بحق هذه اللغة الشريفة وتعميما للفضل " (١)

اما الدافع على تأليف هذا المعجم الكبير ، فهو كما يقول صاحبه : " نقصان
مكتبتنا العربية لمعجم يضم فرائد هذه اللغة " (٢) •

ويستعرض المؤلف محاولات العرب الاولين في هذا المضمار ، فيرى انهم
قصروا وعقدوا مما جهم • " ففقدوا ما جهم • " ففقدوا ما جهم • " ففقدوا ما جهم •
ازماع بنات • فأنهم الله ليوشكن جلد الناشد ان يتفر قبل الظفر بضالته • ووقفت
الطالب ان يتجرم دون امساك نادته • وهم فوق ذلك لم يكتبوا النظر فروع المواد ،
بل اثوابها كالمتمواري في خمر الواد " (٣) •

فما يؤخذ من عبارته ، انه كان يهدف التيسير وتوفير الوقت على الباحثين
وتدقيق النظر في المواد • " وكان اليسير غرضا هاما لدى المؤلف ، فاقام عنوان المعجم
عليه ، ولأول مرة نرى صاحب معجم يشعر بقيمة الوقت ويريد ان يوفره للباحثين " (٤) •

(١) من مقدمة " الذيل " ص ٥

(٢) من مقدمة الجزء الاول ص ٦

(٣) من مقدمة الجزء الاول ص ٦

(٤) المعجم العربي ، حسين نصار ، ص ٧١٧ •

الا ان الشرطوني ، صرح في موضع آخر من المقدمة ، بسبب الدافع على عمله هذا ، الذي كان استجابة لرغبة المرسلين اليسوعيين في لبنان " الذين سألوه المرة بعد المرة وضع معجم يطلّ بالطالب على طلبته ويواجه المبتدئي ببغيتته ، حرصا على الزمان ان يذهب كلّا " (١) .

هؤلاء اليسوعيون " الذين جذبهم حب هذه اللغة الشريفة وعرفان مرتبتها المستقيمة ، مع اجنبيتهم عنها ، الى ان يفرضوا تعليمها في مدارسهم ، وذلك ليأتي الطالب على اللغة ، ولو مرة في مدة الطلب ، فتتعرف المعاني في ذهنه الى ما يليق بها من الالفاظ ويتعرّس بأساليب اللغويين ، وتترامى له بلاغة كلامهم " (٢) .

هذا ولم يجد الاباء اليسوعيون في كتب اللغويين السابقة ما يحقق اغراضهم التربوية وما " يواجه مقصودهم ، ويشايخ مرادهم ، وذلك لالتزام المؤلفين ذكر الفاظ السوّات وما يتعلق بها " (٣) .

وبهذا ، يكون الشرطوني ، قد استهدف في معجمه " اقرب الموارد " فرضا تربويا بجانب اغراضه اللغوية والعلمية ، حيث تحذف الفاظ السوّات " وما يضاف اليها من الالفاظ المبذّوة رعاية لحرمة الادب (٤) ، غير اننا لانجد هذا التحرج من الفاظ السوّات في " ذيل المعجم " وكان الشرطوني اراده للمتخصصين ، وليس للطلبة ، وهذا ما جعله يأتي على ذكر المادة دون نقصان .

- مصادر معجم الشرطوني ، ومادته :

اعتمد الشرطوني في استقائه مادته ، على مصادر لغوية كثيرة ، وعلى الاخص القاموس المحيط . حيث أجرى عليه بعض التغييرات ، وقد تصرف فيما نقل بالحذف لاسماء البقاع والاهلام والادوية ، وما كان يدخل من توهيمات اخذها صاحب القاموس عن الجوهرى ، كما تصرف في معظم المبارات التي كان الفيروزابادى يضبط بهها الالفاظ ، والمشتقات القياسية ، وبعض المواد والصيغ والمعاني والصفات والمصطلحات وتعليق الاسماء والتنبية على اللحن ، وبعض التفسيرات . فقتصرا على تفسير واحد

(١) من مقدمة الجزء الاول ص ٦

(٢) من مقدمة الجزء الاول ص ٨

(٣) من مقدمة الجزء الاول ص ٨

(٤) = = = = =

او اثنين من التفسيرات الكثيرة المتقاربة ذات الدلالة الواحدة للفظ الواحد ،
مضيفا بعض الصيغ والمعاني والشواهد النثرية والشعرية والاسجاع من اساس البلاغة ،
والاقوال وبعض المرادفات وبعض الكلمات في التفسير لتوضيحه ، آخذ اكثر هذه الزيادات
من تلج المروس ، او اللسان ، او الصحاح .

كما رجع الى " مصباح " الفيومي ، والرافع الاصفهاني ، والمطرزي " ابن فارس
في المجلد " مع اخذ زيادات من معجمي جوليوس وفريتاغ ومحيط المحيط وقطر المحيط
للبيستاني .

- نسق المادة في " اقرب الموارد "

التزم الشرتوني طريقة البستاني في اعتبار الحرف الاول - وحده - من
المادة الاصلية للثلاثي المجرد ، مقسما معجمه الى ثمانية وعشرين بابا ، لكل حرف
من الحروف باب ، وهكذا فعل في " الذيل " ايضا . فباب الهمزة للحركات المبدوءة
بهمزة اصلية ، وباب الباء للمواد المبدوءة بالباء . اصلا وهكذا . . . ثم قسم الباب الى
فصول ، حسب الحرف الثاني من حروف المادة الاصلية ، ورتب المواد في كل فصل حسب
الحرف الثالث ، فالرابع ، فالخامس ان كانت المادة ثلاثية ، او رباعية او خماسية
على التوالي .

" ومع اتصال الشرتوني بالمعاجم الأوروبية ، كمعجم جوليوس وفريتاغ ، واختيار
هذه ترتيب كلماتها ترتيبا يخضع لهجائها ، فان الشرتوني ، عاد باختياره للكلمات
الى اصول موادها ، اقتنما لما فطن اليه اللغويون العرب من الصلة القوية بين اصل
المادة ومشتقاتها ومظاهر صورها من جهة ، وللرابطة التي تربط اصل المادة بسائر
فروعها وصورها المنبثقة منها بطرق التنمية اللغوية المعروفة ، في العربية :
الاشتقاق وفهمه من جهة اخرى ، ولان اختيار نهج اللغويين العرب يمين في الحفاظ
على حجم الكتاب المعجمي وصورته ، اذ يحول دون اضطرار الكاتب الى تكرار الحديث
عن المعنى الواحد في اكثر من موضع تبعا لكثرة المشتقات المنبثقة من اصل واحد ،
وتعدد دلالتها على ظلال او صور لمعنى واحد " (١) .

(١) المعاجم العربية ، عبد السميع احمد ص ١٧٠ - ١٧١ .

هذا ، وقد احتذى الشرتوني ، حذو سلفه البستاني ، في طريقة التقديم لكل باب بكلمة عن الحرف المقصود له الباب ، ذكر فيها اقسامه لينة او مهموزة ، وموقعه من الحروف الهجائية ، واستعمالاته ومعانيه ، وقيمه في حساب الجمل . . . غير انه قفل عن ذكر اسم الحرف في اللغات السامية الاخرى .

الصرف في معجم " اقرب الموارد " :

التزم الشرتوني ، التزاما صارما ، بترتيب المادة ومراعاة تسلسلها من المادة الاصلية في الفعل الثلاثي المجرد الى المصدر الى الوصف . . . الا ان بعض المواد جاءت دون تحقيق لهذا ، رغم انه بذل جهده في سبيل جعل الكتاب في نسق واحد .
اما :

أ - ضبط بنية الكلمة :

فقد عنى الشرتوني بضبط المادة ، عناية لا تخلو من جهد ، وخاصة الفعل الثلاثي منها . وقد استخدم لذلك رموزا تشير الى باب كل فعل يذكره ، ليعين تصرف ماضيه ومضارعه .

وهذا هو جدول برموز الابواب او الاوزان الستة في معجمه :

- الباب الاول : باب نصر ينصرف

يفتح عين الفعل في الماضي وضمها في المضارع ، وعلامته (ن)
- مثال دش فلان (ن) دشا : بمعنى انه (دش يدش) يفتح عين الفعل في الماضي ، وضمها في المضارع .

و - ج* الثي* (ن) رجا ، فهو (ج يج) وهكذا . . .

الباب الثاني : باب ضرب يضرب

يفتح عين الفعل في الماضي وكسرها في المضارع وعلامته (ض)
مثال خبز الخبز (ض) خبزا : عمله بمعنى انه (خبز يخبز) يفتح عين الفعل في الماضي وكسرها في المضارع .
...

- الباب الثالث : باب قطع يقطع

- بفتح عين الفعل في الماضي والمضارع معا ، علامته (ع)
- مثال ربيع الرجل ع ربيعا ، وقف وانتظر ، بمعنى انه (ربيع يربح) بفتح العين في الماضي والمضارع معا .

- الباب الرابع : باب علم يعلم

- بكسر عين الفعل في الماضي وفتحها في المضارع ، علامته (ل)
- مثال برشل برشا بالتحريك . بمعنى انه (برشل يبرش) بكسر عين الفعل في الماضي وفتحها في المضارع .

- الباب الخامس : باب كرم يكرم

- بضم عين الفعل في الماضي والمضارع معا ، علامته (ر)
- مثال حلم حلما (ر) بمعنى انه (حلم يحلم) بضم عين الفعل في الماضي والمضارع معا .

- الباب السادس : باب حبيب يحبيب

- بكسر عين الفعل في الماضي والمضارع معا ، علامته (س) وهو قليل
- مثال ورث (س) بمعنى انه (ورث يرث) بكسر عين الفعل في الماضي والمضارع معا .

اما اذا ذكر لمعين الفعل وزنان ، فانه يورد علامتي الوزنين المسموعين لقوله :
« خَرَطَ الورق ن ض خَرَطَا : قشره عن الشجرة اجتذابا بكفه . بمعنى انه
(خَرَطَ يَخْرُطُ وخرط يخرط)

بفتح العين في الماضي وضمها وكسرها في المضارع .

كما قد يرد الفعل مسموعا بتثنية عينه ، فيورد العلامات الثلاث : لقوله :

« سَنَعَ ن ع رسنوعا وسناعة ، بمعنى انه على اوزان ثلاثة هي :

سَنَعَ يَسْنَعُ

وسَنَعَ يَسْنَعُ

وسَنَعَ يَسْنَعُ

هذا الضابط لبنية الفعل ، والكلمة ، جعله الكاتب أساس البدء في تناول المادة ، والتزمه التزاما صارما ، وبشذل ترتيبى للوزن . ولعل هذا ما جعله - احيانا - يقدم الفعل المتعدي على اللازم اذا ورد على وزن نصر او ضرب ، ثم يتلوه باللازم ، لانه يرد من باب علم .

واذا ذكر اسما وعقبه بقوله : " بالضم " نحو (الذرعة) بالضم ، فالضبط لاول الاسم ، واذا عقبه بقوله : " بالتسكين " كان الضبط للحرف الثاني ، لان العربية لاتبدأ بمسائن ، واذا عقبه بقوله : " بالتثليث " او بقوله : " مثلثه " فذلك اشارة الى ان في اول هذا الاسم ثلاث لغات مثل : الطحمة (مثلثة ، من الوادى والسيلى : دفعته ومعظمه . فحرف الطا من هذه الكلمة فيها لغات الضم والفتح والكسر .

وان ذكر الاسم وقال بعده : بالتحريك " او " بحركة " كان المراد فتح الحرفين الاول والثاني ، مثل (السحر) محركة : قبيل الصبح ، ومثل : (الشبر) محركة

وكذلك ، يضبط ، - احيانا - الحرفين الاول والثاني من الاسم بمثل قوله : بضم ففتح ، او بفتح فكسر ، او بفتح فضم .

واذا كانت الكلمة رباعية وعقبها بقوله : " بالتثليث " كان الضبط لاولها - والثاني - مثل : (الطحيرة) مثلثة القطعة من القيم ^{الشم} ، من الثوب

وكذلك يضبط الحرفين الاول والثالث من الكلمة الرباعية ويمثل قوله : " بالضم او بالفتح ، او بالكسر ، اشارة الى اشتراكهما في الحركة .

كما توسل بالمثل احيانا ، لذكر وزن بعض الالفاظ وما يقابلها ، لقوله في مادة علم ، (العلم) كغراب : الصقر . وقوله في مادة (عرب) (العرباية) كسحابة و (العرب) ككتف . وهكذا

ب - الصيغ :

رأى الشرطوني ، في ترتيب مواد ، ورود الصيغ وتسللها الصرفي والنحوي ، بشكل يكاد يكون تاما . فقد التقى بشكل صارم ، تقديم الافعال ، الا اذا كانت المادة لافعل عليها . حيث يتناول الفعل وفق ترتيب الوزن ، من لان ومتعدي ، ومجرد ومتعدي فيذكر المزيد بحرفه ، ثم المزيد بحرفين ، ثم المزيد بثلاثة . ان في الافعال اوفى الاسماء . ثم يذكر - دون ضبط تام - الصيغ الخمسة ، مثل اسم المرة والنوع ومصادر ما فوق الثلاثي ، وجمع السلامة بقسميه ، وكثيرا ما يغفل عن ذلك للمعلم بطريقة اخذها . لقوله في مادة " مَدَّ " (١) :

- مَدَّ الحبل وغيره ورَّهَنَ مَدَّ ايسطه
- (مَدَّه في غيه) اى امهله وطول له .
- (مَدَّد الشيء) تعديدا .
- (مادة) صادة . . ومدادا بمعنى مده .
- (وَاَمَدَه) امهله .

- (وتمادى) الثوب تجاذباه
- (وامتد) انبسط وهو مطاوع مد
- (واستمد)
- (المادة) اسم فعل للمؤنث
- (المادى) نسبة الى المادة
- (الماد) مصدر ماد
- (المدة) بالفتح : المدة
- (المدة) بالكسرة : النوع .

(١) النظر اقرب الموارد ج ٢ ص ١١٩٢ .

حيث بدأ بتصدير الفعل المجرد (مَدَّ) محددًا وزنه ، ثم بفك الادغام

فهو (مَدَد) ثم المزيد بحرف (مَادَ) و (اَمَدَ) ، فالمزيد بحرفين (تَعَدَدَ)

و (اَمَدَّ) فالمزيد بثلاثة (اسْتَمَدَّ) .

فاسم الفاعل ، مكتفيا بالاشارة الى صيغة المؤنث (المادة) فقط ، دون

الاشارة الى المذكر لوضوحه ، وهو من قبيل الاختصار - الذي لزمه المعجم ، ثم فُكِّر

النسبة (المادى) فصدر مَادَ (المَوَادَّ) فصدر مَدَّ (المَدَّ) فصدر المدة (المدة)

فالنوع (المدة) .

وهكذا فعل الشرطوني في المواد الاخرى ، محافظا - تقريبا - على ذات

النسق والترتيب . كما حدد - وقت اللزوم - الجمع وجمع الجمع بعلامتين هما ،

ج " و " جج " وهذه طريقة الفيروزابادى في قاموسه . يقول الشرطوني في مادة عرب

مثلا ،

• "والعرب العربيا" ج اعرب وعروب .

• "والعربون اعجمي معرب ج عرابين .

ومنعا للالتباس يوضح - وقت اللزوم - صيغة الجمع ، محددًا اياها ونوعها

بقوله ، و " اعرابي لا واحد له . وليس الاعراب جمعا لعرب كما كان الانباط جمعـا

لنبط وانما العرب اسم جنس .

اما المعنى فلا يذكره الا ان يكون للاثنتين في الاستعمال شأن خاص (١) .

مطلحات الشكل عند الشرطوني :

اتبع الشرطوني في رسم هيكلية الصفحة شكل ثلاثة جداول ، او اعمدة ، ووضع

فوق كل عمود كلمة . اما الكلمة التي على العمود الايمن فهي التي يبدأ بها ذلك العمود .

واما اللتان على الاوسط والايسر فهما ما ينتهي بهما هذان العمودان .

وهذا ما ييسر التعرف على الكلمات التي تضمها الصفحة بمجرد النظر الى

(٢) .

الكلمة اليمنى واليسرى لان جميع هذه الكلمات تقع بينها في ترتيب الالفبا .

(١) وهذا شأن المعنى في المعاجم القديمة .

(٢) انظر المعجم العربي (حسين نصار) ص ٧١٧ وطبعها

كما وضع المادة التي يريد شرحها أولا بين نجمتين صغيرتين * * * * *
ثم يحصر صيغ المادة بين قوسين (٠٠٠) ، واكثر ما يكون ذلك في اول المطر
الا اذا كانت متصلة بالعبارة التي قبلها ، ولا شك ان هذا التنظيم المقتبس
عن المعاجم القديمة يسهل للمباحث طلبته في سرعة .
كما رمز المؤلف الى الصيغ المكررة بعبارة . - على نسق صاحب القاموس ،
ليتجنب اعادة اللفظ مع معانيه الكثيرة .

كما وضع علامتي تنصيص " ٠٠٠ " كرمز يشير به الى ما تناوله من استشهادات
تأييد بعض كلماته .

- نقد وتعليق -

ساهم هذا المعجم ، دون ريب ، في تطوير العمل المعجمي ودفعه الى دائرة
افضل من التنظيم والعمل الجاد الهادف كما اضاف الى مكتبة التراث ثروة قيمة عظيمة
النفع .
ولئن افاد الشرتوني من تجارب سابقيه ومعاصريه ، فلقد خطا باقرب موارد ،
خطوات تجديدية يمكن لها ان تكون نواة عمل منظم ، افاد الكثيرون منه في عصر
النهضة ، في مطلع القرن العشرين .

ويمكننا حصر مميزات المعجم هذا بالنقاط التالية :

- ١- سهولة العبارة ، ووضوح دلالتها ، وقرب فهمها سوا ، بالنسبة للقارى
المادى او المتخصص .
- ٢= تنبيه الكاتب على الدخيل والمعرب ، وذكر ما يقابلهما من لغاتها الاصلية ،
كقوله في " العفص " مثلا : (العفص) ، حمل شجرة البلوط . وهو مولد وليس من
كلام اهل البادية " (١) .

(١) اقرب الموارد ، ص ٨٠٣ ع ١٠

و " المردقوش " بالفتح ، من الرياحين التي تزرع في البيوت . . . معرب مردء
كوش بالفارسية ومعناه آذان الفار " (١) .

و " السقوية " الارتقا " بالمالي الى المراتب الروحية كمرتبة القس والاسقف
نسبة الى سيمون الساحر (نصرانية) " (٢) .

٣- تعريفه بالنبات والحيوان والمواد وبعض الامكنة الحديثة بايجاز .

٤- كثيرا مايورد الكاتب استشادات من القرآن الكريم والحديث الشريف ، ومأثور
الكلام ، تأييدا لمعنى الكلمة المفسرة ، غير ملتزم بما ورد في عصور الرواية . كما كان
يلتزم ذلك السابقون من اللغويين .

٥- الاكتفاء بالمداول دون الاستغراق بالشواهد الشعرية الكثيرة ، واعتماده
على الصحيح منها دون الشاذ .

٦- مراعاة لحرمة الادب والعلم في حذف الالفاظ البذيئة ، او الجارحة .
ليس " الذيل " .

٧ - اخذه مفردات كثيرة من كتب ليست من معجمات اللغة ، كما فعل
البيهقي من قبله ، كمفردات ابن البيطار والصفاني وغير ذلك .

٨- ابراده بعض الكلمات العادية اللبنانية ، وما يقابلها من معنى بلهجات
الاقطار العربية ، ليس دائما .

٩- استغناؤه عن ذكر اغلب القواعد النحوية والصرفية ، ما ليس له اهمية في
توضيح معنى الكلمة .

١٠- كما لم يكثر من ذكر اسماء الرواة ، ولم يصرح في اغلب الاحيان باسماء
الكتب التي نقل عنها .

وعلى الرغم من هذه المحاولات المخلصة في اخراج معجم خال من عيوب المعجم
القديم ، فقد اضطرب الشرطوني كثيرا في كتابه هذا . حتى طغت هذه المساوي على ما
للكتاب من محاسن ومنافع لا تنكسر تعود الى جودة تبويبه وحسن تنسيقه وترتيبه .

ويمكننا تقسيم اخطاء " اقرب الموارد " الى /صنوف/ :

(١) اقرب الموارد ص ١١٩٨ ع ٣ .

(٢) = = = ص ٥٦٤ ع ٣ .

— الاول : مطبوع : وهو كثير على نحو ما جاء من ان " المكر بالفتح هو الصغير بالفتح
المعجمة " (١) والصواب الصغير (بالفاء) (٢) .

ومتأيد الرجل " طالت عزيمته ، (بعين مهمله بعدها زاي) (٣) ، والصواب
غريمته (بفتح معجمة يليها را) . وقوله " ح ف د المحفد شي " تعلق فيه الدواب (٤)
والصواب تعلق (٥) . وغير ذلك مما يطول استقصاؤه .

— الثاني : ما هو خطأ في الاعجام وضبط القلم ، وهو كثير . نقوله : " لفدف الخائن
اي استأصل العزلة " (٦) فضبطها بضم الالف وكسر الدال على صيغة المجهول
خطأ . والصواب لفدف بفتح الالف (٧) والدال على صيغة المعلوم .

— الثالث : ما كان عن تسرع او غفلة في النقل . فقد جاء في تفسير الخلب (بكسر
فسكون) انه " حجاب الكبد وقيل غلاف البطن و — الحبل منه " (٨) .
فظاهر العبارة ان ضمير (منه) راجع الى غلاف البطن لانه اقرب مذكور .
وعلى تقدير ان المراد ارجلعه الى حجاب الكبد ، او الظفر المذكور قبل حجاب الكبد
بين معاني الخلب فانه ليس لحجاب الكبد ولا للظفر ولا لغلاف البطن حبل . والذي
في القاموس الخلب (بالضم ، وبضميتين) الليف والحبل منه اهـ . اي من الليف . فأدخل
المؤلف عبارة " والحبل منه " ضمن معاني الخلب (بالكسر) التي لا يصح ارجاع الضمير
الى اي منها مع ان محلها ضمن معاني الخلب (بالضم) بحد كلمة الليف كما جاء
في القاموس (٩) .

-
- (١) اقرب الموارد ، ص ١٢٣١ ع ٣
 - (٢) تاج العروس ، ج ٣ ، ص ٤٨٥
 - (٣) اقرب الموارد ص ١ ع ٣
 - (٤) اقرب الموارد ص ٢٠٨ ع ٣
 - (٥) لسان العرب ج ٣ ص ١٥٤
 - (٦) اقرب الموارد ، ص ٨٦٢ ع ٢
 - (٧) النظر لسان العرب ص ٢٦٢
 - (٨) اقرب الموارد ص ٢٦٧ ع ٢
 - (٩) النظر القاموس المحيط ج ١ ص ٦٣ ، ولسان العرب ج ١ ص ٣٦٤ ع ٢ .

- الرابع- : شروح مختصرة مخطئة لم يذكرها ائمة اللغة . فمن ذلك عبارة غريبة اتى بها في تفسير الخريطة ، وذلك بعد ان نقل عن القاموس قوله : " الخريطة وعاء من آدم وغيره " . زاد " ومنه الخريطة لما ترسم عليه هيئة الارض او هيئة اقليم منها " (١) . فهذه الزيادة من عنده لم ترد في اى معجم من الاصول . جاء في نسي اللسان : " الخريطة هيئة مثل الكيس تكون من الخرق والادم تشرح على مانيها ، ومنه خرائط كتب السلطان وعالمه " (٢) .

وعلى هذا فلا دليل على ما جاء عند الشرتوني لان كلمة " خريطة " التي نستعملها للصور الجغرافية ليست مستعمارة من الخريطة للوها من آدم كما توهم ، وانما هي مأخوذة من (كرت) (الفرنجية) (Carte) حتى ان بعض الناس لا يزال يلفظها خارطة .

الخامس : ذكر الفاظ عامة غير عربية متسربة في هذا الزمان من اللغات الاعجمية وخاصة التركية . فمنه قوله " الثرمان " (بفتح الراء) قال " انه عهد السلطان للولاة فارسية والجمع فراامين اهـ " (٣) .

وهي بالفارسية (بسكون الراء) ومعناها الامر مطلقا ، ثم خصها الترك باسم السلطان . والغريب ان المؤلف اشتق لها فعل قَرَمَن وادخلها في صفوف المواد العربية ثم اخترع لها جمعا على فراامين .

ومنه " الوجاق " (بضم الواو) والأوجاق (بضم الهجزة) فقد اقحمها بين المواد العربية وفسرها بأنها " موضع النار " (٤) . مع انها تركية الاصل تسربت الى لغتنا العامة في هذا العهد . . .

ولو كان المراد من هذه المواد العامة بيان ما دخل منها في لغتنا ، لكان يجب على المؤلف ان يجمع نظائر هذه الالفاظ كلها ، وهي تقدر بالمئات ، في فصل خاص ، او كتاب خاص . لا ان يقيم بعضها بين مواد العربية فيؤدى الى الاضطراب والتشويش ، وعدم التمييز بين العربي والدخيل وبين العامي والفصيح .

-
- (١) اقرب الموارد ص ٢٩١ ع ٢
 (٢) لسان العرب ج ط ص ٢٨٦ .
 (٣) اقرب الموارد ص ١٢٢ ع ١ .
 (٤) = = = ص ١٤٢٩ ع ٢ .

السادس : تصرف مغل في عبارات ائمة اللغة افسد المعنى الصحيح واخرجه عن اصله . مثال ذلك ما جاء في القاموس " املاخ الصبي واملاخ طلع " (١) باطلاق الطلوع دون بيان مكانه ، ولم يتعرض شارح القاموس لايضاحه بل اقتصر على ضبط الفعلين واهملهما اصحاب اللسان والمصباح والاساس . وان بصاحب " الاقرب " يخترع قيذا للطلوع بقوله : " اي من بطن امه (٢) " . ولا قائل به ولا دليل عليه . والاقرب الى الصواب ان (طلع) محرف من (رضح) لان معظم معاني ملح وجميع مشتقاتها تدور حول الرضاع وليس فيها ما يدنو من الطلوع (٣) . فقول الشرتوني " من بطن امه " زيادة شوهت المعنى الاصلي وقلبت رأسا على عقب مع ان امانة النقل تقتضي بان يكون بلا زيادة ولا نقص .

ومن هذا الصنف ايضا قوله في مادة (د ب ج) : " الديباج ج ديابج وديابج بلفظ مفرد " اما ديابج على زنة مساجد فلم ترد في جمع الديباج بل جمعه ديابيج وهي جمع ديباج وديابج بهائين . كما قالوا دنالير في جمع دينار . وفي المادة نفسها الديباجة : الوجه (هكذا على اطلاقه) وليس هو كذلك ، بل الذي قاله الائمة " ديباجة الوجه : حسن بشرته " (٤) ان ليس للوجه القبيح ديباجة .

السابع : عدم دقته في ايراد نص الايات القرآنية والاحاديث الشريفة ، بشكل مطرد ، لا ندري ما السبب في اغفال التأكد من صحتها . لقوله في مادة (ب ق ع) " ونادى موسى في البقعة المباركة " (٥) . وانما الآية الكريمة " فلما اتاها نودى من شاطي الوادي الايمن في البقعة المباركة من الشجرة ان يا موسى اني انا الله رب العالمين " (٦) .

(١) القاموس المحيط ، ج ١ ص ٢٠٨

(٢) اقرب العوارد ص ١٢٣ ع ٣

(٣) انظر لسان العرب ج ٢ ص ٣٦٩ ع ١

(٤) = = = ج ٢ ص ٢٦٢

(٥) اقرب العوارد ص ٥٤ ع ٣

(٦) سورة القصص ، آية ٣٠ .

وقوله في مادة (ح س ن) " ومنه في القرآن ^(١) كل هل تريضون الا احدى
الحسينين " (٢) سقط من الآية (بنا بعد تريضون) (٣) .

وفي مادة (ر ه ن) حُرِفَ الآية فقال : " واذا السما انشقت فكانت وردة
كالدهان " (٤) ونص الآية الكريمة : " فاذا انشقت السما فكانت " (٥) .

وغير ذلك من الامثلة التي وردت اما محرنة واما ناقصة ، واما مضطربة
في عودة الضمير ،

وقد تتبع هذه الاخطاء كثير من اللغويين اللبنانيين والعرب ، منهم العلامة
اللبناني احمد رضا ، واصدرها في مقالات متوالية على صفحات مجلة المجمع العلمي
العربي (٦) ، متعقبا الشرتوني كلمة كلمة ، وصفحة صفحة ، حتى زادت الاخطاء
التي وجدها العلامة رضا على المئات . كما قام الاستاذ محمد جميل الخاني بنقد
للمعجم ، سجل عليه الكثير من المآخذ والافلاط الفاضحة . ومن الطبيعي ان لا يسلم
المعجم هذا من نقد العلامة الاب استانس الكرمل ونقد اللغويين غيره مما
يضيق عنهم المجال .

(١) القرآن الكريم .

(٢) اقرب الموارد ص ١٩٣ ع ٢

(٣) سورة التوبة ، آية ٥٢ .

(٤) اقرب الموارد ص ٣٥٦ ع ٣

(٥) سورة آية

(٦) انظر مجلة المجمع العلمي العربي لسنة ١٩٤٧ م .

الفصل الرابع

(١)

التعريب بسبب وضع الالفاظ

لم يكن العمل في التعريب مقتصرًا على نقل بعض ملئد عن حضارة او مخترع او استحداث اللمة ، او متوقفا على الاستجابة لمتطلبات العصر فتبادر الاقلام السي بت مظاهره وملاح تطورهِ الى الامة . او منتهيا عند حد الصحافة وترجمة المقالات والكتب الى اللغات الاخرى ، فتتنس لغتنا اهوا تفتح وانطلاق . لم يكن الحال جزا ينكمش على حدود الكلمات الضيقة ، او الاكتفاء بعرض مصطلحات جديدة . لقد

(١) نعني بالتعريب : ٢ - البحث عن لفظ جديد لمعنى جديد مع مراعاة الاشتقاق

ب - اقتباس اللفظ الاجنبي بحروفه على ان يصاغ صياغة عربية . ومن البديهي بانه لا ينبغي لنا العمل بهذه القاعدة الا عند عجزنا عن اشتقاق لفظ عربي للدلالة على المعنى الجديد . فاذا كانت كتب العلم القديمة لا تحتوي على لفظ نقتبسه . كما هو او نبذله ، واذا كانت اللغة نفسها لا تشمل على اسم قريب من المعنى نشق منه فعلا او صفة ، كان استعمال اللفظ الاجنبي اوفى بالقصد واقرب الى الوضوح من اطلاق لفظ عربي غير مألوف يفرس على العلم فرضا . ان علماءنا القدماء لم يجدوا في استعمال كلمة (جغرافيا) و (كيميا) مثلا اى انتقاص من حقوق اللغة العربية .

ويقول صاحب كتاب الهوامل والشوامل في الجواب عن احدى المسائل - لابي حيان التوحيدى ص ١٠٤ : " على ابي رايتك تستعفي ان تفهم حقيقة الا ان تكون في لفظ عربي . فان عدمت لغة العرب رفيت في العلوم . لكن - ايدك الله - لاترك البحث عن المعاني في اى لغة كانت وبأى عبارة حصلت . "

لابد ان تفرق بين مصطلحين ، حسب استعمال المدققين . ف " التعريب " هو نقل الاجنبية الى العربية و " الترجمة " هي عملية نقل من العربية الى الاجنبية .

كان عمل التعريب ، في القرن التاسع عشر ، محاولة تجوهر ، واثبات تراث ، احتدم الصراع حوله . وتنازعت الالهوا هدفه . وتناهت من حوله الابعاد . لقد انغمس الحاضر العربي برؤى ليست له . وما عرف يوما هويتها ، فكيف له ان ينتسب الى حضارة الانسان ، ولا لسان يعصمه . من هذا المنطلق لطرح قضية اللفظ المستحدث ، والتعريب فالقضية قضية التزام بهوية الانسان ، لا قضية خاطرة ندت على البال فتجسدت في كلمة عابرة ؟ فلقد اصبح الكاتب - عصرئذ - مضطرا الى وضع مئات بل آلاف من الاسماء التي لا يجد لها رديفا في لسانه ، ولا في وسعه نقل تلك الالفاظ بصورتها الى لغته لشدة التباين بين طبيعة لغته ولغات اولئك الاقوام . لان الالفاظ فيها محصورة الاوضاع محدودة الصيغ ، لا تقبل الزيادة عليها الا منها ، ولا يمكن ان تدس اللفظة الاجنبية بينها الا بعد ان تجانسها وتواخاها . وما يزيد من حدة الموقف ، قصور الهمة عن ان تدرك مدى التعريب ووضع الالفاظ ، فعمامة الناس ، وهم الذين يقررون بتد اولهم للفظ عمره او موته ، ابعد الناس عن القضية ، بل جلاهم من يفتخر بتد اوله لفظا اجنبيا او يؤكد على اضطرابه امل متطلبات العصر ومستلزماته ان يستعمل مصطلحات تخفق الحياة بين جنباتها . ولا عجب ، فالمرحلة الحضارية التي مرت بها البلاد في القرن الماضي ، ولما تزل ، هي اثبه بسجين فقلت عيناه الا عن الظلام ، فارتاحت لمرآه ، حتى اذا ما انبثق النور ، نور الحضارة الجديدة ، الواقعة ، باهرا عشي ، واضطرب بصره ، فلم ير الا معارض طبيعية او ضاعية ، وانواعا من المسميات وضروبا من الادوات واصدافا من المعادن واجناسا من المصنوعات ، وفنونا من المنافع الحياتية . وهو الذي لا يملك بين يديه الا بقايا حضارة غابرة ، ولا يلهج لسانه الا باسماء ذهبت مشخصاتها ، وامحت آثارها " ثم ما هو فاعل لو اراد الكلام فيما يحدث كل يوم من المخترعات العلمية والضاعية والمكتشفات الطبيعية والكماوية ، والفنون العقلية واليدوية ، وما لكل ذلك من الاوضاع والحدود والمصطلحات التي لاتفاد رجليلا ولا دقيقا الا تدل عليه بلفظة المخصوص (١) .

من هذا المفهوم للمسؤولية العلمية ، والواجب القومي الملقين على عاتق الجيل الماضي ، نهض علماء اوفيا لرسالتهم ، كاحمد فارس الشدياق وبطرس البستاني ، وابراهيم اليازجي ، وخليل اليازجي ثم نجيب الحداد وشاكر شقير والدكتور خليل سمادة والدكتور بشارة زلز وغيرهم ليتخطوا عبء المهام الجسام هذه ، ويسموا في تأسيس مذهب ذوتي

(١) مجلة الجنان " ابراهيم اليازجي " في مقال " اللغة والعصر " انظر " روائع البستاني

اسم الكلمة الموفية بحق التقدم . فالفوا الكتب والمقالات ووضفوا الرسائل ، طارحين في ثنايا ذلك كله مجموعات من الالفاظ المقترحة ونظريات في تأليف الصطلح ، كما نقلوا الكثير من الكتب عن الغرب باسلوب رصين ، وهربية سليمة . دون ان ينسوا حت ابنا الجيل ، او لومه احيانا عن القصور والتقليد الاعى . حاملين لواء الدفاع عن العربية ورد مالحق بها من لوم وتجن واتهام بالجمود . ويمكننا تحديد تصور الموضوع بالشكل التالي :

- ١- اسباب التفكير في وضع الالفاظ .
- ٢- الحلول المقترحة في ذلك .
- ٣- نماذج من الالفاظ المستحدثة في القرن الماضي .

- اذا ملعدنا الى اسباب التفكير في وضع الالفاظ ، لرأينا انها تنقسم الى اسباب عامة ، ترتبط كل الارتباط بواقع الحياة . واسباب خاصة ترتبط بواقع الافراد المهني في التدريس او الصحافة او الترجمة والتعريب في الوظائف الحكومية .

٢ - الاسباب العامة :

تعود هذه الاسباب الى واقع لغوى عام ، اعتقد به اللغويون ، وآمنوا به . هذا الاعتقاد يقوم على فهم اللغة فهما صحيحا ، يجعلها بنت الحياة ، ويعرف انه من غير المعقول ، ان تكون اللغة قد نشأت دفعة واحدة ، بل هي تنمو عبر الاجيال وتتطور ، كغيرها من الصنائع والموضوعات البشرية لا يحدث شي منها تاما كاملا من اول وهلة ، ولكن على التدريج (١) . وهذا ما يعطي المحدثين حقا في الوضع والا حكموا على نفسهم ومن ثم على لغتهم بالموت المحتم .

ويدافع الشدياق عن حق المحدثين في الوضع فيقول :

"ولو ان العرب الاولين شاهدوا البواخر وسلك الحديد واسلاك التلفراف والغاز والبولسطة ونحو ذلك مما اخترعه الافرنج لوضعوا له اسما خاصة ناصة . فهم على هذا غير ملومين " (٢) .

(١) سر الليال ، الشدياق ، ص ٢٥ .

(٢) منتخبات الجواب ، الشدياق ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

ويتابع فيقول :

"وانما اللوم علينا حالة كوننا قد ورثنا لغتهم وشاهدنا هذه الامور باعيننا ، ولم نكتبه لوضع اسما لها على النسق الذي الفتته العرب . . . افيظن احد ان لفظة المفسر والوالي المتصرف ، والمدير ومجلس الشورى لا ينبغي ان تعد من الالفاظ العربية لانها لم تكن معروفة للدولة العباسية ؟ فاذا برأ احد تلك الدولة لعدم اتخاذها هذه الالفاظ ان الحاجة لم تكن اليها لم يكن له ان يلوم دولة اخرى على اتخاذها مع وجود الحاجة ، فقص عليها غيرها " (١) .

وهو على هذا ، يعتمد الى تقرير حق ثابت ان اللغة بمنزلة المتكلمين ، وانه لا يمكن للغة من اللغات ان تعيش وحدها ، لانه لا يمكن لامة من الام ان تعيش وحدها من غير ان تختلط بامة اخرى ، وانه من هنا تدخل الفاظ لامة في الفاظ لامة اخرى . ان ذلك غير مكسر .

هذا ، والشدياق لا يذهب في امره مذهباً متحلاً معه من كل قيد ، فهو مع تقريره لهذه الحقيقة اللغوية يحرص - اشد الحرص - على ان يجعلها في الضيق الحدود . ومن هنا نراه ينص " على ان هذا الدخيل انما يفضي عنه اذا لم يوجد في اصل اللغة ما يرادفه ، او لم يمكن صوغ مثله . اما اذا امكن فالأغصاء بخس لحق اللغة لامحالة " (٢) .

وكأنني بالشدياق قد اراد ان يفتح امام اللغويين باب الاجتهاد في التعريب ووضع الالفاظ ، وهذا ماتجلى فعلا في حديث جرجي زيدان ، فيما يمسد ، عن الموضوع ذاته ، حيث قال مستعرضا اوجه القضية ، منذ تطور الالفاظ الجاهلية حتى عصر النهضة ، حاثا على مزيد من التقدم في هذا المضمار لانه امر ينبثق عن قاموس الارتقاء ، لاسبيل الى الوقوف بوجهه اراد اصحاب اللغة ذلك ام لم يريدوا . فلقد " تولدت في العصر الاسلامي الفاظ وترايب لم تكن في العصر الجاهلي ، وتولدت في المصور التالية مالم يكن فيما قبلها . واخيرا تولدت في نهضتنا الاخيرة من الالفاظ والتراكيب مالم يكن

(١) منتخبات الجوائب ، الشدياق ج ١ ص ٢٠٥

(٢) منتخبات الجوائب ، الشدياق ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣

معهودا من قبل ٠٠٠ فالوقوف في سبيل هذا النحو مخالف للنواميس الطبيعية ،
فضلا عن انه لا يجدى نفعا " ٠٠ " فاللغة كائن حي تام خاضع لناموس الارتقاء ٠ ولا بد
من توالي الدور والتولد فيها ٠٠ اراد اصحابها ذلك ام لم يريدوا ، تتولد الفاظ
جديدة وتندثر الفاظ قديمة على مقتضيات الاحوال لحكمة شملت سائر الموجودات (١) .

وهو حين يدعو الى وضع الالفاظ ، ينبه - كالشدياق - من الاطلاق ، ويحذر
من مفهة الافراط والفوضى في النظم والوضع حيث يقول :

" فلا بد لنا ٠٠ من الرجوع الى القواعد العامة والروابط الاساسية ، فلا
نفسد اللغة بالفاظ العامة وتراكيبهم ٠٠ ولا نكثر من الدخيل حتى نصير لغتنا مثل
اللغة التركية العثمانية ٠٠٠

" فلا بد من المحافظة على (سلامة اللغة العربية) والاعتناء باستبقائها
على بلافتها وفصاحتها ٠٠٠ فلا يستحسن الاكثار فيها من الدخيل والمولد ٠ وانما
يؤخذ منهما بقدر الحاجة ، على ان نعد ذلك الاقتباس نموا وارتقا ، لا فسادا او
انحطاطا " (٢) .

وكذلك الشأن عند ابراهيم اليازجي في ارجاءه لاسباب التفكير بالوضع الى
الضرورة الحتمية التي فرضتها الحياة المتجددة ، بغية انقاذ اللغة من جمودها .

وقد حدد اليازجي ، مناحي هذا الجمود بما صارت اليه اللغة - يومها -
من التقصير بخدمة اهلها والعقم بحاجات ذويها ٠٠ حتى " اصبحت الكتابة في كثير
من الافراض ضربا من مشاق التكليف ، وبابا من ابواب العنت ، واللغة لا تزداد الا ضيقا
باتساع مذاهب الحضارة ، وتشعب طرق التفنن في الاختراعات والمستحدثات ، الى ان
كادت تنبذ في زوايا الاهمال ٠٠ ومست الضرورة الى تدارك ما طرأ عليها من النثم قبل
تمام العفا ٠٠٠

فلو ان كاتبنا " رام ان يصف حجرة مناهم لم يكد يجد فيها ما يقيه هذه المؤونة
اليسيرة ، فضلا عما رواه ذلك من وصف قصور الملوك والكبراء ، ومنازل المترفين والافنيا
وشوارع المدن الفخمة ، وما ثم من آنية واثاث وملبوس ٠٠ وغير ذلك من اصناف الماعون

(١) من خلاصة " اللغة كائن حي ، جرجي زيدان

(٢) اللغة كائن حي ، زيدان ص ١٣٩ - ١٤٠ .

وادوات الزينة ، مما لا يجد لشيء منه اسما في هذه اللغة ، ولا يكون حظ العربي من وصفه الا الـ "الحي" والحـ "صروطي" لسانه على معان في قلبه لا يتسنى له ابرازها - بالنطق ، ولا يجد سبيلا الى تمثيلها باللفظ ، كأن المقاطع التي يعبر بها عن هذه الشخصيات لم يخلق لها موضع بين فكيه ، وليست مما يجرى بين لسانه وشفثيه ، فعاد كالأبكم يرى الاشياء ويميزها ، ولا يستطيع ان يعبر عنها الا بالاشارة ولا يصفها الا بالايما " .

ويتابع اليازجي قوله :

"ويا ليت شعري ما يصنع احدنا لو دخل احد المعارض الطبيعية او الصناعية ورأى مائة من السميات العضوية وغير العضوية من انواع الحيوان ، وضروب النبات ، وصنوف المعادن ، وعين ماهناك من الآلات والادوات . . ثم ما هو فاعل لو اراد الكلام فيما يحدث كل يوم من المخترعات العلمية والصناعية والمكتشفات الطبيعية والكيمائية والفنون . . . وما لكل ذلك من الاوضاع والحدود والمصطلحات التي لا تغادر جليلا ولا دقيقا الا تدل عليه بلفظة مخصوص " (١)

ومما هو واضح من النصوص السابقة ، ان ائمة اللغة في القرن الماضي ، ما ذهبوا الى ما ذهبوا اليه الا لفرط حبهم لهذه اللغة وغيرتهم عليها ، وخوفهم من ان تتبدد وتندس الى الفاظها اقوال الاجانب . فمع تحديد هم مناحي القصور ، لا ينسبون ذلك الى اللغة ، بل الى ابنائها اللغة ، الذين قصرت مداركهم عن فهم الحياة ومتطلباتها منتقدين فتور الهم وتقاعس ابنائها اللغة عن البحث في اسرارها " تلك اللغة التي طالما وصفها الواصفون بانها افزر الالسنه مادة واوسعها تعبيراً وابعد لها للاغراض متناولا واطوعها للمعاني تصويراً " (٢) .

ولذا ، " فان كان ثمة هرم فانما هو في الامة لا في اللغة ، لان ملغرض لها من الهجر والاهمال غير لاحق بها ولا ملحق بها وهنا ولا عجزا . وانما هو عجز في السنة الامة ومداركها ، وتأخر في احوالها واستعدادها . ولو صادفت من اهلها

(١) الروائع ، عن اليازجي ، ص ٢٩ - ٣٠ عدد ٤١ / .

(٢) = = ص ١٣ .

البقاء على عهد اسلافهم من السعي في سبل الحضارة وتوسيع نطاق العلم ، لم تقصر عن مشايعتهم في كل ما فاتهم من الاطوار حتى تبلغ بهم الى مجارة العصر الحالي * (١) .

المعنى

ثم يستقرى اوجه هذا القصور ، مدافعا عن اللغة وجودها فيقول ،

* اذا ... سبرت فور اللغة في نفسها ، وقست مبلغ استعدادها ، علمت انه ليس منها في شي * (اي القصور والهرم) ، وايقنت انها لاتزال في ريعان شبابها وطور ترعرعها ، وان فيها بقية صالحة لان تجارى اوسع اللغات واكثرها مادة .

* ولكن ما ادركها من ذلك وارد من قبل الامة وتخلقها في حلبة الحضارة والمدنية ، اذ اللغة باهلها تشب بشبابهم وتهرم بهرمهم ، وانما هي عبارة عما يتد اولونه بينهم لاتعدو السنتهم مافي خواطرهم ولا تمثل الفاظهم الا صور مافي اذهانهم * (٢) .

وعلى هذا ^{المعنى} القصور العام للغة ، عند علمائنا ، تأخذ اللغة مرآة احوال الامة ، وصورة تمدنها ، ورسم مجتمعيها وتعال اخلاقها وملكاتها ، وسجل مالها من علوم وصنائع وآداب . وهي ان ظلت على جمودها ، قلن يلحقها الا مزيد من القصور المطرد ، باطراد الحضارة والتقدم العلمي . ولن يعتورها الا الانكماش والانزواء ، وتضي بين اللغات دأركسة ، كما درست فيرها في الحقب السالفة .

لذا ، بات من الضرورة الحتمية ان تنفض عنها غبار الزمن ، وتغلك عقال التحجب والتقوقع لتتنسم انسام الحياة الجديدة ، وتأخذ عن غيرها ، وتعطي بمرونة وخصب كافيين .

(١) المصدر السابق ص ١٧

(٢) المصدر السابق ص ٣٢ .

فهي دعوة قومية ، تأخذ طابع التحدى العام ، ثقافة وحضارة ، مبنيتين
عن جوهر لغوى . اى ان حياة الامة من حياة اللغة ، وما ذلك الا بالتجديد واحياء
اللفظ او وضعه حتى لا يضطر اهل اللغة الى اخذ لفظ اجنبى يعبرون به عن متطلبات
حياتهم . فمن " اوجب الواجب في المحافظة على بقا الامة وصيانة الجنسية بينها
احياء لغتها بين عامة اهلها ، وتكثير سواد اهل العلم منها ، والتجاني بها ما امكن
عن لغات الاعظم " (١) .

وبين البازجي حقيقة اللغة كما يجب ان تكون وكيف فهمها الناس ، حيث
اعتقدوا الكمال للغتهم ، ووقفوا متأملين في تراثها دون تطوير او تبديل ، ومع ان
حقيقة الكمال في اللغة ان تكون بحيث يمكن ان يستنبط من نفس اوضاعها الفاظ لما
يحدث من المعاني ، لا ان تكون بحيث تستغني عن المزيد ، اذ المعاني ابداء تتجدد ،
وليس من المحتمل ان قوما يضمنون الفاظا لمعان لا توجد .

وكأنى بالبازجي ، هنا ، يميل الى اصلاح الامة من داء الضرر ، حيث اعتقد
البعض بان العربية لغة الكمال المطلق ، فاطبق سفر الابداع دونها ، ولم يمسد
يفكر في امر حياتها ، وهو امر لا يتوافق وطبيعة اللغات ، فاللغة ايا كانت - لم توضع
دفعة واحدة ، ولكنها - ابداء - كانت تابعة لاحوال المجتمع ، ومبلغ الامة مسن
الحضارة . . . فهناك سلسلة من المعاني لا تنقطع ولا تنتهي الى حد تقف عنده ،
ولذلك كان الحال ان لغة قوم مهما بلغت من الكمال ، وتاهت في الاتساع ، تصل
الى حد تصلح فيه لان تستعمل في كل عصر ، لان ذلك الكمال انما يكون بالقياس الى
زمن مخصوص ، ومبلغ من الحضارة لا يعتمد ، فهو على هذا كمال نسبي " (٢) .

وعلى هذا ، فالاسباب العامة للتفكير في وضع الالفاظ ، قومية ، تدخل في
نطاق الحقيقة اللغوية تلك الحقيقة التي تحتم وجود اللفظ المستحدث ، حتى
تأخذ اللغة في ديمومة الحياة نصيبها .

ب - الاسباب الخاصة ،

اما الاسباب الخاصة ، فنعمني بها اسباب حركة الانبعاث ، والموامل المساعدة

(١) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

(٢) = = = ص ٢٣ - ٢٤ .

لها ، كانتشار الصحافة والمجلات والطباعة والنشر ، وتوزيع الكتاب ، وبد ايات الحركة المسرحية والتأليف في مصر وسوريا ولبنان ، كل ذلك ، دعا الى مزيد من الاهتمام بالتمريب والنقل عن الاجنبية ، الامر الذى استدعى خلق الفاظ ومصطلحات جديدة ، نذت عن البحث المتفرع حسب الوان التقدم من علمية وتقنية وفنية . كما ان وقوف هؤلاء الكتاب والادباء واللغويين من اسباب المعرفة تلك ، اثارت فيهم حب الاستقلال الذاتى ، وشرف المحافظة على الشخصية ، الامر الذى استوجب معه ، رغبة مخلصه في خلق كلمات جديدة اما عن طريق احيا لفظ قديم ، او عن طريق الاشتقاق او النحت او النقل الحرفي وغير ذلك مما سناتي على ذكره في القسم الثاني .

هذا وقد لعبت الاسباب الشخصية ، دورها في التمريب ووضع الالفاظ ، ايضا ، وهو امر تتطلبه المصلحة الشخصية ، كما حصل لاحمد فارس الشدياق ، مثلا ، الذى اضطرته دولي السفر ، والعمل في الترجمة للكتاب المقدس . وتسلم مهام تحرير الجوائب المصرية . وغيرها من الاعمال ، اضطرته الى استعمال الفاظ جديدة لمعاني مستحدثة ، ونخص بالذكر هنا ما اورده الشدياق من الفاظ كثيرة في كتابه " الواسطة في معرفة احوال مالطة " و " كشف المخبا عن فنون اوربا " اللذين ضما في كتاب واحد حتى فيه الكاتب انطباعاته وخواطره كما سجل ما رآه عينا ، ذاكرا الكثير من المعلومات المهمة والاحصاءات ، ووصف ما رآه من مخترعات وعمران في المدن الاوروبية ، وجزيرة مالطة . وما عرفه من أنظمة الحكم السائدة يومئذ فادرك اسمها ومناهج تطبيقها ودرس ما في المجتمع الاوربي دراسة عميقة ، ثم اخذ بعد ذلك وعهدا بنقل ذلك الى لغته القومية ، مما حمله على تطويع اللغة كي تضم هذا العباب الضخم الذى فجاء ، ناهضا بالعمل وحده من غير ان يستعين بانسان او لجنة من اللجان .

ولعل هذا ما قابل ، فينا بعد ، يعقوب صروف وجرجي زيدان ، وخلييل اليازجي ، والدكتور بشارة زلزل ، وغيرهم من الذين اقاموا فترة طويلة على كتابة المقالات العلمية ونقل المخترعات والمستحدثات العصرية الى لغة العرب .

هذه هي الاسباب العامة والخاصة ، التي حملت علما نا على التفكير في وضع الالفاظ . اما الحلول المقترحة في سبيل ذلك فهي التالية :

٢- الحلول المقترحة :

توسل اللغويون اللبنانيون في القرن الماضي ، عدة وسائل تحقق لهم حل القضية التي نهضت . وقبل البدء بتعداد هذه الوسائل وكيفيةها ، لابد من القول ان هؤلاء العلماء ، تأملوا القضية وانفذوا بصيرتهم بعزيمة محتواها ، فادركوا جليلها وابعادها . مما حملهم على دعوة البيئات الثقافية في الوطن العربي دعوة حارة كي تنهض بالمشكلة وتجد لها الحلول ، وهذا ما يفسر طلب الشدياق ومن بعده اليازجي من البيئة المصرية بان تقوم بعمل وضع المصطلحات ، هذا العمل اللغوي الكبير ، لان مصر - كما يقول الشدياق - " مورد العلوم العربية ومصدرها " . وكلام مشايخها مقتنع في جميع الامصار . فاذا قرروا طريقة لصوغ الالفاظ المنحوتة اقتدى بهم جميع الكتاب والمؤلفون . . .

وهو يرجو من " همة كتاب الروضة ولا سيما العالم الشهير ^{عز الدين} رفاعه بك ان يريحونا من الالفاظ المعجمة اراحهم الله ، واغناهم عن التعريب الذي هو اشد عذابا على من غناه (١) . وهو ما ذهب اليه جرجي زيدان في قوله :

" نتقدم الى ائمة اللغة وكتابها وعلمائها ان يزيدونا من هذا الموضوع خدمة لهذه النهضة " (٢) . ويقرر ذلك ابراهيم اليازجي ، متوجها بالكلام الى مجمع اللغة المصري :

" على انك لو طفت اليوم في جميع انحاء البلاد التي كانت مباءة للعرب ، ومعرضا لحضارتهم وفنونهم ، لم تكن تجد موضعا تنسم فيه آثار ذلك القديم سوى الديار المصرية التي هي مستودع ذخائر السلف ، ومجمع شمل علومهم في شمل بقاياهم ، والتي ، ان كان قد كتب لهذه اللغة ان تستأنف البقاء مدة اخرى ، فان مبعثها انما يكون من ناحيتها وعلى ايدي رجالها " (٣) . " اذن ، القضية عند علمائنا قومية بالدرجة الاولى ، تحتاج الى اجماع لغوي ، يصدر عن هيئات ثقافية ، ذات كلمة مسموعة . . . وليست القضية فردية ، ترتد الى خاطرة او مجرد سوانح لغوية . ومع ان علماءنا رأوا في التعريب اراء خاصة ، وذهبوا في وضع المصطلح مذاهب مختلفة ، الا انهم

(١) كنز الرقائب ج ١ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦

(٢) اللغة كائن حي ، زيدان ، ص ١٤١

(٣) اليازجي ، روائع البستاني ، ص ٣٥ - ١٩ .

جميعا اتفقوا على ما يجب تمريره ونقله ، ووضع المصطلح له ، وما يجب الامتناع عنه .
فقد حصر ابراهيم اليازجي موضوع المصطلح ، ووجوب غلبة التعريب في " اسما الاجناس
لانها موضع التفاوت بين اللغات ، على الغالب ، واليه ترجع تسمية كل محدث من
المخترعات والمكتشفات على اختلاف ضروبها " (١) محتذيا بذلك حذو احمد فارس
الشد ياق الذي رأى من قبله (ان اكثر هذه الاسماء هو من قبيل اسم المكان او الالة " (٢) .

هذا ، وقد قسم اليازجي اسما الاجناس هذه الى ضربين :

الاول : اسما الجواهر المخلوقة ، بسيطة كانت كالأكسجين والفسفور
والكربون ، او مركبة كالزئبق والبقول . جامعا مع هذه اسما انواع
النبات والحيوان كالقارنج والنيلوفر والباشق مما لا مرادف له عندنا ؛

ويلحق بهذين القسمين الاخيرين ما اشبههما من اجناس ممكن
المصنوعات مما يتميز بتركيبه كالسمنت او بهيئته كالديباج والثفتة .
ويرى ان جميع هذه الاسماء لا يتأتى نقلها ، على الغالب الا محكية
بلفظها ، لانها اما ان تكون مرتجلة ، اي لم يسبق استعمالها
في معنى آخر ، فلا سبيل الى تعريبها بالترادف . واما ان تكون
شبيهة بالمرتجلة ، وهي ما كانت مجهولة الاصل كالشبانزي ، او
كانت منقولة عن معنى سابق ، الا ان لفظها لا يدل بنفسه على
المعنى الذي نقلت اليه ، وانما تعينت له بالعرف والاستعمال ،
فاذا عريت بمرادفها لم يفهم منه المعنى المقصود بها الا بعدد
النص عليه .

ويبين ذلك بمثال كلمة الفسفور ، فـ " انك " اذا اخذت هذه اللفظة
وجدته (اي الفسفور) مركبا من كلمتين معنى مجموعها ، " حامل
الثور " ولا يخفى ان هذا اللفظ يصدق على كل مادة مضيئة من
الهادن وغيرها فتقيده بالمادة المسماة به ليس من مفاد اللفظ
في شيء ، وانما هو مجرد تواطؤ واصطلاح " (٣) .

(١) اليازجي ، من مقالة له في مجلة الضياء السنة الثانية (١٨٩٩) ص ٤٤

(٢) الجوائب ، ج ١ ص ٢٠٢

(٣) انظر نفس المقال لليازجي .

الثاني : اسما المصنوعات المختلفة ، من الادوات والاثاث ، والمطعمون ، وغير ذلك من اشياء الحضارة ومرافق العمران ، والالات العلمية والصناعية .
ويرى اليازجي هنا ، رأى سلفه الشدياق ، في ان هذه الاسماء المتأتية عن المصنوعات الحضارية لا يتعين ان يعرب اللفظ الموضوع لها بمرادفه ، ولكن يكفي ان يعبر عنها بما يدل عليها ، ولو من طريق العرف ، لان هذه المذكورات انما تصنع لضروب من الاغراض ويتوخى بها وجوه من الاستخدام ، فيشتق لها لفظ يدل على معنى من المعاني التي تعتبر فيها او يستعمل لها لفظ يجمع بينها وبينه علاقة من علائق المجاز . وحيث ان هذه التسميات كلها تعتبر تسميتها من قبيل الوضع الابتدائي ، سواء وافقت اللفظ الموضوع لها ام لم توافقه ، لان هذه الموافقة ليست شرطاً في صحة الاستعمال .

وهو ما توسله الشدياق في باب الاشتقاق لطريق اول لوضع المصطلح حيث يقول :
" ان اكثر هذه الاسماء هو من قبيل اسم المكان او الالة ، وصوغ اسم المكان والالة في العربية مطرد في كل اسم ثلاثي . فما الحاجة الى ان نقول " فابريقه او كارخان ولا نقول (معمل او مصنع) . او ان نقول بيمارستان ولا نقول مستشفى . او ان نقول ديوان ولا نقول مكر . وان نقول اسطرلاب ولا نقول منظر (١) "

ويشرح اليازجي هذا العمل الاشتقاقي في تطبيقه نظرية المعربات العصرية على كلمة كالمنطاد مثلا التي اعطت لفظ " البالون " فيقول :
" فانه اخذ من معنى الارتفاع لصدقه عليه وان لم يطابق معنى اللفظ الاصلي " (٢)
ومثله الرقاص للبندول ، او المساسة للتراجيديه ، والمجهر للمكروسكوب . . . (٣)

ثم يقول : " وربما عرب الشيء بما يقاربه او بما يدخل تحته لا بما هو نفسه ، نحو الجناح للبلكون ، وهو في الاعلى نحو الرف يتصل بحائط البناء ، وكالخوذى بالضم ، لسائق خيل العربية ، معرب (Cocher) وهو في الاصطلاح

(١) منتخبات الجوائب ، الشدياق ، ص ٢٠٢ (ج ١)

(٢) المقال السابق ، ص ٤٦ (روائع)

(٣) = = =

الطارد المستحث على السير ، وقس على ذلك " (١) .

هذا في الاسماء ، اما في الافعال ، فلم نر عند ابي منهم ، من حاول تعريب شي منها لانهم لم يجيزوا تعريب الفعل ، ايماناً منهم ان " للافعال عندنا ابنية مخصصة لا توافقها الاوضاع الاعجمية ، فانها معرضة للتصرف والاشتقاق وانواع الزيادات ولكلها اوزان وقوالب لا تخرج عنها بحال " . و " حيثئذ فلا بد في الفعل المعرب من تغيير كثير حتى ينطبق على هذه الاحكام ، فضلاً عما يلزم احياناً من تبديل بعض مقاطعه على ما تقدم بحيث يتكرر لفظه جملة ، ويمود كأنه ضرب من الارتجال ، وفي ذلك من التداخل والفساد ما لا يخفى " (٢) .

ويؤكد اليازجي على وجوب الامتناع عن تعريب الفعل ، لانه (اى الفعل) في العربية زيادة على ذلك اصل اكثر الالفاظ فيها ، لانها لغة اشتقاقية ، فمنها اكثر اسما الذوات والصفات " بحيث انك لو اسقطت كل مشتق في العربية لم يبق من اللغة الا اقل من العشر ، وحيثئذ فكل فعل ادخل من اللغات الاعجمية دخل معه بالضرورة المصدر ، واسم الفاعل ، واسم المفعول . والصفة المشبهة ، وصيغة المبالغة ، واسما المكان والزمان ، واسم الالة ان كان مما يبنى منه ، فضلاً عن الزيادات وتصاريقها ، فلزم ان يخالط اللغة بكل فعل اجنبي سلسلة طويلة من الالفاظ بين افعال واسماء . فتكثر اللغة وفسدت اوضاعها بكثرة الدخيل " (٣) .

وينتهي اليازجي الى التشدد في الامتناع عن ذلك فيقول :

" لا يمكن ان يتسامح في الافعال بما يتسامح به في الاسماء " .

هذه هي الوسيلة الاولى للتغلب على اقتحام المصطلح على مجتمعا ، تمثلت

في الاشتقاق الذى تكيف بشروط عند علمائنا ، اما الوسائل التالية على الاشتقاق فهي النحس والترادف .

(١) نفس المصدر ، ص ٤٦

(٢) نفس المصدر ص ٤٧

(٣) نفس المصدر ص ٤٧

(٤) نفس المصدر ص ٤٧ .

- النحت - - - - - ت :

رأى هؤلاء العلماء في النحت وجهها آخر لحل القضية ، وصوغ الفاظ تمدد
الالفاظ العجمية التي اضطررنا اليها .

وكيفما كان الامر " فان النحت طريقة حسنة تكثر بها مواد اللغة وتتسع
اساليبها . . ولها نظير في اللغة اليونانية وسائر اللغات الافرنجية ، وهي التي
كثرت مواد لغاتهم واحوجتنا الى الاخذ منها " (١) .
وبدلل الشدياق على ذلك بامثلة فيقول :

" فقولنا : الجغرافيا والفلسفة والجومتريا والجيولوجيا كلها الفاظ يونانية
منحوتة او مركبة . ولولا هذا التركيب لما كان للغة اليونانية فضل على غيرها -
بشيء " . وهي ان فضلت لغات الافرنج لا تفضل لغتنا لان الالفاظ البسيطة عندنا اكثر
من المركبة . وهي افضل مالم تحوج الضرورة الى التركيب او النحت وحينئذ يعمد
اليه " (٢) .

- اما الترادف : فيبينه الشدياق مثالا على اساس النظرية الصوتية ، ولا بأس
عنده من ان ينحت عن الفاظ ترادف معانيها ذلك المعنى الذي اصطلح عليه الاجانب
عندما اخترعوا هذه الصناعات الكثيرة والالات العجيبة .

وهذا ما حدا بالشدياق ، الى محاولته بعث الفاظ عربية تقابل المصطلحات
الاجنبية ، او اعتقد انها تقابلها . وماورد من مصطلحات في " الساق على الساق " .
وكشف المخبا عن فنون اوربا " لخير دليل على ما نذهب اليه .

هذه الوسائل من اشتقاق ونحت وترادف ، دفعت بعلمائنا الى وضع مصطلحات
تعد بالمشات ، وهي ان لم يكتب لبعضها النجاح ، وكب لبعض الاخر ، فتكون لبننة
حجر الزاوية لكل عمل لغوي حديث يهدف الى وضع اللفظ او استحداثه .

(١) منتخبات الجوائب ، الشدياق ، ص ٢٠٣ و ٢٠٤

(٢) = = = =

٣- نماذج عامة في التعريب ووضع المصطلحات

سنتناول في هذا المبحث ، نماذج من تعريب الكتاب المقدس ، ونماذج من الالفاظ المستحدثة في الاختراعات واسماء الآلات ، او مما احتاج اليه التداول الاجتماعي وفرضته المشاهدات والتأملات .

أ - تعريب الكتاب المقدس :

حظي تعريب الكتاب المقدس ، في القرن الماضي باهتمام المبعوثين الاجانب ، اهتماما بلغ حد التنافس بين بعضهم بعضا .
وقد شهد القرن ، صدور طبعتين لنسخة الكتاب المقدس باللغة العربية ، طبعة المرسلين الاميركان ، وطبعة المرسلين اليسوعيين .

- الطبعة الاميركية (البروتستانتية) : (١٨٦٠ - ١٨٦٤) .

قام بمهمة تعريبها ، المرسلون الاميريكيون في بيروت ، وقد تألفت لجنة من العلماء جمعت خمسة اعلام ، هم المبشر عالي سميث (٢ - ١٨٥٧) والمستشرق كرنيلوس فاندريك (١٨١٨ - ١٨٩٥) وثلاثة من العلماء اللبنانيين هم : الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١) والمعلم بطرس البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣) والي حد ما الشيخ يوسف الاسير الحسيني (١٨١٧ - ١٨٨٩) .
وقد كان اعتمادهم في التعريب (هذا) على النسخة العبرانية في الاكسبر " (١) .

(١) انظر ، بروتوكولات حكما صهيون ، عجاج نوحهضه المجلد الثاني

ص ٢٧٩ - وما بعدها .

— الطبعة اليسوعية (اللاتينية) : (١٨٧٨ - ١٨٨٠) :

قام بمهمة تعريب هذه النسخة ، المرسلون اليسوعيون ، كمناصفة لعمل
الاميركيين ومقاومة لنشاطهم في نشر المذهب البروتستانتي .

وقد تألفت لجنة من العلماء خاصة بهذا ، قوامها الاب روديت اليسوعي
احد المستشرقين والمبشرين اللاتين ، والشيخ ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ - ١٩٠٦)
الذي اشتغل في تنقيح التوراة العربية اكثر من (٩) تسع سنوات .

وقد كان اعتماد اليسوعيين في تعريبهم على النسخ العبرانية واليونانية
والسريانية والنسخة اللاتينية التي عليها معول الكنيسة الكاثوليكية .

هذا ، وقد اورد العلامة عجاج نويهض في كتابه " بروتوكولات حكماء صهيون " معارضا من عبارات النسختين الاميركية البروتستانتية واليسوعية اللاتينية .

وهذه احدى نماذج الاستاذ نويهض ، نذكرها على سبيل التقابل بين

المطبعين (١) .

اليسوعية — اللاتينية	الاميركية — البروتستانتية
(٨) هلي معي من لبنان اعروس معي من لبنان . انظري من " رأس امانة " من " رأس سنير " وحرمون من مرايض الاسود من جبال النمر . (٩) قد ظلبت قلبي يا اختي العروس قد خلبت قلبي باحدى عينيك وقلادة من عنقك . (١٠) ما الطف حبك يا اختي العروس .	(٨) هلي معي من لبنان يا عروس معي من لبنان . انظري من " رأس امانة " من رأس سنير وحرمون من خدر الاسود من جبل النمر . (٩) قد سبيت قلبي يا اختي العروس قد سبيت قلبي باحدى عينيك بقلادة واحدة من عنقك . (١٠) ما احسن حبك يا اختي العروس .

(١) بروتوكولات حكماء صهيون م / ٢ / ص ٢٨٨ .

الاميركية - البروتستانتية	اليسوعية - اللاتينية
كم محبتك اطيپ من الخمر وكم رائحتك هانك اطيپ من كل الاطياب .	ان حبك الذ من الخمر وعرق اد هانك فوق جميع الاطياب .
(نشيد الانشاد ٨٠ : ٤ - ١٠) (١)	(نشيد الانشاد ٨٠ : ٤ - ١٠) (١)

وهناك تعريب ثالث للكتاب المقدس ، قام به احمد فارس الشدياق (١٨٠٤ - ١٨٨٧) في لندن في منتصف القرن الماضي ، بطلب من " جمعية ترقية المعارف المسيحية " سنة ١٨٥١ ، وطبعت في لندن . لكن تعريب هذه النسخة لم يظهر حتى الان ، رغم انه " اسبق الجميع في الظهور لكن في بلاد الانكليز لا في بلاد العرب " . (٢) . ويتساءل عجاج نويهض مع الكثيرين من علماء العربية عن سر اختفاء هذه النسخة المخطوطة وغير من المخطوطات التي تتعلق بهذا الدرس الديني ، كـ " المخطوط " المرأة في عكس التوراة " وهو سفر ضخم يقع في نحو ٧٠٠ صفحة (٣) قبل انه " افرقه في قالب بديع لم ينسج احد على منواله (٤) . ويذكر الاب شبلي ان الشدياق كان " قد شرع في انشائه على اثر ترجمة للتوراة في لندن . . . وانه في آخر مرحلة من حياته " (٥) .

ويحاول الاستاذ نويهض تبليان ذلك بقوله : " قد تكون ارا الفاريق في بعض المسائل الواردة في التوراة لا تتفق ورأى غيره من الناس . (وربما) كان يذهب في تفسير القضايا الدينية ، في المسيحية والاسلام مذهباً عقلياً ، او " معقولياً " اذا جاز التعبير " (٦) .

نضيف الى هذا الاحتمال ، ترجيحاً اخر هو ان تعريب الشدياق ، سار في جعل العبارة على نسق لغوي يشبه لحن العبارة في القرآن الكريم . ودليلنا على ذلك ما ذكره الشدياق نفسه ، واورد مارون عبود ، عن مجادلته (اي الشدياق) مع المبشر والمستشرق الدكتور " لي " حول كيفية اختيار العبارة ، واهتمام " لي " بان

(١) المصدر السابق ، ص ٨٨ ، انظر ترجمته .

(٢) = = = ص ٣٠٠

(٣) ٤ ، ٥ ، ٥ : الشدياق واليازجي ، للاب انطونيوس شبلي ، ص ٥١

(٦) : بروتوكولات حكما صهيون ، ص ٣٠٠ وما بعدها (بتصرف) .

تكون بعيدة كل البعد عما يشبه نسق العبارة في القرآن الكريم أو الحديث الشريف .

وهذا شي " مما أورده مارون عبود في " صقر لبنان " نقلا عن الشدياق في " كشف المخبا " ، وكلما رأى جملة (اى الدكتور " لي ") تنتهي بالواو والنون والياء والنون ، قال انها مضاهة للكلام القرآن فيبدلها ، حتى انه رأى هذه الجملة وهي : " وانتم على ذلك شهود " ، فقال : " ان هذا الوقف يشبه وقف القرآن ، فمن ثم بدلها بقوله : " وانت شهود على هذا ، ووجد عبارة اخرى وهي : " وما اولئك بما بشرين من هناك الينا ، فقال : " هذا التركيب فصيح ، فبدل عابرين بـ " يعبرون " ولم اتعجب (اى الشدياق) من تغييره ، وانما تعجبت من انه شعر بحسن هذا الترتيب " (١) .

ب - تعريب الكتب العلمية والادبية والفلسفة والتاريخية :

انحصرت دائرة التعريب ، باتساع النشاط التبشيري في لبنان ، فقد تطور الاهتمام بالنقل من اللغات الاجنبية في منتصف القرن الماضي تطورا ملحوظا ، حيث قامت الرسائل الاجنبية وبعض مؤسساتها بتعريب بعض الاثار ونشر العديد من المخطوطات .

ولعل اهم خطوة قام بها مبشرو هذه الرسائل ، هو ما ادخلوه من العلوم الى البلاد ، وما اوجدوه من مصطلحات تقنية وفنية . ونخص بالذكر ، من هذه الرسائل الكلية الاميركية في بيروت التي اشتغلت في نقل العلوم العصرية الطبيعية والطبية . . . غير ان هذا حصل لفترة مابعد تأسيسها واخذها التعليم باللغة العربية ، وهي فترة لاتتعدى العشر سنوات . . . اما بعد ذلك فقد عاد التدريس الى الاخذ بالمصطلح الاجنبي واللغة الاجنبية .

وكان قد نقل الاساتذة في تلك الفترة لتلاميذهم عديدا من الكتب الى اللغة العربية عن المؤلفين الاميركيين والانجليز ، وذلك في مدرسة " عبيه " بالذات .

(١) صقر لبنان ، مارون عبود ص ٩٤ - ٩٦ نقلا عن الشدياق في " كشف المخبا " .

ونذكر من هؤلاء* الدكتور كرنيلوس فاندريك (١٨١٨ - ١٨٦٥) الذي ألف

في موضوعات علمية كثيرة ، كاعماله في الطب والرياضيات ، والفلك ، والطبيعيات ،
والكيمياء والجغرافيا والتاريخ . ثم الدكتور يوحنا ورتبات (توفي سنة ١٩٠٨) الذي
ألف في التشريح والفسولوجيا ، كما قام بعمل مشترك مع الدكتور بورتوني إصدار معجمين
انكليزي عربي وعربي انكليزي .

ثم الدكتور جورج بوسط (توفي سنة ١٩٠٩) الذي ألف في الطب والتاريخ
الطبيعي . وغير هؤلاء* الاساتذة (المبشرين) .

عذا وقد نبغ من تلاميذ الكلية الاميركية طبقة من العلماء اللبنانيين
اشتغلوا بالعلوم الطبيعية وعربوا الكثير من الكتب ، لم يظهر منها الا القليل ، كذلك
المصطلحات الطبية والتقنية التي قام بتعريبها الدكتور " بشارة زلزل في سنة ١٩٠٥)
والذي ينسب له الكلمات ،

- الآخ (للزلال)

- الامرط (لما ليس له ريش ، ولا زغب من الطير)

- الانسلاخ (لتحول الهوام من حالة الى حالة)

- الاشرع (للطويل الانف من القروذ)

- البطريق (للسمين من الطير) .

الح . . .

وغير ذلك من المصطلحات التي تتسلطأفة اخرى من الكتاب ، كمجموعة

الكلمات التي انشأها ابراهيم اليازجي ، نورد منها على سبيل المثال :

Gravate	الارسة مقابل
Bacilles	الذنبويات مقابل
Bateau à vapeur	= الباخرة
Carte	= البطاقة
Salon	= البهو

Foyer	البسورة
Balcon	الجناح
Lentille	العدسية
Salle	الردهة

وفيها من الكلمات الواردة في مظانها .

وضع خليل اليازجي بُعيد ذلك الفاظا ، منها : الجواز ، والقفاز ، والنوط ،
والصبحة (لطعام الصباح ، خاصة) والجديل (لسير اللجام) ، اذ كان حبلا
مجدولا .
كما وضع نجيب الحداد : الصحافة . ووضع شاكر شقير : المنظرة ، والدكتور
خليل سعادة : آداب السلوك .

اما أحمد فارس الشدياق فسنخصص له المبحث التالي ، لما له من فضل على
التعريب ووضع الالفاظ . قام هذا اللغوي بعمل جبار ، اتحف به المكتبة العربية
بواقف من الكتب اللغوية ، والادبية المهمة ، التي انطوت على كثير من الالفاظ
المستحدثة والمصطلحات الجديدة . وقد وردت هذه الثروة اللفظية اكثر ماوردت
في كتابه " كشف المخبا عن فنون اوربا " وقد عدنا منها مايزيد على المائتي مصطلح
جديد . كما حفل كتابه " الساق على الساق " وفرة من هذه الكلمات التي اخذت طابع
الاحياء اللفظي في حين تميزت الفاظ " كشف المخبا " بطابع التجديد الوضعي
القائم على الاشتقاق او النحت او النقل الصوتي . والذي حدا بالشدياق الى الاهتمام
هذا ، كونه رحالة جاب بلادا كثيرة ، فقد عاش في مالطة حينما من الدهر ، استازا
للفقة العربية في النصف الاول من القرن الماضي ، فرأى في هذه الجزيرة مظاهر
حضارة حديثة جاء بها الانكليز الذين استعمروها .

وكانت هذه المظاهر متصلة بالحياة السياسية والاجتماعية والثقافية
وفيها ، ثم انتقل في عام ١٨٤٨ ، الى بريطانيا ، مجتازا فرنسا ، واقام في الاولى
عشرين شهرا ، او اكثر ، وسكن الثانية مدة لم يحددها .

- كل ذلك أسعفه في التعرف على الحياة العصرية ومنجزات الحضارة الأوروبية ، فاندفع من غيرته على العربية ، يضع اللفظ العربي لكل ما تراه عينه رافضا ان ينقل اللفظ بحرفيته ، لما تتمتع به لغته من طواعية على المعرفة وتقبل العلوم ، وقدرة على الاستيعاب . متوسلا لذلك ،
- بحث الفاظ عربية تقابل المصطلحات الاجنبية ، او اعتقد انها تقابلها .
 - طريقة التعريب ، واجرا الالفاظ المعربة على اوزان العربية ، اذا امكن والافأبقاها على حالها .
 - الترجمة الحرفية ، وقد عمد الى ايضاحها ليقينه انها ستكون مغلقة على القارى .
 - التعبير بجملة عن اللفظ حين الحاجة .
 - استعمال الفاظ عامة (احيانا) درجت على اللسن والقبها الناس .
- وانا نورد بعض هذه المصطلحات على سبيل المثال لا الحصر ، مختمين بذلك هذا الفصل ،

- البَدَل (١) . د . المفاصل مقابل rhumatisme
- فلانلة . وقد سماها غلائل الصوف مقابل flanelle
- كشك (١) وقد سماها روشن مقابل kiosque وهي كلمة عامية يراد منها المأوى الذى يقام على ضفاف الأنهر ، أو في الحدائق ، من اعمدة خشبية ومن اوراق الشجر .
- الكرنيفال (٣) : هكذا بالياء مقابل Carnaval
- الملهى : مقابل Théâtre . قال : الملهى وهو المسمى عندهم بلفظة "التياطر" او "التياطرو" .

(١) انظر " انواسطة في معرفة احوال مالطة " .

كشف المخبا عن فنون أوروبا ص ١٤ .

(٢) = = ص ١٨ .

(٣) = = ص ٢١ .

— البَدَال (١) اطلقها على بائع الاطعمة . صحح فيها ما جاء في القاموس
من ان يبيع الاطعمة هو البقال .

— مدرسة جامعة (٢) : مقابل Université
— المشايخ ج شيخ (٣) : مقابل Professeur واستعملت في ص ١٢٥ لفظي
المعلم والاستاذ .

— دار كتب مقابل Bibliothèque

— برنيطة (٥) مقابل Chapeau ولم يستعمل قبعة .

— بارون (٦) مقابل Baron وهكذا مركز Marquis ودكتور

ودكتور Doctor ص ٤١ . وجعل مؤنث دكتور دكتورية

ص ١٢٥ .

— بوسطة المكاتيب : مقابل Poste ص ٤٥ ورد في ص ١٤٤ لفظ : البريد .

— مستوفي الاموال مقابل Percepteur ص ٤٥

— ناظر الجمرك مقابل = Douanier

— كبير القضاة : = Juge suprême

— الجعة " مقابل La bière ص ٤٦

— حافلة السجود Diligence ص ٧٠ بمطلي عربية سفر

— قبوة : مقابل Tunelle قال : دخل الرتل - اي

القطار - في قبوة مظلمة منقورة في الصخور فصار فيها نحو عشر دقائق .

— دوائي : مقابل Pharmacien ص ٧٤ واسماء : عقاقيري ص ٢٢٨

وسماء صيدلي . ص ٢٧٢

— ميزان الهواء : مقابل Baromètre ص ٩١ .

— ابرة المغنطيس : مقابل Boussole ص ٩١ .

— الرتل : Train ص ١٠٠

— مزجية : Locomotive ص ١٠١ قال : وهي الالة التي يقال

لها انجن (بالانكليزية) Engine (.

(١) نفس المصدر ، ص ٢٥ ، (٢) ص ٢٥ ، (٣) ص ٢٦ ، (٤) ص ٢٦

(٥) ص ٣١ ، (٦) ص ٤١ .

• / •

- كواند مالية مقابل monnaie en papier ص ١٠٢ يعني بها الاوراق المالية .

- الظلل ج ظلة : مقابل Parasol ص ١٠٧ ، للاتقاء من الشمس .

- الملاكمة مقابل Boxe ص ١٢٠

- المصايفة مقابل escrime ص ١٢٠

- الفقه Droit ص ١٢٧ وهي اليوم : حق .

- الشرع : مقابل Loi ص ١٣٨ وهي اليوم القانون .

- المناصع : مقابل Pissoires publique-urinoires قال (ص ٢٧٣) :
هي المواضع التي يتخلى فيها الانسان للبول او لقضاء الحاجة .

- نجي مقابل Secrétaire

- قلعة البلد مقابل Hotel de ville يعني بها دار البلدية ص ٢٠٠ .

- عيبة ج عياب مقابل valise ص ٢١٦

- الانج آراج او القنطرة : مقابل arc ص ٢٢٥

- المنطاد مقابل ballon ص ٢٧٧ .

وكثير غيرها من الالفاظ الوفيرة التي جاءت في ثنايا هذا الكتاب ، هذا

عدا عن عشرات الالفاظ التي وردت في الساق على الساق . ^{عن} بتفصيل ذكرها المجالي .

دعيني

الفصل الخامس

النقد المعجمي عند لغوي

القرن التاسع عشر

في لبنان

المعنا في الفصل السابق الى ان الدرس المعجمي ، عند علمائنا
اللبنانيين في القرن الماضي ، لم ينفصل عن الدرس اللغوي . وانتهينا الى القول
ان اسباب مشاكل المعجم العربي - كما رآها هؤلاء - تنحصر باربعة قضايا هي
على التوالي :

- الجمود الذي ساد المعجم القديم

- سوء الترتيب

- قصور الشرح

- الابهام والغموض في التعريف .

كما اشرنا في حينه الى وقفة الشدياق التي نحت بالعمل المعجمي ، من جديد
جعله فني مأمّن من العثار او التخلف . وذلك بنقده لمعاجم القدامى ، بسوء
بمعجم القاموس المحيط للفيروز آبادي ، وختاما بقاموس محيط المحيط لمعاصره بطرس
البيستاني .

هذا ، وقد ظهر في القرن ، نقود معجمية اخرى ، الى جانب اعمال الشدياق
الكبيرة .

تبدأ بعمل رشيد دحداح في تصحيحه وتنقيحه لمعجم المطران جرمانوس
فرحات " احكام باب الاعراب عن لغة الاعراب واشرافه مع اخيه سمعان الدحداح
على طبعه في مطبعة باراس وسافورييني في مرسيلية سنة ١٨٤٩ م .

اما العمل الثاني ، فهو كما اسلفنا ، للعلامة احمد فارس الشدياق في معجمه
الانتقادي " الجاسوس على القاموس " الذي سنفرّد له بحثا خاصا .

ويتلو هذا العمل الكبير بحثا نقديا للمعلم سعيد الشرتوني ، اورد في
نهاية ذيل معجمه " اقرب الووارد ، بين فيه كثيرا من الاغلاط التي وقعت في القاموس
المحيط .

كما ، لم يخل الامر من بعض المقالات النقدية كذلك التي فتحت عن المناقشة بين الشدياق و ابراهيم اليازجي - وما كان منها د اخلا بسبب او بآخر في مبحثنا هذا . سيما بعد ان انتقد اليازجي معجم سر الليال للشدياق . وعلى هذا ، يمكننا ان نرتب هذه النقود حسب تدرجها التاريخي ، مبتدئين بنقد الدحداح ، فالشدياق فالشرتوني .

١- النقد المعجمي عند رشيد الدحداح : (١)

لما كان الدحداح يرى ان اللغة مادة العلوم ، ولما كان بالتالي ، لابد من طبع كتاب جامع لشملى نوادر العربية ، متحل بلطائف حركات تجعلها قريبة المتناول " لتكون قواما لاساطير الكتاب . ومسرود / ^{نظم} متحل باشراقة عيون الالهاب ، وقواما لجثمان قرائح اولى الذوق السليم ، فقد استوجب ذلك جمع كتب لغوية كثيرة تكون مادة بحثه ، واصل منبهه الذى يريده ، ويبدو ان الدحداح لم يركتابا يعول عليه ، لكنه يقول في مقدمة الكتاب انه رأى " اجل ما الفاني اللغة من كتاب : القاموس المحيط ومختصره باب الاعراب عن لغة الاعراب " (٢) .

بيد ان الدحداح ينتقد صاحب القاموس (الفيروز آبادى) ^{كثير} حيث قال : " انه كان الفاني اللغة كتابا ستين سفرا وسماه باللامع المعلم المعجاب ، الجامع بين المحكم والعباب . وانه لما اجتز الطلاب تحصيله ، وفات المراجعين تفصيله ، سئل تقديم كتاب وجيز فاختصر منه كتابا محذوف الشواهد ، مطروح الزوائد وسماه بالقاموس المحيط " (٣) .

(١) رشيد الدحداح : ١٩٤٨ - ١٩٤٩ / ١٨٨٨ - ١٨٨٩

(٢) و (٣) : انظر مقدمة احكام باب الاعراب للدحداح ص ٢ .

ويرى الدحداح ، انه كان من الاولى للفيروز ابادى ان يقول : " بعض الزوائد
لانه لم يزل يحوى منها جما غفيرا " (١) .

كما ينتقد ، في اهماله عن ذكر كلام كثير ، تد اولته السنة الملما ، وادعته
بطون كتبهم " فتعرض لذكرها شارحوه . وعاب عليه اهمالها متصفحوه (٢) مما جعل
المطالع لا يجد فيه الا الكلل والملل قبل ان ينال بغيته منه .
وهذا ما حدا بالدحداح الى ان يضمن كتاب " باب الاعراب " هذا ، شروحات
فيها عدة فوائد ، عشر عليها " لدى المطالعة " . وقد قدم بالفصل " بهذه ما تعلن
بعض ما ذكره مما لا يختص بكتب اللغة وطلابها ، وبعض ما اهمله وهو من اخص ما يلزم
لاربابها " . (٣) .

والحقيقة ان الدحداح لا يريد انتقاد الفيروز ابادى وانما هدف الى تصحيح
ما جاء من افلاط وتحريف وتصحيف وقصور في معجم " باب الاعراب " للمطران جرمانوس
فرحات ، الذى لخص فيه القافوس المحيط .

ويعرف الدحداح بهذا الكتاب ويغرض صاحبه منه فيقول : " انه لما كان ديدنه
(اى المطران فرحات) اكساب الفوائد للناس . ورأى عدم شمول نفع القاموس للخاص
والعام . اشهد لنا صافي شهادته ، وزيد خلاصة زيدته وبمختصر سماه باب الاعراب
عن لغة الاعراب ، وآثر فيه الايجاز على الاطناب ، واحسن ترتيبه " (٣) .

ويرى الدحداح ان المطران قد تعمد ترك كل مالم يره كثير النقل والتداول
رفية في تصغير الحجم وتسهيل النسخ والتناول . والكفى ببعض معاني الفصل

(١) و (٢) : انظر مقدمة احكام باب الاعراب للدحداح . ص ٢ .

(٣) : انظر مقدمة باب الاعراب . ص ٣ .

وتعدياته وبيعض الجموع والصادر والاسماء عن بعض . . وكان ابي الطران قد اعتمد في عمله هذا على " نسخة من القاموس محرفة ذات اقلاط " .

لذا ، قام الدحداح بمقابلة خمس نسخ من باب الاعراب مع نسخة اختارها من القاموس ، محكمة الضبط ، " وهي المطبوعة في الهند " ، واخذ يراجع كلمة فكلمة ، ملاحظا كيفية تصرف المختصر ، ملقطا ما تركه ، مصلحا ما يتخيل انه ابيهم عليه لعدم صحة النسخة التي نقل عنها ، ثم يعود الى باقي الكتب واحدا واحدا ليحتج منها ما يجده سهلا من القاموس ، وليحل كل شي " محله " (١) .

هذا ، وقد ظل الدحداح متتبعا اثر المؤلف " فرحات " في النص على بعض الحركات واستعمال الاحرف التي استعملها علامات لوزن الفعل الثلاثي والكلمة " معروف " وكلمة " جمع " لكنه زاد " جج " علامة لجمع الجمع " لانه حياه الله قد كان ادرجه بجملة الجمع مرة وتركه اخرى " . كما جمل اضافاته بين قوسين .

اضف الى ذلك ، ان الدحداح ، صرف وقتا طويلا في المطالعات حتى جمع المواد التي كانت متروكة منه بتمامها ، واكمل لكل فعل مصادره وانواع معانيه وتعدياته واسماءه ، ولكل اسم فعله وانواع جموعه قياسية كانت او غير قياسية لاسيما جمع التكسير الذي اكثره سملحي ولا سبيل الى معرفته الا من كتاب اللغة .

كما نبه على المتضاد وعلى الشواذ من الجموع وغيرها ، وعلى المذكر والمؤنث وعلى ما يحتمل الوجهين ، وعلى الكلمات الاجنبيات انها معربة .

كما ذكر جملة من امثال العرب الدائعة بين العلماء ، ومن اسماء مشاهيرهم المعروفين بعدد او ذم ، واشكل بالحركات كل كلمة يمكن ابهامها او التباسها . دون ان يودى به ذلك الى التعرض لتغيير شي " من الاصل الا ملاح له انه غير صحيح " وذلك ببعض عبارات وكلمات واحرف وحركات .

ويوضح الدحداح ، بتواضع كبير ، " ان ماصححه وقيمه عما كان عليه ان هو الا نقل مما تعب فيه الطران جرمانوس فرحات ، مقتصرا عمله على التدقيق في المقابلة .

(١) نفس المصدر السابق ص ٣ .

وهذه بعض نقود رشيد الدحداح على كتاب باب الاعراب • وتصحيحه
لما جاء فيه من توهم او غلط او تصحيف او خلل في اوزان الفعل وغير ذلك مما سيأتي
ذكره • نورد هنا بشكل يجمع بين صورة المادة في القاموس المحيط وباب الاعراب
عند المطران •

١- ماجا من تصحيف واستهم عليه من النسخة التي نقل عنها

٢- عبارة الفيروز آبادي	ب- عبارة جرمانوس نرحات	ج- تعليق الدحداح وتصويبه •
ـ خلب عقله سلبه اياه	وخلب عقله ملكه بوعظه	يقول الدحداح وذلك لانه صاحب القاموس قال سلبه اياء وضعه فتصحف عليه العض بالوعظ •

ـ الطبخ الانضاج استوا واقتهدارا	الطبخ الانضاج والاستوا	مع ان الاستوا الاستقامة والاعتدال ، لا كما تستعمله العامة بمعنى النضج •
------------------------------------	------------------------	--

ـ وذو المقعدة ^{القعدة} شهر كانوا

قال المطران : " وذو المقعدة
شهر كانسون

يقعدون فيه عن الاسفار
ج ذوات القعدة •

ـ الجمهور جل الناس

اجلا الناس • (١)

٢- ماجا من تغييرات دقيقة :

ـ الفرار القليل من النوم (وغيره)	فقال المطران : والفرار النوم القليل
ـ والوجه الملوز المليح	= = والملوز بالضم وفتح المشدد الوجه المليح
ـ وصدع بالحق تكلم به	= = وصدع تكلم بالحق (٢) •

(١) و (٢) : انظر نفس المصدر ص ٦ •

٣ - ما تمعّد استعماله بخلاف ما استعملته اهل اللغة فارجمه الدحداح الى اصله :

٢ - عبارة الفيروزابادى

ب - عبارة المطران

- رهبوت خير من رُحوت اى لان
ترهباً خير من ان ترحم

فقال المطران ، ورهبوت خير من رحوت
اى الرهبنة خير من الرحمة (١) .

- وانتدب الله لمن خرج في سبيله
تقل به وفقر له وسارع بثوابه .

... وانتدب الله الراهب تكفل به .

- القنارة ما تقر به عن الاثام من صيام
و (صلاة) وصدقة ونحوهم .

قال المطران : والقنارة مشددة ما يضعه
الكاهن على المعترف من صيام وصلاة وصدقة
تفي عن آثامه .

ويعلق الدحداح فيقول : " فالعرب ما خصصوا هذه الكلمة لامر الكاهن ، فلا يسوغ لنا
اذا تخصيصها ولا داع لذلك فهي تعم ما يكون بامر الكاهن او بدونه .

- ومن الناس من يعبد الله على حرف اى
على وجه واحد وهو ان يعبد الله على السرا
لا الضرا السح . . .
فقال المطران : وهذا راهب يعبد الله
على حرف اى على حال واحدة في السرا
والضرا (٢) .

٤ - ما نص فيه على حركات بعض الكلمات بخلاف الصواب لالتباس قياسها عليه :

يقول الدحداح في هذا النقد :
" لا يخفى ان صاحب القاموس يستعمل غالباً القياس والتشبيه عوض النص على
الحركات .

(١) نفس المصدر ، ص ١٠

(٢) نفس المصدر ص ١١

"مثلا ، لو شا" ان يعبر عن حركات : ^{معبر} معبر ومعبر . قال كحس ومنبر عوض
قوله : بضم الميم وكسر القاف او بكسر الميم وفتح القاف . فلوزن "فعال" جمل لفظية
"كتان" قياسا .

ويتابع الدحداح قوله :

"وكان المؤلف اي جرمانوس فرحات (كان يعتقد كسر كاف (الكتان) ، فاذا
كل كلمة قيس عليه نصر عليها بالكسر وفتح المشدد . فمن ذلك : الكذاب والنجاح -
الطراد - النجاد - الخ . .

"واما الوضاح والصراح . . فنصر عليهم بالضم وفتح المشدد .
"والحداح والسوار والفسان . نصر عليهم بالكسر فقط .

"والنجاج والقداح والطساس والنقاش . . نصر عليهم بالشد فقط ، ويعلق
الدحداح على هذا بقوله : "ضع ان صاحب القاموس قاس الجميع على "كتان" (١) .
٥ - ذكر بعض ما اختصره الدحداح مما لا يختص بكتب اللغة :

حذف الدحداح في هذا المبحث كثيرا مما تناوله الطران في مواده وكان دخلا
في اصول الشريعة او الطقوس المسيحية .

لتعليقه على ماورد في مادة رح م مثلا " في رح م حذفت ما شرحه (اي
الطران) عن الرحمة الروحية والرحمة الجسدية لكونه مسمى كتابه "باب الاعسراب
عن لغة الاعراب ، لاكتاب التعليم المسيحي (٢) .

ومثله ما جاء في "الففران" وهو مسامحة العذاب الواجب من اجل الخطيئة
المعقولة وتركت (اي الدحداح) التطويل الذي كان هنا لانه ليس هذا محله " (٣) .

(١) انظر نفس المصدر ص ١١

(٢) = = = ١٠ -

(٣) = = = ص ١٠ .

"وقوله حذف ما ذكره عن اختلاف اسم "قارون" باللغة الرومية ، ان لفائدة
في ذلك "والكلام هنا على العربية لا على غيرها .

٦ - ما انتقده فيه على خطأ القياس :

أ - مما يقاس من السجموع على "قراءة" ونص عليه بالتحريك ،

وخلد من ديكسة . . ونص على قراصة وقططة بالفتح .
ويعلق الدحداح بقوله : مع ان صاحب القاموس قاسها على قرادة ايضاً (١) .

ب - وما يقاس على "زنبور" ونص عليه بالفتح وضم ما قبل الواو :

- العنقود ، الزحلوقه ، الخرطوم ، الزلقوم . .

ج - وما يقاس على "مكيث" و"قنديل" ونص عليه بالفتح :

- الحديث ، القسيصة ، الانبيين . . .

د - وما يقاس على "مسكن" ونص عليه بكسر العين لحكمه بان كاف "المسكن"

مكسورة ، مع ان كسرهما شذوذ وقياسها الفتح ،

- المفتح ، المطبخ ، المعشر (٢) .

هـ - مانس عليه بالفتح من مصدر واسم الثلاثي وحقه بالضم :

النشور ، الكروزة ، الطموس ، القسوسة . . .

و - مانص عليه بالفتح من اسماء الحرف التي حتمها بالكسر :

الخبازة ، الخياطة ، البزازه ، الخرازة . . .

هذا وقد جعل "الخبازة" بالضم مع انه - كما يقول الدحداح - كسر النقاشية ،
والخراطة واشاطة والطباعة . . ولم يذكر للنساجة والقداحة والنبالة حركة ما .

(١) و (٢) : نفس المصدر - ص ١٢ .

ز - مائص عليه بالفتح من وزن فعالة المضموم :

- الحتامة ، القلامة ، الفكاهة .

ح - مائص عليه بالفتح من المصادر والاسماء التي هي على وزن فعال المسكورة :

- العفاس ، الشقاق ، التقالسة ، الحكاية .

ط - مائص عليه بالفتح من المجموع التي حذفت الكسرة :

- العئز - عناز . المحض - محاض . القط - قطاط . الضعف - ضعف (١) .

ي - مائص عليه بالفتح من وزن مفعمال المكسور :

- المنظار ، المنخدار ، المخلاف ، المعناق .

ك - ذكر بعض كلمات مختلفة الحركات ونص على جميعها بالفتح :

- المئثور - الاوز - الحجاز - العكاز - خراسان .

- ضعف ضعفا وضعفا وضعافة . فقال (اى المطران) بفتح

ومثله قوله ج ضعاف وضعفا وضعفة وضعفى بفتحهن .

٧ - ما انتقد عليه في مساوئه الجائز (عند الفيروز ابادى) بالثبوت وبالافصح :

مثال : الصلد ويكسر . فقال المضران : الصلد بالفتح والكسر .

- القميص ويؤنث . فقال المطران بذكر ويؤنث

- الام وقد تكسر . فقال المطران الام بالضم والكسر .

- القفا وقد يمد = = بالقصر والمد .

٨ - بعض ما نقله الدحداح الى محله : (١)

مثال : صراه - يصريه ، وما بعدها . كانت في باب الواو ، فنقلها الى باب اليا . وهكذا : الصميان ، وصى يصي الى آخره . . نقلها من باب الواو الى باب اليا .

- الطخا ، وما بعدها ايضا ، كانت في باب الواو فنقلها الى باب اليا ووضع الطخوة بمحلها في باب الواو .

هذا ، وقد ورد نقود اخرى في الكتاب ، اذا رتببت بشكل ^{جهد} ، بالاضافة الى مختصر المطران لقاموس المحيط ، فانها تشكل مادة معجمة جديدة بالاهتمام والرقابة .

ويمتدلى من كل ما تقدم ، ان رشيد الدحداح ، في عمله هذا ، قام بعمل كبير استهدف من خلاله ضبط بنية الكلمة ، ووزان الافعال ، وتصحيح العبارة ، ورد المحذوف ان كان مفيدا ، ومقابلة الكلمات المزددة بالنسخة الاصلية ، وحذف ما زاده المطران من طقوس مسيحية . كما صحح ما جاء " مقيدا فاطلق " ، او ما اطلق فقيده ، وغير ذلك من المباحث . .

٢ - النقد المعجمي عند احمد فارس الشدياق :

ثمة علاقة مشتركة في كل مباحث النقد المعجمي عند لفويينا في القرن الماضي هذه العلاقة كثيرا ما جعلت نقودهم تصدر عن مورد واحد ، او انها استهدفت معجما بعينه ، دون غيره . نعتني بهذا القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزابادي . فلقد دارت اعمالهم حوله ، وتناولوه باكثر من نقد حتى صار قاسما مشتركا لكل ماجا من دراسات معجمية رأيناها في " محيط المحيط " للبستاني واقرب الموارد للشرتوني .

(١) راجع نفس المصدر صفحة ١٤ .

ويحدد ثنا الشدياق عن اهتمام الناس - يومها - بهذا الكتاب ، وهو ما دفع به الى مطالعته ، والتأمل في مادته . لكن الشدياق ، بعد المراجعة ، والتدقيق ومقابلة الكتاب بمصاحم اخرى ، خلص الى نقد عام حدد فيه موقفه للغوى من المعجم العربي عامة ، والقاموس المحيط خاصة .

وقد ضمن نقوده هذه في كتاب سماه " الجاسوس على القاموس " بين فيه مناحسي القصور والايهام او الايجاز والايهام وسو ترتيب الافعال ومشتقاتها في هذه المصاحم القديمة .

كما شرح الاسباب الرئيسية التي حملته على تأليف كتابه هذا بقوله :
 " فاني لما رأيت في تعاريف القاموس للامام القاضي مجد الدين الفيروزابادي قصورا وايهاما وايجازا وايهاما ، وترتيب الافعال ومشتقاتها فيه محوج الى تعجب نفسي المراجعة ، ونصب في المطالعة . والناس راؤون منه ، راضون عنه ، احببت ان ابين في هذا الكتاب من الاسباب ما يحزن اهل العربية في عصرنا هذا على تأليف كتاب في اللغة يكون سهل الترتيب واضح التعاريف . شاملا للالفاظ التي استعملها الادباء والكتاب وكل من اشتهر بالتأليف ، سهل المجتنى والتي الفوائد ، بين العبارة ، واتي المقاصد " .

ويرى المؤلف في موضع اخر ان الحاجة ، باتت ماسة ، الى زيادة تفصيل لمفردات اللغة ومركباتها ، وتبيين لاصولها من متفرعاتها ، وافراز لافعالها من مشتقاتها . وهو امر لا يتأتى - حسب رايه - الا " باظهار ما في القاموس من القصور والخلل بنوع لا يحمل القارى على الطلل ، ولا يقنطه من تحصيل فوائد اللغة التي هي خير محصل . غير قاصد بذلك التنديد بالمعاييب او التعمديد للمثالب " (١) .

ويعتبر الشدياق ، بشكل جازم ان المؤلفين الاولين القوا وبرعوا ، واجادوا ، وصنفوا ونفعوا وافادوا ، غير انهم القوا كتبهم على حسب افهامهم واذعانهم ، وانهم اهل زمانهم ، فاختصروا واوجزوا واثاروا ورمزوا .

ويحدد الشدياق موقفه من صاحب القاموس بالذات فيقول :

(١) الجاسوس على القاموس ، الشدياق ، من المقدمة ص ٢ - ٣ .

" اني رأيت جميع كتب اللغة مشوشة الترتيب كثر ذلك او قل . وخصوصا كتاب القاموس الذي عليه اليوم الممول ، فان مؤلفه ، رحمه الله ، التزم فيه بالابحاز ، حتى جعله ضربا من الالفاز " (١) . وبين المؤلف طريقته في النقد بقوله :

" لكنني التزمت القصد ، فيما اوجهه عليه من النقد ، بل ارد عنه اعتراض المحشي والشارح حين اجد مجالا للرد ، فاني لست ممن يبخسون الناس اشياءهم ، او يتهامون عن احسانهم فلا يرون الا اسوأهم " (٢) .

هذا ، وقد وزع المؤلف نقوده في الكتاب على اربعة وعشرين نقدا ، حصرناها في ثلاثة اتجاهات :

- ١- خطأ التوهم
- ٢- قصور العبارة ، او غموضها في التصريف .
- ٣- سوء الترتيب .

١- خطأ التوهم :

تناول الشدياق في هذا المبحث كلا من الغلط والتوهم الوارد في قاموس الفيروز آبادي ، وما جاء عن طريق المقابلة ، في غيره من المعاجم القديمة ، منتقدا على التحديد ،

- ٢ - فيما قيده صاحب القاموس في التعاريف وهو مطلق ، كقوله : بكات الناقة قل لبنها . ويرى الشدياق ان كلام المؤلف " يوهم ان ذلك لا يقال الا لاناث الابل وليس كذلك ، ففي الصحاح والعياب بكات الناقة والشاة " (٣) . وهكذا ، التأتأة مشي الطفل ، فظاهره ان لا يقال لمشي غير الادي من صفات الحيوان وليس كذلك ، ففي العباب اكثر ما يقال في التيس " (٤) .

(١) و (٢) : نفس المصدر السابق . ص ٦

(٣) و (٤) : الجاسوس ، الشدياق ، ص ٢٢٠ .

ب - فيما اعمل وضع الاشارة اليه ، واخطأ موضع ايراده . وكان من عادة صاحب القاموس ان يضع قبل ^{الاصناف} المحتل الاخر واوا او يا . لكنه - كما يقول الشدياق - " ذهب عن مراعاة ذلك في بعض المواد . ان لم يضع قبل مادة بنى واوا ولا يا ، وكذلك التمسأى بمعنى الافساد . لم يضع قبلها شيئاً " (١) .

ج - في خلطه النصيح بالضعيف والراجح بالمرجوح وعدوله عن المشهور : يرى الشدياق ان هذا النوع من الغلط اكثر من ان يحصر . وقد نقل هنا شيئاً من نقد الامام الخاضعي في حرف الهمزة مائمه :
 " جفا الهمزة في القصص كلها . والوادي والقدر رميا بالجفا . اي الزيد كاجفا . لكنه ضعيف قليل كما يشير اليه قول الصحاح وغيره واجفات لغة فيه . وبمده وجفا الباب لقلقه كاجفاه . اجفات الهاب لغة في جفاته واجفات القدر لغة ضعيفة في جفاتها وبه يعرف ما في كلام المؤلف من الاجمال والابهام وخلط النصيح بالضعيف المرجوح من غير تمييز " (٢) .

د - فيما وهم فيه لخروجه عن اللفظة ، " لقوله الصومعة كجوعرة بيت للفصاري وهي مخنصة للراهب " (٣) . وقوله السقلب جيل من الناس وهو سقلي ج سقالية ثم قال في فصل الصاد الصقلاب بالكسر الاكل والابيض والاحمر والشديد من الروس ومن الجمال الشديد الاكل والسقالية جيل تتأخم بلادهم بلاد الخزر بين بلخز وقسطنطينية ويقارن الشدياق هذا التعريف بمباراة العباب حيث ورد ان السقالية جيل حمر الالوان صهب الشعور يتأخمون الخزر ويمض
 جبال الروم . . .

وهنا يورد الشدياق تعليقا من عدة اوجه :

(١) الجاسوس ، الشدياق ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٢) الجاسوس الشدياق ، ص ٣٢١ .

(٣) = = ص ٤٠٠ .

• ان المصنف ذكر اولا السقالبية بالسین ثم اعاد ذكرهم بالصاد وهم جيل واحد والاشهر بالصاد • فلو قال الصقالبية السقالبية او بالعكس للقى •

انه لم يقل ان هذا اللفظ معرب •

— انه عرّف بلغرائها مدينة الصقالبية وهو تناقض لانه قال ان بلاد الصقالبية تتاخم الخزر • ومعلوم ان الخزر في نواحي الاعواز بين فارس وواسط والبصرة وجبال الكور المجاورة لاصبهان •• على ان بلغر ليست مدينة بل مملكة •• السخ ••

هـ — في خطأ صاحب القاموس وتحريفه وتصحيفه ومخالفته لائمة اللغة ، لقوله في مادة فتأ " في فتأ ما فتأ مثلثة التاء مازال كما افتأ " •

ويرى الشدياق ان عبارة الحشي الكر هو المشهور الذي عليه الجمهور ، ولم يذكر اكثر التحويين غيره والفتح قريب منه نقله الجوهري عن ابي زيد وذكره كثير من النحويين كابن مالك وابي حيان وغير واحد •• واما بالضم فلا يعرف لاحد من النحويين ، وانما وجد في بعض الدواوين اللغوية واستبعدوه وانكروه وهو جدير بالانكار ، فانه قريب لم يذكره احد من مشاهير اللغويين ولا قاله احد من النحويين (١) •

و — في غلط صاحب القاموس ، في تذكير المؤنث وتأنيث المذكر خاصة لقوله في زعبل : " الزعبل كجعفر — من لم ينجح فيه الغذاء فمعظم بطنه ودق عنقه " وينقل الشدياق تصحيح الشارح ودقت عنقه • •

وهكذا شمل الشمال فهو عند الفيروز آبادي شي • كمخللة يغطى به ضرع الشاة اذا ثقلت ، ويرى الشارح تصحيح العبارة بـ " اذا ثقلت " اي الضرع " (٢) •

وفي " نضا الفضى كفننى كسهم بلا نضل ولا ريش • ومن الرمح مافوق المقبض من صدره والمنق او اعلاه او عظمه ، يقول الشدياق : " صوابه او اعلاها او عظمها " (٣) •

(١) نفس المصدر ص ٤٠٩ •

(٢) و (٣) نفس المصدر ص ٥١٧ •

٢- قصور العبارة او غموضها في التعريف :

اندرج تحت هذا القسم كل من النقود الخاصة في ايهاام تعاريف صاحب القاموس والتباسها او ما جاء في عبارته من قصور وعجمة وتناقض مع تبين للمناحسي التي قصر فيها المصنف عن الجوهرى . وما اهل الاشارة اليه ، واخطأ موضع ايراد ، ثم ما دخل في ففوله عن الاعداد ، وما كان من اضطرابه في مسائل القلب والابدال .

٢- ويذكر الشدياق امثلة عما نقله صاحب القاموس عن السباب والمحكم فابهمه ، ورواه فاعجمه . كقوله في مادة كلاً ، " والكلاً كجبل المشب رطبه ويابه : (١) " وعبارة الصحاح : الكلاً المشب وقد كثلت الارض والكلاًت فهي ارض مكلثة وكلثة اى ذات كلاً ، وسوا رطبه ويابه " (٢) . ويعلق الشدياق على هذه العبارة بقوله : " فالضمير في رطبه ويابه يرجع الى الكلاً لا الى المشب ، لان المشب هو الكلاً الرطب وبه صرح المصنف في تعريفه في مادته ومثله في الصحاح والمصباح " (٣) .

ب- كما انتقد الشدياق : خلل القاموس المحيط في ابهام المصادر ، فكثيرا ما يستغني مصنفه عن ذكر الفعل بذكر المصدر او اسم الفاعل والمفعول او اسم المكان وكثيرا ما يذكر المصدر ويحذف عليه اسما جامدة ، مما يجعل المطالع لا يطيق التمييز بينها ، فيظن ان المصدر اسم والاسم لا يستلزم ان يكون له فعل بخلاف المصدر .

ويرى الشدياق ، انه كان اولى بالمؤلف " ان يعبر بالفعل لانه لا يلتبس بصيغة اخرى وهو الذى يعبر به ائمة اللغة غالباً ، (٤) لكن المؤلف خالفهم في ذلك كما خالفهم في تعريف الالفاظ .

ومما اورده الشدياق في باب الباء من المصادر المتبسة بالاسماء الجامدة ، " على غير ممارس اللغة " فشي " كثير ولا سيما على وزن فعمللة . فمن ذلك قول المؤلف في ثغب " الثغب الطمن والذبح واكثر ما بقي من الماء في بطن الوادى والثغب محرقة .

(٢٤١) - الجاسوس ، ص ٥٤ - ٥٥ .

(٤) : الجاسوس ، ص ١٨٨ .

وهكذا في قوله " الشذب بالضم العطا والجزا " . " ولو نذكره بالفتح لقربه من الدلالة على الفعل " . " وعندى (أى الشدياق) انه بالضم والفتح ، فانه لفظة في الشك كما اشار اليه الشارح فهو بالفتح مصدر ، وبالضم اسم وعبارته في شك الشك بالضم الجزا ، والعطا ، وقد شككنا بالفتح واشككه " (١) .

ج - وما جاء في قصور الوضع عند المؤلف ، وذكره الشدياق ، قوله ، الزفت المل والغيط والطرود والسوق والدفع والمنع والارهاق والاعتاب ، الى ان قال ، وزفت الحديث في اذنه افرفه . يعلق الشدياق على العبارة الاخيرة بقوله ، " فقصره الفعل على معنى الافراغ يوهم ان الصداني الاولى لا فعل لها ، فذان عليه ان يقول زفت الانا ملاة وفلانا غاظه وطرده ودفعه ومنعه وارفعه والحديث في اذنه افرفه والاهل ونحوهما ساقها " (٢) .

د - ومن ذلك تخليط صاحب القاموس - المصدر باسم الفعل . . ومن الامثلة التي ذكرها الشدياق على هذا ، قول المؤلف في قات : " قاتهم قوتا وقوتا (الاول بالفتح والثاني بالضم) وقياته (بالكسر) . مع ان عبارة الصحاح - كما يقول الشدياق - " قات اعله يقوتهم قوتا وقياته والاسم القوت بالضم " (٣) .

وقوله : " ذخره كمنعه ذخرا بالضم " . و " عبارة المصباح ، ذخرت من باب نفع " (٤) والاسم الذخر بالضم (٥) .

وقوله في الشغل : " الشغل بالضم ويضمتين ، وبالفتح ويفتحيتين ضد الفراغ " ، وعبارة المصباح : شغله الامر شغلا من باب نفع والاسم الشغل بضم الشين وتضم الفين " (٦) .

(١) الجاسوس - ص ١٨٩ .

(٢) = = ١٩٠ .

(٣) = = ص ١٩٥ .

(٤) المصدر ، ذخرا (بالفتح) واسم المصدر ، ذخرا (بالضم)

(٥) نفس الصفحة

(٦) = =

هـ - هذا ، ومن ابهام صاحب القاموس في الفعل ، كما يقول الشدياق ، انه يسوى الفعل الثلاثي المتعدي بالرباعي المضاف لقوله في خضب خضبه " لونه لخصبه " . وفي شذب شذب اللحاء " قشره كشدبه " . وفي فتح : فتح ضد افلق كفتح وافتتح " . مع ان اهل اللغة ينبهون على ان المشدد يكون لمبالغة فعل او لتكثيره وربما قصر التصنيف على بعض معاني الفعل دون البعض الاخر " (١) .

ويزيد الشدياق " ولا وجه للقصر لقوله في ضرب ضربه يضربه وهو ضارب الى ان قال وضربت الطير ذهبت تبتغي الرزق ، وعلى يديه امسك ، وفي الارض خرج تاجرا او غازيا الى ان قال " الشئ " بالشئ " خلطه كضربه مع ان التصنيف يصح في المعاني المتقدمة عند قصد المبالغة والتكثير كما نبه عليه ابن عشام " (٢) .

ومن ذلك ايضا ، انه (اى الفيروز آبادى) يذكر الفعل مستقلا بالمعنى دون تعلقه بمفعوله ، وبعبارة اخرى انه اذا كان الفعل مشتركا في عدة معان علقه باحد هذه المعاني مستقلا به عن غيره وهو مناف لمعنى الاشتراك .

ومما اورده الشدياق على هذا ، قول المؤلف في بكر " ابتكر ادرك اول الخطبة واكل بالكرة الفاكهة ويعلق الشدياق بقوله : " والوجه عندى ان يقال ابتكر الخطبة ادرك اولها والفاكهة اكل بالكرتها " (٣) ويشير الى عبارة المصباح ونصها : " وابتكرت الشئ " اخذت اوله ، وعليه قوله عليه الصلاة والسلام من بكر وابتكر اى من اسرع قبيل الاذان ، وسمع اول الخطبة ، وابتكرت الفاكهة اكلت بالكرتها " (٤) .

و - ومما يدخل في هذا الابهام والغموض ، التباس العبارة في حالة العطف ، فكثيرا مايغير صاحب القاموس بالواو بدلا من او ، حتى التباس الامر على شراح الكتاب انفسهم " اذ لا يعلم هل مجموع المصطوف هو المراد بالتمريف او واحد من افراده " (٥) . ويرجع الشدياق سبب الابهام في العطف عند التماس الى " تحريم مخالفة المصنفين فان عاداتهم اذا اوردوا فعلا او اسما له معان متعددة ان يعيدوه دفعا للابهام ، وربما اتبعوه لفظه ايضا " (٦) .

١ - ٢ : الجاسوس ص ١٦٦

٣ - ٤ : نفس الصفحة .

٥ : الجاسوس ، ص ٤٠٠ .

٦ - نفس المصدر : ص ١٦٩ - ٢٠٠ .

في حين يورده المؤلف (اى صاحب القاموس) ويعطف عليه مالا يصح العطف به ، لقوله في زغب : " زغب الانا " كمنع ملاء وقطعه " .
ويعلق الشدياق فيقول : " وهو يوهى ان القطع يرجع الى الانا فكان حقه ان يقول زغب الانا " ملاءه والشئ " قطعة " وفي " فتح الما " نزع وصرعه وقلمه وقطعه وصره " . وحق التعبير ان يقال " فتح الما " نزع " ويزيد الشدياق : " بل الصواب فتح الدلو نزعها وفلانا خربها وصرعه والشئ " قلمه او قطعه " (١) .

ز - اما ابهام المؤلف في المجمع ، فينتقده الشدياق من عدة اوجه ، احدها ان صاحب القاموس ، اذا ذكر للكلمة عدة معان قصر الجمع على بعضها دون البعض الاخر ، " فيوهى بذلك ان البعض الذى تركه لاجمع له " (٢) .

مثال ذلك قوله : " الأبد محرقة الدعرج اباد وابود والدائم والتقديم والولد الذى اتت عليه سنة " (٣) .

ويعد الشدياق ما ذكره المؤلف من الجموع على فعل بضميتين من دون ذكر مفردة الا ماندر ، لقوله : " الحجج الطرق المحفرة ، الزلج الصخور الملس ، الممج السكارى " . (٤) .

ويتابع الشدياق ، فينتقد ما ذكره المؤلف على صيغة المفرد دون جمعه ، لقوله " رجل لكوك بتشديد الواو وهو القصير الملز او السمين " (٥) . والاردب كقرشب مكيال معروف لاهل مصر " .

وهكذا في امثلة كثيرة ، تفوق الاستيعاب ، كالروح والقح

(١) نفس المصدر - ص ١٩٩ - ٢٠٠

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٤

(٣) نفس الصفحة

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٠٧

(٥) نفس المصدر ص ٢١٠

ويلحق بهذا الإيهام " إيراد المذكر من دون التنبيه على مؤنثه " (١) .

ح - وما انتقد الشدياق في هذا الفصل ، عدم تنبيه صاحب القاموس على الاضداد حين ورودها ، واغفال تبيينها ، مع انه " كثيرا ما تكلف لاستخراج الضدية من الفاظ ليست من مظانها ، او غير محتطة لها " .

ومن الاول قوله ، وأدأ الشيء " حركه وسكنه ، لفأه اعطاه حقه كله او اعطاه اقل من حقه " . وهنا يشغل الشدياق عن الامام المناوي قوله : " فهو من الاضداد كما في العباب عن ابي تراب " (٢) .

ومن الثاني قوله : " الزم مثلثة القول الحق والباطل والكذب ضد " ويلحق الشدياق فيقول : " فان اصل الزم مرادف لمعنى القول ولذلك اقتصر عليه الجوهري فكما ان القول يشمل الصدق والكذب فكذلك الزم وقس عليه اشباعه " (٣) .

ط - ويدخل في هذا النقد ، ما جاء في القاموس من خلل ، ذكره الشدياق في فصل القلب والابدال ، واهمل المؤلف ذكره خلافا للمحكم والسبب في هذا ، او ما حاول تعريفه في هذا الخصوص ، فاختفى على الطالب اصله لما وقع فيه من التباس . ومن ذلك قوله : " الفأ الكثرة " ، " وهو الفنع نيه عليه اللسان " (٤) . و " نأناه " فسر " بكفه " وهو " نهيه نيه عليه في الصحاح " .

ي - هذا ، وقد انتقد الشدياق ، فيما قصر فيه صاحب القاموس عن الجوهري ، وهو امر يسود الكتاب اجمالا ، و " لك ان تقول انه في كل مادة لانه كان من همه استيعاب اسما المحدثين والفقهاء والباق ومناقب الاكويين ونحو ذلك " .

المراد

(١) ص ٢١١

(٢) ص ٢١٨

(٣) ص ٢١٨

(٤) ص ٢١٩ .

ويتابع الشدياق قوله : " ولم يهمه استيعاب الالفاظ اللغوية ، نعم ، ان قاموسه اجمع للشوارد والحواشي من الكلام من الصحاح ، الا ان الصحاح اوضح منه عبارة واكثر شرحاً وبهانا " (١) .

ويرى الشدياق ، ان لامناسبة من حيث الفوائد اللغوية والنحوية والصرفية ، بين الكتابين (يعني القاموس المحيط والصحاح) ، " فان القاموس المحيط عطل عنها الا مالدر " (٢) .

ويذكر الشدياق قول المصنف في درأ مانعه : " وتداروا تدافعوا في الخصومة وتداروا تدافعوا في الخصومة . . . وادراكم اصله تداركم " . في حين يقول الجوهري " تداركم اي اختلفتم وتداركم وكذلك ادراكم واصله تداركم ، فادفعت التاء في الدال واجتلبت الالف ليصبح الابتداء بها " (٣) .

كما عاب الشدياق اجحاف صاحب القاموس لمباراة الصحاح ، ويذكر امثلة على ذلك بقوله في ربا " رباهم ولهم صار ربهمة لهم اي طليمة . . . والمرأ والمرأ والمرأة والمرتبأ المرلبة " فذكر المرتبأ (الكلام هنا للشدياق) من دون الفعل والاولى عكسه ، وعبارة الصحاح ارتبأت القوم اي رتبهم " (٤) ، ومثله قوله في رفا " رفا السفينة كمنع ادناها من الشط والموضع مرفأ وبضم " .

يقول الشدياق " فكان عليه ان يقول رفا السفينة ادناها من الشط كأرفأها لان الضم في اسم المكان يرد من الرباعي حكاه ابن الاثير وغيره ، حتى ان الجوهري اقتصر عليه ، ولهذا قال المحشي السجب كيف تمرش للمكان ولم يتمرش لاصل فعله الرباعي " .

(١) نفس المصدر ، ص ٣٣٧ - ٣٣٨

(٢) نفس الصفحة

(٣) = =

(٤) نفس المصدر ص ٢٢٨ .

وهكذا في "نساء انتصاف في المعنى تباعد" و"عبارة الصحاح" - كما يقول الشدياق - "انتصاف عنه تأخرت وتباعدت ، وكذلك الابل اذا تباعدت في المعنى" (١)

ولم يكن نقد الشدياق مقتصرًا على معجم القاموس المحيط فحسب ، بل كثيرا ما كان ينتقد في ثنايا ابحاثه العامة ، مسائل لم يأنس اليها في المجامع الاخرى . ومن امثلة ذلك مقال في الصحاح : "فمن امثلة افعال الضبط وقصور التعريف في الصحاح قوله السهاد الارق وهو بالضم" وفي النسخة المطبوعة بطهران بالفتح (٢) وقوله في موضع آخر من الصفحة :

"غير ان الجوعرى لم يضبط اللفظ بذكر مثالي او بالنسبة الى الحركات خلافا للمصنف وانما اعتمد على مجرد وضع الحركات بخطه كابن سيده والازعري وغيرهما" (٣) وهو ما جعله يخلص الى القول :

"ومن ثم يصح ان يقال ان للقاموس مزية على سائر كتب اللغة الاصول بالنظر الى هذا الضبط" (٤) .

هذا ، وللشدياق ملاحظات نقدية اخرى رشحت من نقده الاساسي لصاحب القاموس ، نقوله في معرض المقابلة بين المجامع القديمة :

"لا جرم ان للمصاح مزية على القاموس في وضع العبارة والاستدلال بالآيات والحديث والشواهد من كلام العرب والقواعد الصرفية والنحوية واللفظية وكثيرا ما ينحو مؤلفه منحى تعليم المركب من الكلام فضلا عن تعريف المفردات" (٥) .

(١) نفس المصدر ص ٢٢٨

٢- نفس المصدر ص ٨٢

٣- نفس الصفحة

٤- = =

٥- نفس المصدر ص ٨١

ومثل هذا قوله : " وللصحيح مزية أخرى وهي ان مؤلفه شافه العرب وخطب
كلامهم وكلام الائمة الذين نقل عنهم ، وعلى الترتيب الحسن الذى ابتدعه فهو اول
من رتب اللغة على هذا الاسلوب وبه اقتدى الصغاني وابن منظور والمصنف " (١)

٣- صو الترتيب :

بين الشدياق في مقدمة الكتاب ما اصاب المعجم القديم من خلل واضطراب
سيما في ترتيب المادة ومشتقاتها فكل من الف في اللغة ، خطب في خلط الافعال
ومتفرعاتها خطب عشوا . وما زاد الامر سوءا افعال الشراح والمحشين عن ذلك وفقد
نظرهم عنه . ويرى الشدياق ان في كتب اللغة جميعا قديما وحديثا ومطولها—
ومختصرها ومقتولها " خلط الافعال الثلاثية بالافعال الرباعية والخماسية والسداسية
وخلط مشتقاتها . فرما رأيت فيها الفعل الخماسي والسداسي قبل الثلاثي والرباعي ،
اورأيت احد معاني الفعل في اول المادة وباقى معانيه في آخرها " (٢) .

ويورد الشدياق امثلة على ذلك من الصحاح والقاموس المحيط وتاج العروس

فيقول :

" ففي مادة عرض التي هي في القاموس اكثر المواد اشتقاقا وتشعبا ذكر
الجوهري المعارضة والتي بمعنى المقابلة بعد المعارضة التي بمعنى المجانبية بثلاثة
وثلاثين سطرا وصاحب القاموس اورد احتمل الصيغة اى تقلدها في اول المادة ثم احتمل
اى اشترى الحميل للشيء المحمول من بلد الى بلد في آخرها ، وبينهما اكثر من ثلاثين
سطرا . والشارح اورد في تاج العروس اختلج بمعنى تحرك بعد اختلج بمعنى نكح
بنحو ستة وخمسين سطرا . (٣) .

لذلك ، يرى الشدياق ، انه " اذا اردت ان تبحث في القاموس مثلا عن عرض
عنه لزمك ان تقرأ كل ماورد في مادة عرض من اولها الى آخرها ، فيمربك عرض واعتراض
وعارض واستعرض او العكس ثم اسما فقها " ومحدثين وحيوانات وجبال وانهار وحصون قبل
ان تصل الى العرض وربما لم يكن ذكره مستوفى في موضع واحد فتري في موضع لعرضه وفي
موضع اخر اعرض عنه وهلم جرا " (٤)

(١) الجاسوس ، الشدياق ، ص ٨ .

(٢) الجاسوس ص ١٠ .

(٣) نفس الصفحة .

(٤) نفس الصفحة .

ومما ذكره الشدياق من نقد في هذا المجال :

أ - ماكان من اضطراب في ترتيب المشتقات ، فهم يبتدئون المادة باسم الفاعل أو المفعول أو الصفة أو اسم المكان والآلة أو المعرب عوضاً عن الابتداء* بالفعل أو المصدر . وكقول الجوهري في أول مادة جزر الجزور من الأبل يقع على الذكر والأنثى . ثم قال بعد أربعة عشر سطراً : وجزرت الجزور واجتزرتها إذا نحرتها وجلدتها " ويعلق الشدياق على هذا قائلاً : " فالجزور على هذا مفعول بمعنى مفعول فما معنى ذكره قبل الفعل " (١) .

ويتابع الشدياق نقده هذا في موضع آخر من الكتاب حاصراً نقده فسي القاموس المحيط لجهة ترتيب المشتقات هذه فيقول :

" ومن خلله ان لا يذكر المشتقات باطراد وترتيب فيخلط الافعال بالاسماء والاصول بالمزيدات " (٢)

ثم يقول معلقاً : " والاولى تمييز بعضها من بعض " .

وبمضي مدلل على ذلك " وربما ذكر في أول المادة أحد معاني اللفظة ثم ذكر باقيها في آخرها . كقوله " الحبة واحدة الحب حبات ، وبالضم الحبة ، وبالكسر ينز البقول والرياحين أو نبت في الحشيش صلب أو الحبوب المختلفة من كل شيء " وحب القلوب سويد أو مهجته أو ثمرته ، ثم قال بعد سبعة عشر سطراً ذكر فيها : التحب والحببة والحباب والحببي والحباب والحببة الخضرا البطم والحببة السوداء الشونيز والحبة القطعة من الشيء " ومن الوزن في م ك ك والجوهري أوردها كلها في موضع واحد . وذكر في أول المادة الحب بالضم الوداد الحباب ثم قال " الحب بالكسر والحبة بالضم المحبوب " (٣)

ومثله قوله في أول مادة شرف ، الشرف حركة الملو والمكان العالي والمجد ثم قال (أي صاحب القاموس) بعد خمسة وثلاثين سطراً وشرف ككرم شرفاً محركاً علا في دين أو دنياً (٤) .

(١) نفس المصدر ص ١٤

(٢) = = ص ٢٧٥

(٣) نفس الصفحة .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٧٨ .

ب - كما انتقد الشدياق صاحب القاموس فيما ذكره مكررا في مادة واحدة . ومن امثلة ذلك قول المؤلف في مادة "حلا" "حلا فلانا درهما اعطاه اياه ثم قال بعد اسطر وهلا درهما اعطاه اياه ."

ويملن الشدياق فيقول : " فان قلت ان هذا مشدد ، والاول ثلاثي فلا تكرير قلت " كان عليه ان يعطف الثاني على الاول كمادته ، بان يقول ملا درهما اعطاه اياه كحلا " (١) . وهو على ذلك الكثير من الامثلة التي اوردها الشدياق في النقد العاشر من الكتاب .

ج - وما حسبه الشدياق من الخلل ايضا ، تقديم المجاز على الحقيقة ، او المدول عن تفسير اللفاظ بحسب اصل وصفها . حيث يقول في لفظة كتب :

" فان الجوهرى ابتداء هذه المادة بقوله : " الكتاب معروف وصاحب القاموس بقوله : كتبه كتبنا وكتابا خطه ، ومثله صاحب المصباح والزخشرى ، مع ان اصل الكتب في اللغة للسقا . يقال كتب السقا اي خرزه بسيرين ، وهو من معنى الضم والجمع ومنه الكثيرة للجيش ثم نقل هذا المعنى الى كتب الكتاب . وحقيقة معناه ضم حرف الى آخر ، ويتابع قوله : " وانما قلت ان اصل الكتب للسقا لان العرب عرفت السقا واحتاجت الى الشرب منه والى اصلاحه قبل ان تعرف الكتابة

الى ان يقول : . . . " وقس عليه درس الكتاب ، فان اصله من درس الحنطة ونسخ الكتاب فان اصله من نسخت الشمس الظلى " (٣) .

ويقول في موضع آخر من الكتاب : " غير ان المصنف (اي صاحب القاموس) زاد عليهم كثيرا في هذا النوع (اي تقديم المجاز على الحقيقة) حتى ادته الزيادة الى مخالفة سائر اللغويين " (٤) .

(١) = = ص ٢١٣

(٢) = = ص ١٠

(٣) = = ص ٢١٣ .

ويأتي الشدياق على ذكر امثلة كثيرة ومنها قول المؤلف في فـأ* :

" الفـي* ما كان شمسا فينسخه الظل والغنيمة والخراج والقطعة من الطير والرجوع كالفيئة والفيئة والانفـاءة والاستفـاءة والتحول ... والفيئة طائر كالعقاب والحين " (١) .

ويرى الشدياق ان حق التعبير كان يستوجب ان يبدأ بالرجوع لان الظل مأخوذ منه " ألا ترى ان الجوهرى ابتداء هذه المادة بدوله فـأ* يفي* رجوع واقـاء* غيره رجعه الى ان قال : الفـي* ما بعد الزوال من الظل ، وانما سمي الظل فيثا لرجوعه من جانب الى جانب ... ثم يقول " وعـبارة لسان العرب الفـي* ما كان شمسا فنسخه الظل ، وانما سمي الظل فيثا لرجوعه او هنا يبدى الشدياق ملاحظة من عدة اوجه فيقول :

- " ان الفـي* اصله مصدر فـأ* بمعنى رجوع ومثله با* ومقلوبة آب* .

- " ان المصنف لم يصرح بالفعل مخالف في ذلك الصحاح واللسان وليس في عبارته ايضا ما يدل على كون الفـي* مصدرا سوى قوله : والتحول وهي دلالة بعيدة . ان المحشي قال : افعل المصنف الرباعي متعديا ، وذكره الجوهرى ، فقال : فـأ* يفي* فيثا رجوع واقـاء* غيره رجعه " (٢) .

هذا بعض ما تناوله الشدياق من نقد للمعجم القديم ، وقد دار - جزء - حول خلل وقصور وايهام القاموس المحيط . اما اقله فقد توزع بين المعاجم الاخرى كاللسان والصحاح والمحكم ...

وفي هذا الوقت ، كان قد صدر للمعلم طاهر البستاني معجم " محيط المحيط " ومختصره " قطر المحيط " ولما كان الشدياق لم يستطع الحصول على الاول ، في حين وقع بين يديه المختصر ، فقد هب منتقدا - بمرارة - عمل البستاني ، سيما وان هذا الاخير كان قد اعتمد في عطه على قاموس الفيروز آبادي .

(١) و (٢) : نفس المصدر : ص ٢٦٣ .

وقد جرى الشديان في تعقب اثر البستاني كلمة كلمة ، مبينا الفلاطه ونوهمه واضطرابه عدا عن هنات التصحيف والتعريف التي فاقت الحصر والتي لم تسلم من غضب الشدياق .

ومما ذكره الشدياق من اغلاط البستاني في قطر المحيط قوله :
" قال مؤلف القطر : أب يثب ويؤب أبا وابيبا وابابا وابابة هنم بحمله . والشئ " حركه وللسير تهيأ . والى وطنه آبا وابابة (بالكسر والفتح) اشتاق ويده الى سيفه ردها ليسله . الى ان قال : وابيت ابابته : استقامت طريقته .

ويقارن الشدياق ، كلام البستاني بما ورد في القاموس المحيط ، حيث يقول :
" وعبرة القاموس : أب للسير يثب ابا وابيبا وابابا وابابة تهيأ ، والى وطنه ابا وابابة (بالفتح والكسر) اشتاق ، ويده الى سيفه ، ردها ليسله . الى ان قال : أب ابسه قصد قصده ، وابيت ابابته ويكسر استقامت طريقته . . . واب هنم بحمله لا مكذوبة فيها ، والشئ " حركه .

وهنا يعلق الشدياق بقونه " فالمفهوم من اصطلاح القاموس بعد ذكره لأب
ابه اى قصد قصده ، ان مصدر اب بمعنى هنم بحملة واحدة هو الاب . وان المضارع مضموم خلافا لترتيب صاحب الجنان (١) ، على انه لم يرف في أبت ، ابابته غير الفتح .

ومن ذلك ، انتقاده له في قوله :

" ابل : الابل الشديد التائق في رعي الابل والشاء " حيث ضبط البستاني ، الباب من الابل بالفتح ، فصوبها الشدياق بالكسر .

ثم احتكم الى النص الاصل في القاموس ، بغية كشف مواطن الضعف اللغوى عند البستاني فيقول : " قال في القاموس : " ابل كُنْصِرُ و فرج ابالة وابلا فهو آبل ، وابل حذق مصلحة الابل والشاء . وانه من آبل الناس من اشد هم كَالْقَا في رعيته . فقوله فهو آبل ، وابل ، الاول اسم فاعل يعمود الى وزن نصر ، والثاني على وزن كُتِفَ يعمود الى فرج ، فهو من اللف والنشر المرتب . وهنا يعلق الشدياق فيقول :

(١) الجنان : اسم الجريدة التي كان يصدرها البستاني .

"فكان هذا المحنطي (اي البستاني) ظن من قول القاموس : وانه من آبل الناس بان اسم الفاعل بفتح الباء . وعبارة الصحاح وابل الرجل بالكسر بابل ابالة مثل شاكس شكاسة وتمع تعاهة فهو آبل (ككتف) ، وآبل اي حاذق بمصلحة الابل ، وهو من آبل الناس اي من اشدهم ، تأنفا في رعيه الابل واعلمهم بها " (١) .

٣- النقد المعجمي عند سعيد الشرتوني :

الحق الشرتوني بمجمعه " اقرب الموارد الى فصح العربية والثوارد " ذيلا ضم اليه ما فات في الكتاب او ما كان قد أهمله وذهله في الكلم الوارد في كتب اهل العربية ، كما استدرك به كل مائد عن التدوين مما اطلت عليه اقسام العلماء من اصحاب هذا العلم ، وهي الضوال التي من الله على المؤلف - كما يقول - باستدراكها على المتقدمين في العلم والزمان .

ومما ينبغي قوله ان الشرتوني قد انتهى من وراء ذلك كله ان يكون مصنفه على الصحيح اجمع من سواء لما نطق به العرب من الكلم الفصح " (٢) . وهو ما استوجب عملا شاقا كابده المؤلف ، وجعله يقوم بمعارضات بين مؤلفه ، من اوله الى آخره ، والاصول المنقمة ، والامهات الصحيحة .

بيد ان ذلك هيا امامه الفرصة النقدية ، لذكر ما فات المعجم القديم ، واصلاح هفواته ، حيث عقب المؤلف كل نقل ، يسند من اطم متبع او كتاب معتد " (٣) .

ويقول الشرتوني بعد هذه العقابلات :

"ولقد تبينت بهذه العقابلة ان السهدة في جل ما انتشر من الاغلاط ، انما هي على القاموس المحيط " .

(١) مقالة للشدياق : تحت عنوان " تصويب السهام التفليط على قطر المحيط " .
انظر الجوائب ، عدد ٥٦٤ - ٢٠ ك ١ سنة ١٨٧١ ، وسلسلة الاعداد التي تبدأ بالعدد ٥٦٦ ك ٢ سنة ١٨٧٢ .

(٢) مقدمة ذيل اقرب الموارد ، الشرتوني ، ص ٤ .

(٣) نفس الصفحة .

وبيين المؤلف ، سبب ذلك في " ان الثقة به (اى بالقاموس المحيط) قد تمكنت من صدور الذين لم يلقوا على الكتب الكبيرة المصححة فقلدوه في معظم ما تساهل فيه من اطلاق المقييد وتقييد المطلق وفيما ضل فيه سبيل الصواب (١) .

ولا نحسب ما ذهب اليه الشرتوني من نقد القاموس المحيط جل عمله الذي اراد . بل كان المؤلف يحسب كل زلة في اى كتاب ، ايا كان مصنفه دونما اعتبار الا للنزاهة في الحكم والخلوص في العمل .

وعلى هذا ، يكون النقد عنده قد اشتمل على اكثر المعاجم القديمة كاللسان والاساس والمصباح وسواها .

هذا وقد وضع المؤلف جداول ناهزت على التسعين في آخر * ذيله * تحت عنوان " تنبيه وتكملة واصلاح " .

طريقة نقده :

يوضح الشرتوني منهجه النقدي فيما اورده في الذيل او الجداول فيقول :

— " اذا عثرت على فلتة من الكتب الموثوق بها كاللسان والاساس وكان كتابي بريئاً منها لنبهت عليها تفادياً من ان يحكم علي بالخطأ وانا المصيب بل تحامي ان يحسب الصواب خطأ والخطأ صواباً . . . (٢) .

— " ان كل ما اسندته في جانب الصواب الى فريتخ او محيط المحيط فانما ذلك اشارة الى وجوب الفحص عنه والحذر منه مالم ير لثقة . . (٣)

— ان كل ما كان قد امه سيقاً في هذا الذيل فهو من تلك الضوال التي وجدتها بل الدرر التي استخرجتها — كما يقول — من ليج المؤلفات العربية بعد ان طال على نقدها الامس . . .

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) مقدمة الذيل ص ٤

(٣) نفس الصفحة .

- اما الجدول ، فينبه الشرتوني ان ليس كل ما ذكره فيه بمنزلة واحدة في نظر المنتقد بل بعضها ورد بصورة الاطلاق وهو مفيد . وبعضه ذكر كأنه مسلم موثوق به " مع ان بعض الائمة - كما يقول - انكروه وبعضه ذكر على غير استيفاء " ، وبعضه وقع في غيـسر موضعه كالخلط الذي وقع بين مادة فشغ وفصح ، وبعضه وقع الغلط في ضبطه او تفسيره .
- ويعرف الشرتوني مصطلحاته الثلاثة " تنبيه وتكملة واصلاح " التي عنون بها
الجد اول فيقول :

- ٢ - اما التنبيه : فلتقييد ما اطلق لقول القاموس العصام الكحل ، فقلت العصام
الكحل في بعض اللغات .

ب - واما التكملة : فلما ذكر على غير استيفاء فعمل لم تستوف مصادره ومفرد
لم يذكر كل جموعه مثال الاول . رتك رتكا ورتكا . فقلت رتك رتكا ورتكا
ورتكنا . ومثال الثاني : والشغب الغدير يكون في ظل جبل لاتصبيه
الشمس فيبرد ماؤه ج ثغبان بالكسر والضم . فقلت ج ثغبان وانثاب وثغبان
الح .
ثم يقول :

او من حرف مشترك لم يحط بمعانيه مثال ذلك (المثما) ايضا الضبع
المنتنة فقلت المثما المرأة القبيحة المسيئة . و - الضبع المنتنة .
او حرف اعجمي لم ينبه على انه معرب لقول (صاحب القاموس) الابرار
والابرهم بكسرهما الذي في رأس المنطقة وما اشبهه ، وهو ذو لسان
يدخل فيه الطرف الاخر فكلمت المبار بـقولي " معرب " .

ج - واما الاصلاح : فلما وقع خطأ في ضبطه نحو الكسر محرقة الخبز
اليابس والصواب الكسر بفتح فسكون كما في اللسان والتاج .
ويرى الشرتوني لو ان كل كتاب لغة ذيل باصلاح تام لما وقع من اغلاط التأليف
والطبع وهو ما يراه في الاساس والتاج والصحاح حيث يقول :

• وهذا الصحاح قد وقع في طبعه لغلاط عدة . . وهذا اللسان الذي هو اصح ما رأيت من مطبوعات مصر ضبطا ورواية تجد فيه ما يحتاج الى الاصلاح وان كان قليلا بالنظر الى كبر الكتاب " (١) .

ويتطرق الى انتقاد معجم البستاني فيقول :

• " اما محيط المحيط فاذا صرفت النظر عما دس فيه من الكلمات العامية بلا تنبيه على عاميتها وافضيت عن جعله جملة من الالفاظ العامية مولدة وعن الحكم على بعض الفصح انه عامي كانت العهدة في سائر لغلاطه على القاموس غير ما كان من خطأ الطبع " (٢) .

ويعدد مناحي هذا الغلط الثلاثي :

فمن الاول قوله (اي البستاني) : " الضميلة الحب الذميمة الاحمر من الحمص " وقوله عريسه فتعريس اوقعه في الارتباك فارتبك " .
ويعلق الشرتوني بقوله : " فهذه الاحرف عامية وقد ذكرها كما يذكر الكلمة الفصيحة " (٣) .

- ومن الثاني قوله : " العزيمة بمعنى الدعوة الى طعام او فرج من كلام

المولدين " (٤) والصواب انها بهذا المعنى عامية .

- ومن الثالث قوله : " والعامية تسمى الحلم بالمنام وربما قالوا بنام على

الايدال " (٥) والصحيح ان المنام بمعنى الحلم فصيح ، وقد ذكره الزمخشري في الاساس قال فلان يرون له المنامات الحسنة .

هذا وقد رصدنا بعض الامثلة الدالة على كل نقد من نقود الشرتوني للمعاجم

القديمة مما ذكره في جداوله السابقة الذكر ، نورد عا بشكل منسق خلافا لما هي عليه في الكتاب ، معتمدين مصطلحات الجداول التي ذكرها المؤلف بالشكل التالي :

اس	اساس البلاغة	-
ت	تاج العروس	-
حم	شرح الحماسة	-
ص	الصحاح	-
فج	فريتنج	-
ق	القاموس	-
ل	لسان العرب	-
مح	محيط المحيط	-
مص	المصباح	-

(١- ما ذكره الشرتوني في انتقاد اساس البلاغة (اس) (والمطبوع في مصر سنة ١٨٨٢ م) .

صفحة	عمود	سطر	خطا	صواب
٥٦٢	٢	٤	مقارب الخلق (اس)	مقارب الخطر (١)
٦٢٢	١	١٢	(كتيبة صدأى) (اسق)	كتيبة صدأ . وهي القياس لأحمر وحمرا (٢) .
٦٤٠	٣	١٨	(رجل مضدم) (مجرب) (اس)	رجل مضدم كمنبر : اى محسب (٣) .

(١) ذيل اقرب الموارد ، الشرتوني ، ص ٤٧٨

(٢) = = = = ص ٤٨٢

(٣) = = = = ص ٤٨٢ .

٢- وما ذكره في انتقاد تاج العروس (ت) المطبوع في مصر سنة ١٢٠٧ هـ :

ص	ع	س	خطاً	صواب
٤٢	٣	٣١	(المبهترات) ق ت	ل المبهترات (١)
١٤٤	٢	٣٩	وقيل اى ملك امره واستبد به ق ت	ل و - ملك امره واستبد بـه (٢) .
٢١٥	٣	٢١	نبات الحقيق ق ت	ل قال الليث نبات الحقيق بتقديم الباء على النون ضرب من التمر والصواب لون الصبيح ضرب من التمر ردى (٣) .

٣- وما ذكره في انتقاد الصحاح (ص) (المطبوع في مصر سنة ١٢٩٢ هـ) :

ص	ع	س	خطاً	صواب
٢٤٢	١	٣٨	(الحاج) نبت . . الح	ل اوردته في ترجمة ح ي ج (٤)
٣٣٨	٢	٣١	(الدواقل) الدواهي بلا واحد ص	كذا وردت في نسخة من ص محرفة والصواب الدفاول كما في جميع كتب اللفظة (٥) .
٣٤١	١	٢٧	الدفنى كجمزى . . الخ	ق ل الدفلى كصري : ضرب من ضرب من الثياب المخططة الثياب وقيل من الثياب المخططة (٦) .

(٤) نفس المصدر ص ٥٧

(٥) = = = ٤٦٣

(٦) = = = ٤٦٣

(١) نفس المصدر ص ٤٤٦

(٢) = = = ٤٥٠

(٣) = = = ص ٤٥٠ - ٤٥٦

٤- وما ذكره في انتقاد القاموس المحيط (ق) (المطبوع في مطبعته بولاق سنة ١٢٨٩ هـ) .

صواب	خطأ	س	ع	م
في الفم وفي التوب وفي الحجر (١)	الميب في الفم ق	٢١	١	١٨ -١
ل و (بطل) في حديثه كعلم (٢)	و في حديثه : هزل / ق	١٦	٢	٤٨ -٢
(بطن) بالتشديد فلفظ وانما يقال ابطنت البعير ولا يقال بطنه ق	(بطن) و - البعير : شد	٢٣	٣	٤٨ -٣
بطنته بطننا وقال الازهرى بطنه بطننا (٣) .				

٥- وما ذكره في انتقاد محيط المحيط (مع) المطبوع في بيروت سنة ١٨٦٩ م ، فكثير جدا منه :

صواب	خطأ	س	ع	م
حظيت بالمهمة (٤)	حظيت مع	٢٧	٢	٢٤١ -١
البليج والبليج (٥)	البليج والبليج مع	٣٦	٢	٥٧ -٢
ل الصواعق (بالرفع) (٦)	الصواعق (بالكسر) مع	١٨	١	٦٢ -٣

(١) نفس المصدر ص ٤٤٥

(٢) - (٣) = ص ٤٤٦

(٤) - ص ٤٤٦

(٥) - (٦) ص ٤٤٦ .

١- ومما ذكره في انتقاد الصباح (ص) المطبوع في مصر بمطبعة بولاق سنة ١٢٩٣ هـ .

صواب	خطأ	س	ع	م
ل ت سفر كنصر صفورا خرج الى السفر (١) .	سفر الرجل هـ صفورا خرج الى السفرق ص	٣٨	١	٥٢٠
ق ت ل رجل صفمان وصفماني (٢) .	رجل صفمان وصفماني ص ص	٤	٢	٦٥١
ت ضبطه من باي ضرب ونصر وفي ت اقتصر الجماعة على الكسر في المضارع فقط (٣)	وفرف الماء بيده شرفنا ص ص	٣٤	١	٨٦٩

اما ما كان قد اوردناه في " الذيل " وعوكما قال المؤلف - من تلك الضوال التي وجدناها فكثير نورد منه نموذجين على سبيل المثال لقوله في مادة وثق :

قد رأيت متعديا بالي في عبارة واردة في التاج عذا نصها
" من العلماء الموثوق اليهم " كانه على معنى اطمئن اليه .
(اخوثة) بمعنى الشجاع الوثاق بشجاعته " (٤) .

- (١) نفس المصدر ص ٤٧٥
(٢) = = ص ٤٨٢
(٣) = = ص ٤٩٦
(٤) = = ص ٤٣٠

وقوله في مادة وجز :

” وجز ” من استوجزه استيجلزا ؛ بمعنى حذف ما فيه من الفضول
— كاختصره (اللسان في مادة خضر) .

من (الموجزة) الطمئة السريمة اخراج الدم * (١)

(١) - نفس المصدر ، صفحة (٢١) .

الفصل السادس

الدرس البلاغي في القرن التاسع عشر

في لبنان

اندرج البحث البلاغي في القرن الماضي ، عند الكتاب اللبنانيين ، تحت
ابحاث الانشاء ، وطرق التعبير وصناعة النظم ، وغير ذلك من المباحث الادبيّة
العامة ، دون ان ياخذ الكتاب البلاغي اتجاّعه المستقل ، او عمله المنفرد ، البعيد
عن تدّاخل علومه بعلوم اللغة والنقد والعروض .

بيد ان المقد الاخير من القرن الماضي ، حفل ببذور الجديد ، والتخطّي
الجرى ، والتأليف الجاد وذلك بأعمال على يد جبر ضومط (١٨٥٨ - ١٩٣٠) ، الذي
بذر بذور المذهب الذوقي في البلاغة العربيّة بكتابه " الخواطر الحسان - في
المعاني والبيان " (١) و " فلسفة البلاغة " (٢) . وسنفرّد لهذين الكتابين
بحثاً مفصلاً .

اما دون ذلك ، فقد ساد القرن جمود رهيب ، انكشمت معه الاقلام ، واجدبت
العقول ونضب معينها . وهي ان اعطت - احياناً - فهو نثر يسير ، لا يجرّو على تخطّي
مراحل التلخيص لما كتبه البلاغيون القدامى .

ومن ثم ، فمن النادر ان نلمح كماتبا واحدا في عقود النصف الاول من القرن
الماضي ، استطاع ان يتحرر من القيود البلاغيّة الدجاجة ان في تأليفه البلاغي وان في
اسلوبه الانشائي ، وقد انسحب هذا الركود على العقود الثلاثة من النصف الثاني
للقرن التاسع عشر . مما افرق البلاغة واساليب الانشاء والنظم في لجج الصنعة
اللفظية السقيمة ، والتزيين البلاغي الفارغ المحتوى .

(١) الخواطر الحسان ، طبعة اولى بمصر سنة ١٨٩٦ ، وطبعة ثانية في مطبعة

الوفا - بيروت سنة ١٩٣٠ .

(٢) فلسفة البلاغة - المطبعة العثمانية - بمبدا - لبنان ، سنة ١٨٩٨ .

وهذا ما جاء على لسان احمد فارس الشدياق ، احد كتاب العصر ، حيث يشكو من طرز التأليف واساليب الكتاب في زمانه ، فيقول في الساق على الساق :

"ولكن عيبات ، فاني ارى اكثرهم قد زاغ عن هذه المحجة ، اذ المؤلف منهم بيانا عويذا كره صيغة احد من العباد في عقله او امراته او ماله اذا به تكلف لا يراد الفقر المسجعة المصعقة ، وحنى قصته بجميع ضروب الاستعارات والكنيات . (١)

ثم يقول في موضع آخر من الكتاب ، منتقدا بشدة طفيان المسجع على الاساليب التعبيرية : " المسجع للمؤلف كالرجل من خشب للماشي ، فينبغي لي ان لا اتوكأ عليه ، في جميع طرق التعبير لئلا تنمق لي مذاهبه ، او يرميني في ورطة لامناس لي منها . ولقد رأيت ان كلفة السجع اشق من كلفة النظم " (٢) .

ولو عاد الباحث الى المؤلفات البلاغية - على قلتها - فتتبع اثرها كتابا فكتابا لرأى ان بداية التأليف البلاغي تقترب بالعقود الاولى للنصف الثاني من القرن التاسع عشر ، اذ اخذت البلاغة شكل كتب صغيرة ، اقرب ما تكون الى الارجيز والمطخصات ، والشروح المدرسية البسيطة ، وعوماقام به الشيخ ناصيف اليازجي في اثر كتبه .

ويمكننا ، بنظرة سريعة على مؤلفات الشيخ ، تحديد اتجاهه . فهو في عمله يقتصر على امتصاص مواهب السابقين ، مكثفا بالتلخيص والايجاز دون ادنى محاولة للتجديد او الخلق . ففي كتاب " عقد الجمان في المعاني والبيان " نراه يعتمد كليا على امهات الكتب القديمة ، يستمد منها جماع مادته ، في الشرح والتلخيص ، وجاء ايجاد مادة كتاب بلاغي مبسطة يسهل على طلبة المدارس تناوله ، ويقرب الى افهام المبتدئين مبادئ هذا العلم .

(١) الساق على الساق ، ص ١٢٤

(٢) = = = ص ١٢٣ .

ولن نذهب بعيدا في رصد هذه الازاجيز ، او الملاحظات ، فهي عديدة
الجدوى ، بائسة الهدف ، لا تقوى على اعطاء الدرس البلاغي اى مزيد من الجدوى
او الامل في ايجاد سبيل ذوقى .

غير اننا نكتفي بتبيان تاريخ صدورهما ، مع الاشارة الى ان عندهن هذه
الكتب قد تخدع الباحث لما لها من فصاحة وايجاز . فيظن انها تخفى وراءها
مضمونا يجدر الاهتمام به . حتى اذا ما حصل القارى على احدها وجده كتابا ينير
الضحك ، فحجمها بمقدار الكف ضرورتها لاتتعدى الخمس عشرة صفحة او العشرين
او الثلاثين . وقليل ما تتجاوز الخمسين صفحة . من هذه الكتب :

- الدراز المعلم : ارجوزة مختصرة في البيان تقع في ٣٥ صفحة جمع فيها
المؤلف نظما وشرحا المبادئ المهمة في البيان ، وفرغ من تبويبها سنة ١٨٦١ ،
طبعت في المطبعة المخلصة سنة ١٨٦٨ .

- هقد الجمان : جمع فيه خلاصة المعاني والبيان والبديع بين متن وشرح
والحق به بحثا هو " نقطة الدائرة " في المروءة والقافية . انهاء سنة ١٨٤٨ .

وقد صدر مع ملحقه " دائرة العروض " في كتاب واحد اسمه " مجموع الادب
في فنون العرب " طبع سنة ١٩٠٨ ، ثم طبع في المطبعة الاميركانية في بيروت سنة
١٩٣٢ و ١٩٤٨ ، على نسط جديد قام بترتيبه الاستاذ لبيب جريد يني .

اما المؤلف الثاني ، الذى قام بتكريس النزعة التقليدية ، وربط البلاغة
بقيد مباحث البديع الجافة فهو الخورى بولس عواد في كتابه " المقعد البديع في
فن البديع " (١) فقد اتجه المؤلف لاجزاء البديعيات التي كانت في بديعية ابن
حجة الحموى اتجاذا مسرفا ، مبتعدا في عمله ايما ابتعاد عن ينابيع التعابير
المربية الاصيلية ، مجددا بذلك ما قام به احمد البربر البيروتي (المتوفى سنة
١١٢٦ هـ / ١٨١١ م) الذى نظم ، في بداية القرن التاسع عشر ، بديعية شرحها
مصطفى الصلاحي .

(١) كتاب المقعد البديع في فن البديع لبولس عواد ، المطبعة الصومية الكاثوليكية
بيروت ، سنة ١٨٨١ .

هذا وقد اخذت بديعية الخورى بولس عواد ، شذل مختصرات مجلطة لاهياة فيها ولا عذوبة . ويمكننا ان نعتبر عمل عواد هذا من قبيل تلخيص ماجا* في بديعية ابن حجة الحموى . ويعترف عواد بهذا صراحة فيقول في مقدمة الكتاب :

” . . . رأيت ان اصدرني كل باب بيتا من نظم احد الائمة البديعية —
اجرى على اثره بشرح موجز مبين .“

” . . . ولما كان الشيخ صفى الدين الحلي ، والشيخ تقي الدين المعشرف بابن حجة الحموى ، هما السابقين في هذه الحلبة والقائمين في صدر هذه الرتبة ، آثرت بذلك بديعية الحموى . . . ولم يكف ان جعلت نظمه لشرحي اماما ، وقفوت اثره ترتيبا ونظاما ، حتى افترفت من خزانته غرقا واستنزفت فرائدها نزفا . . . وحين تم ما تكلفته والفته . . . سميته المقعد البديع في فن البديع ” (١) .

ومن الطريف ان يمد بولس عواد — كابن حجة — وجماعته — البديع ليشمل الصور البيانية وكثيرا من صور علم المعاني .

كما اخذ يقلدهم في اضافة اشيا واسماء لا يمكن ان تدخل في المحسنات البديعية كالقسم والاستدراك والتلفيق . . . والمتبع لفصول الكتاب يجد تسميات كثيرة لن تعود على علم البلاغة الا بالخلط والتعمية والصور الغثة كالجناس الملقق والمذيل واللاحق والمصحف والمصرف والمقلوب والنزاهة والتغويف والتشريع والتكثيف وغير ذلك من الابواب السقيمة .

هذا ، وقد ظهر بعد اربع سنوات من صدور مؤلف بولس عواد ، كتاب بعنوان ” دليل الهائم في صناعة النائر والناظم ” (٢) لمؤلفه شاكرا البتلوني .

وقد قسم المؤلف كتابه ^{الى} قسمين :

القسم الاول : في ادب الكاتب وصناعته وفيه بابان : الاول : في ادب العلم والتعليم وفيه ستة فصول . والباب الثاني في صناعة الكاتب وفيه عشرة فصول .
القسم الثاني : في شذرات مختلفة من اقوال الكتاب ، وفيه فصول وختمه بخاتمة وذيل .

(١) من مقدمة الكتاب ، ص ٤ .

(٢) دليل الهائم في صناعة النائر والناظم ، لشاكرا البتلوني ، المطبعة الادبية — بيروت سنة ١٨٨٥ وعوفي (١٩٨) صفحة .

وبنظرة سريعة على فصول الباب الثاني من القسم الاول نجد للفصول

التالية :

الفصل الاول : في اركان الكتابة وقد نقل بتصرف عن المثل السائر لابن
الاثير .

الفصل الثاني : في ادوات الكتابة وقد نقل ملخصا عن العقدي .

الفصل الثالث : في الصناعة اللفظية وهو فرعان :

- فرع في اللفظة المفردة وقد نقل عن المثل السائر .

- وفرع في الكلام وقد نقل ملخصا عن المثل السائر كذلك .

الفصل الرابع : في انقسام الكلام الى فني النظم والنثر وهو منقول عن ابن
خلدون .

الفصل الخامس : في السجع وهو منقول عن المثل السائر .

الفصل السابع : في الفصاحة والبلاغة ، وهو فرعان :

- فرع في الفصاحة وقد نقل عن المثل السائر .

- وفرع في البلاغة وهو منقول عن عدة كتب قديمة ، وخاصة

كتاب ادب الدنيا والدين ، كما يصرح المؤلف نفسه .

الفصل التاسع : في التخلص والاقتضاب وهو ملخص عن المثل السائر كذلك .

ونحن اذا تناولنا ما جاء في الفصل الثالث من فصوله عن كلامه في قضية

اللفظ تحت عنوان (في الصناعة اللفظية) لوجدناه ينقل عن المثل السائر تفاصيل

الموضوع برمه حيث قسم قضية اللفظ هذه الى قسمين :

- القسم الاول : في اللفظة المفردة ويحتاج في صناعتها الى اشياء ثلاثة :

الاول : اختيار الالفاظ المفردة كما يفعل من يختار اللآلئ .

الثاني : نظم كل كلمة مع اختها في المشاكلة لها ، لثلا
يجي " الكلام قلعا ، نظما ينسب عنيع ناظم المقدم .

الثالث : مراعاة الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف
انواعه .

وعده الامور الثلاثة مما يجب على الخليل والشاعر العناية بها . والاول
والثاني هما المراد بالفصاحة ، والثالثة بجملة ما هي المراد بالبلاغة .

وكنا نتمنى لو ان البتلوني حاول الاستقلال - ولو قليلا - بشخصيته . لكنه
على ما يبدو اكتفى بالتلخيص والعرض لما جاء في كتب القدامى .

عذا ، وقد ظهر في المقود الاخيرة من القرن الماضي هي بعض الابحاث
البلاغية المندرجة في كتب علم الادب حيننا والسروض حيننا اخر او في كتب الانشأ
وسواها ، دون ان تستقل بذاتها كما هو شأنها في كتاب " علم الادب " - الجزء الاول -
للأب لويس شيخو سنة ١٨٩٢ . وكتاب " مصباح الافكار " في نظم الاشعار سنة ١٨٨٨ ،
للمعلم شاكرا شقير وغير ذلك من الكتب التي لم تدفع بالبلاغة الى حيز الدرس الجاد ، او
المستساغ .

وهكذا ، يبقى لنا عمل واحد ، من كل اعمال المؤلفين في القرن الماضي ، يمكن
لنا ان نحسبه ابتداءا ذوقيا جديدا ، استطاع به صاحبه ان يتخطى حدود التقليد
والعمل الجاف .

وقد تمثل هذا الاتجاه في كتابين ، صدرا تباعا للمؤلف جبر ضومط (١) ، سي

(١) جبر ضومط (١٨٥٨ - ١٩٣٠) ولد في برج صافيتا في عكار وفيها تلقى

علومه الابتدائية على يد الدكتور يعقوب صروف ، ثم تعلم في مدرسة عبيه
الاميركية .

ويعتبر ، ضومط ، رائدا من رواد البحث اللغوي في اللغة العربية وعلومها ،
ونشأتها وتحولها . عمل اساتذا في الجامعة الاميركية فترة من الزمن ، وهو من
اعضاء المجمع العلمي في دمشق ، وواحد من الذين اضافوا لعلوم اللغة نزعة
فلسفية سيكولوجية تقوم على الاساليب الحديثة ، الخاضعة للتحليل العقلي .
توفي ضومط عام ١٩٣٠ م .

الكتاب الاول " الخواطر الحسان في المعاني والبيان " . حيث استعرض فيه ملامح عامة من فائته البلاغية ، دون إن يقرر نظريته بشكل دقيق ، مكتفيا بطرح بعض الافكار المهمة في المقدمة وثانيا الكتاب .

وسمى كتابه الثاني " فلسفة البلاغة " حيث تناول فيه ابحاثا بلاغية ولعلها من خير الابحاث التي اخرجت في لبنان خلال القرن التاسع عشر كله .

وبهذه في الكتاب الاول " الخواطر الحسان " الصادر سنة ١٨٩٦ مقدمة التي حددت طريقة نهجه في الدرس البلاغي ، وكيفية تصويره له .

اما مضمون الكتاب ، فلا حاجة لنا به ، لفلبة النماذج التطبيقية المبسطة ، عليه ، تلك النماذج المخصصة من ^{الكتاب} للطلبة المدارس .

وقد قسم ضومط كتابه هذا الى ثلاثة اقسام : تناول فيها تقسيم الجملة وذكر عوارض تعرض لها ولا جزائها من تقديم وتأخير ، وذكر اوصاف تتصف بها الجملة - خبرية وانشائية . ثم عمد الى فصل دقيق في التصورات والافكار توصل فيها الى معرفة ماهية الجملة .

ومع ان الكتاب مدرسي ، كما قلنا ، الا ان امورا جديدة بالاهتمام ، وردت اثنا كلامه عن اعمية البيان وعلاقته بالمنطق والنحو ، وهو يقول في هذا الصدد :

" لما كان البيان ينظر في الفكر المدلول عليه بالجملة من جهة وفي الالفاظ الدالة من جهة اخرى كانت وظيفته مزدوجة وابحاثه من جهة اللفظ تماس ابحاث النحو وتتصل بها ، ومن جهة المعنى تماس ابحاث المنطق وتتصل بها " . (١)

وفي معرض كلامه على الفماحة يتناول قضية اللفظ الغريب في الاستعمال فيرى ان القضية محصورة في الفاظ بعينها لا تتعداها هي الفاظ الموصوف او الصفه فقط .

ويرى ضومط ، ان الموصوف اسمان :

(١) الخواطر الحسان ، جبر ضومط ص ٦ .

٢ - اما " اسم لشيء " موجود مشاهدة عينه كثيرا " واللفظة عنده هنا ،
قلما يصعب فهم المراد بها ، لو بما هو من متعلقاتها ومتعلقات المسمى
بها ، وذلك كمعظم الفاظ اللغة المتداولة المتعارفة .

ب - واما " اسم لشيء " كان يوجد ثم فقد من الوجود واصبحت مشاهدته
نادرة لا تنبها الا للقلائل ، وهذا ما جعل الاسم غريبا لعمد المفسرين
بالبينة الماضية وقلة الفتن المضمونها وتقاليدها وعاداتها .

" وبالأجفال لم يبق لنا منها الا اسما المسميات على انقراض اعيانها
او بقولها بصور غير صورها الاصلية في جميع ضروب ادوات الصناعات المختلفة
وانواع المساكن والملبوسات . . . الخ . فاللفظة هنا غريبة صعبة مضمونة
بالروحانية لانها اسم لشيء " كان يوجد ، ثم فقد ، كذلك التراكمات الاسمية
للسيف مثلا ، او اللبث ، او غير ذلك مما هو موجود في كتب اللغة .

في حين يرجع الكاتب بعدم سهولة فهم المراد من الصفة احيانا ، وغرافية
استعمالها ، الى كون الصفة لا تنطبق على الموصوف ولا تناسبه لا حقيقة ولا مجازا .
ويورد الكاتب امثلة على ذلك ، كلفظة " المبرج " التي وردت في قول رؤبة :
ازمان اهدت واضحا مفلجحا ومقلة وحاجها مزرجا
وفاجها ومرسنا مسررجا

" فوصف الانثى ، بـ " مبرج " غير مانوس بالاستعمال ولا ترضاه بداعة او سلامة
المدح " (١) .

ويعلق على ذلك بقوله : " ولهذا السبب عينه لم ترد في استعمال البلغاء وكبار
الكتابة والشعرا . . . ويضيف قائلا :

" والذي يقضي بالعجب ان كثيرين يزعمون ان امثال هذه الالفاظ ينبغي
المحافظة على قد استعمالها واستعمالها ، دون غيرها من الالفاظ المتعارفة والمستعملة
الان ، لما هو مألوف ومشاهد في وقتنا الحاضر . واعجب من هذا انهم قد يطلقونها

(١) الخواطر الحسان ، ص ٩ .

في الاستعمال من غير قيد يقيد ما المراد منها على اليقين أو ما يقرب منه " (١) .
وكان الكاتب ، قد آمن الانفذاك عن التقليد المتوارث ، فينزع الى تحديد
رأيه في هكذا استعمال بجرأة فيقول :

" وعليه ، فإذا استعمل كاتب ما يشاكل هذه اللفظة ، قلنا انها غريبة
الاستعمال وبعيدة عن المألوس عند الكتاب . وحكمنا بعدم فصاحتها ، بل حكمنا
(إذا كانت على هذه الدرجة من الضرابة) برفض استعمالها وعدم سوافيته اصلاً " (٢)

أما قوله حول البلاغة ، فإنه ينقل شيئاً يتصل بمقتضى الحال عن عقود الجمال
للسيوطي ، ثم يعقب عليه بملاحظات دقيقة تتجلى بدقة فهمه ووعيه قيمة الدرس البلاغي ،
وعو ما سيفضله بثقل منهجي في " فلسفة البلاغة " .

ولنسمعه في تعليقه على السيوطي ، حيث يقول :

" على اني أرى ان ما ذكره هذا الكاتب الشهير ، انما هو شروط لجمال لا بد منها
في الكلام البليغ . والبلاغة وان كانت تقتضيها جميعها ، هي امر آخر من ورائها ، مرجعه
الى امر في الذهن قائم بارتباط الافكار بعضها ببعض ، وسرد ها على وجه مخصوص يفهم
منه كنه المراد والمحيطات به ، مما يريد المتكلم او الكاتب على اخصر طريق واسهل
بحيث لا يتكلف ذهن السامع او القارى شيئاً من العناء ، واجتهاد الفكر ، مما يمكن ان يكون
في غنى عنه ، ولا يضيع عليه ايضاً ، مع هذا ، شي من ايجاد الاثر المقصود على اشدّه
في النفس . اذا كان المقام خطابياً ، او التمكين (مسع) الوضوح اذا كان المقام علمياً
او فلسفياً ، وهذه الغاية تقتضي بدائعها الشروط التي ذكرها العلامة السيوطي كما
قدمنا " (٤) .

وعنا يربط ضومط هذا الكلام الذي ذكره حول البلاغة بفكرته التي اشار اليها
في وجوب النظر الى جميع النص . وهي فكرة جديرة بالاعتماد ، وبخاصة ، اذا عرفنا
ان ابحاث البلاغة توجه عنايتها في الدرجة الاولى الى جزئيات لا تتعدى الجملة .

(١) الخواطر الحسان ، ضومط ، ص ١٤

(٢) = = = ص ١٥

(٣) لعلها (من)

(٤) خواطر الحسان ، ضومط ، ص ٢٢ .

وعو يقول في هذا الصدد :

"والحق ان متعلق البلاغة انما هو في المقالة او الكتاب برمته ، لاني الجملة المفردة او القطع الواحدة • وليكون الكاتب بليغا لابد من ارتباط الجمل بالقطعة والقطعة بالمقالة او الفصل ، والفصول بابحاث الكتاب على الجملة ، ثم لابد من ان يكون الارتباط والترتيب مخصوصا على ما ذكرناه ، ويؤدي الى النهاية التي اشيرنا اليها •

ثم يقول :

• ولا يخفى ان الارتباط يكون باعتبار الزمان والمكان ، او الاستصحاب والعلة والمعلول والنهاية والصورة والمادة والوشم والتخيل الى غير ذلك •

"والكاتب البليغ من احسن جميع هذه الاعتبارات ، ويربط بين جملة وقطعه وفصوله على ما يقتضيه الحال بانسب الروابط وادلها على الغرض المقصود بجميع اعتباراته ومحيطاته عليها انشرنا •"

ودليل المؤلف في " ان متعلق البلاغة انما هو في المقالات المستقلة بموضوع بخصوصه ، او في الكتب المشتملة على مسائل علم من العلوم ، او فن من الفنون بجملته ، انما هو ما نراه من تعدد المؤلفين والكتاب في الموضوع الواحد ، وتفضيلنا ما يكتبه الواحد على ما يكتبه الاخر ، على حين يكون كل من الكاتبين اماما في اللغة • واذا تتبعنا ما كتبوه لم نجد في احدهما نقضا او اخلافا في المقامات التي ذكرها العلامة السيوطي من توكيد وتركه ، وذكر وحذف • وتلخيص وتعريف ، وفصل ووصل ، وايجاز واطناب • بلى ، قد نرى بعض الاختلاف بين ايجاز واطناب ، الا اننا نحكم بالذوق ان ليس شي • منهما بذاته (د ا ع) (٢) الى الحكم ببلاغة المقالة او الكتاب ، بل قد نكتفي بايجاز الواحد ولا ننكر اطناب الاخر ، مع بقاء الحكم بان هذا المؤلف ابلغ من ذاك • وليس هذا الا لاحكام الارتباط بين قطع هذا المؤلف وفصوله دون ذاك ، وترتيب شخصه في هذا دون ذاك يكون معهما الكتاب الذي الفه فريد ابلغ من الكتاب الذي الفه عمرو ، وبالضرورة اكثر قبولا منه عند القراء ، وواقع في نفوسهم " (٣) •

(١) الخواطر الحسان ، ضومط ، ص ٢٢

(٢) هكذا في النص ، والاصح (د ا ع)

(٣) الخواطر الحسان ، ضومط ، ص ٢٢ - ٢٣ •

هذا ويتطرق المؤلف تحت عنوان "الايجاز في المقالات والرسائل" الى ذكر الايجاز في المقالة ، اى الى تناول العمل الادبي كله ، بايجاز شديد ، لانه معنى هنا كالقداس بالايجاز في الجملة ، فيعتبر " هذا النوع من الايجاز هو العمدة وعليه مدار البلاغة في الحقيقة ، والفرق بينه وبين ما امرنا هو في الجملة الواحدة ، بمعنى ان تخلص من كل كلمة يمكن الاستغناء عنها وهذا في المقالة او الرسالة بمعنى ان تخلص من كل جملة يمكن الاستغناء عنها في كل جملة من جملة على جدتها ان تخلص من كل حشو لا فائدة منه " (١) .

اما كتابه (فلسفة البلاغة) الصادر سنة ١٨٩٨ فهو من خير الابحاث البلاغية درسا وتطبيقا التي اخرجت في لبنان خلال القرن التاسع عشر كله . والكتاب ، يمثل خطوة تجديدية في الدرس البلاغي ، بعيدة كل البعد عن التقليد الاتباعي ، ومهما قيل في امر افادة المؤلف من اراء الكتاب الاجانب كـ " هرسرت سيمر " وعوما اشار اليه المؤلف نفسه ، (٢) فان تطبيق مبدأ عام ، وهو مراعاة ذوق السامع ، على ابحاث البلاغة العربية كلها في شكل نظرية شاملة ، تناولت مبدأه في قسمين :

- الاول : يرجع فيه ابحاث البلاغة الى فكرة الاقتصاد على انتباه السامع .
- والثاني : يرجع فيه ابحاث البلاغة الى فكرة الاقتصاد على متانة السامع .

لما يسترعي الانتباه ، ويدعو الى التقدير ، وبخاصة اذا عرفنا ان ضومط قد اجاد هذا التطبيق اجادة تلم عن رسوخ قدمه وتفهمه العميق لجزئيات تلك الابحاث التي عرّف وكلياتها ، وعلى انه يرتكز في ذلك كله على الذوق والبرهان العقلي حقا ، كما ذكر في كلامه على ايجاد مبدأ عام تستند اليه جميع قواعد البلاغة .

" واذا لاحظنا ان هذا التطبيق عربي في جميع اعطائه واقسامه وانه تناول البلاغة في دائرتها العربية التي لاتعدو الجملة ، وان اتخذ مبدأ عاما واحدا في ادارة القول حولها ، كصنيع اصحاب النظريات ، من الفرنجة ، او حاول مرة في

(١) ص ٢٤ ، خواطر الحسان

(٢) فلسفة البلاغة ، ص ٨٨ .

كلامه على تنسيق الجمل في القطعة ان يعدود دائرة الجملة مكثلا ، فان افادة صاحبه من مصادر اجنبية غريبة لا تقلل من قيمته ، بل هي تدل على ما يجب ان تكون عليه العلاقة الثقافية بيننا وبين الغرب ، حين نريد تطعيم افكارنا بشي من افكارهم ، والتعبير عما في حياتنا من تيارات مختلفة " (١) .

ولم ينس ضومط في كتابه هذا فكرة مطالعة كتب البلغاء من العرب القدامى فقد عدها مهمة لدارس البلاغة ولمنشئها معا " وما قدمنا ما قدمناه الا تنبيهها لك على اهمية مطالعة كتب البلغاء والنظر فيها نظر مراجعة وتأمل حتى لا يفوتك شي من معانيهم ولا من الفاظهم وعباراتهم ولا من الاساليب التي يتوخونها للوصول الى مقاصدهم . فانك اذا اغفلت ذلك واعتمدت على مجرد معرفة اسباب البلاغة والمبادئ التي ترجع اليها في كتب القوم لم تفدك هذه المعرفة " (٢) .

وقد بلغ من شدة التنبيه للمبدأ العام ، الذي طبقه على ابحاث البلاغة ان حاول تطبيقه كذلك على اطراف من الشعر ، وبخاصة ماراه من فروق بين الشعر والنثر (٣) ، فكان في ذلك ملحقا الشعر ، والشاعرية والفرق بين الشعر والنثر بالبلاغة .

وعلى هذا ، يكون ضومط قد حدد الغاية من كتابه في اهتمامه لقوتسي السامع اذا سمع العبارة الكلامية ، قوة لفهم او الادراك ، وهو مدار القسم الاول حيث ارجع ابحاث البلاغة الى فكرة الاقتصاد على انتباه السامع ، وقوة للتأثير والانفعال ، وهو مدار القسم الثاني الذي اراد فيه ارجاع ابحاث البلاغة الى فكرة الاقتصاد على متأثرية السامع .

ويرى ضومط ان الموضوع لا يوفى حقه " اذا اغفلنا الكلام عن الاقتصاد على المتأثرية ، لان الاقتصاد عليها ان لم يكن اهم من الاقتصاد على انتباه السامع فهو مساو له " (٤) .

(١) تاريخ النقد في لبنان ، هاشم ياغي ، ص ٢١٥

(٢) فلسفة البلاغة ، ص ١١ - ضومط ،

(٣) = = ضومط ص ١٢٥

(٤) = = = ص ١٤٣ .

ولمزيد من التيقن في العمل التطبيقي ، يعمد ضومط ، الى جلب شواهد منتقاة في التعريف البلاغي ، تؤكد ماوصل اليه من فهم خاص وتدعم نظريته الذوقية هذه .
 ألا ان يتوصل على أضوائها الى دعم نظريته الذوقية هذه ، و " الى مبدأ البلاغة وضابطها الكلي الذي تتفرع عنه جميع قواعدها " (١) فيذكر ما قاله عبد الحميد بن يحيى من ان البلاغة " تقرير المعنى في الافهام من اقرب وجوه الكلام " ثم ما قاله بعضهم من أنها " التقرب

من البعيد ، والتباعد من الكلف " ————— والدالة بقليل على كثير " وما قاله ابن المعتز من ان " البلاغة البلوغ الى المعنى ولم يطل سفر ——— الكلام " وما قاله احدهم من ان " البلاغة ايجاز في غير اعجاز واطناب في غير خطل " وما قاله اليوناني والفارسي وغيرهما من تعريفات لا تبتعد عن الغاية المرجوة من الاختيار الذي حدد الكاتب مداره العام وما يتفق ونظريته المذكورة . وهذا ما اتضح من استنتاجاته حيث قال : " فاذا تأملت هذه الاقوال ، والتعاريف وجدت من ورائها جميعا هذا المبدأ وهو :

" الاقتصاد على انتباه السامع " ويفسره بقوله : " بمعنى الاتجلى "الذهن في انتقاء مفردات جملتك ولا في تنسيقها وسائر ما يتعلق بها الى صرف ما هو في غنى عن صرفه من قوة انتباهه لا ادراك المعنى المقصود بها " (٢) .

وعلى هذا فاللغة عنده " آلة لنقل الافكار " (٣) يصدق عليها " ما يصدق على الآلات الميكانيكية من انه كلما كانت اجزاؤها ابسط تركيبا واتقن ترتيبا زادت فاعليتها وانتفع من القوة المستخدمة هي في نقلها وايصال اثرها . وكلما ضاع من القوة فيها اما لكثرة اجزائها او لعدم المناسبة بينها او لاخلال في وصفها ——— وترتيبها نقص على نسبة ذلك من تأثيرها ونتيجتها " . فلا يكون للقارى او السامع من ثم ، في كل هنيهة مسينة الا مقدار معين من قوة الانتباه ، وهذا المقدار لا بد من صرف جز منه في سماع الكلمات واحضار صور الصائبي الموضوعه بازائها ——— ولا بد ايضا من صرف جز آخر منه في ترتيب تلك الصور بحسب مالها من العلاقات بعضها ببعض ، وما بقي من تلك القوة فينفق في تحقيق الفكر المودع في الجملة

(١) فلسفة البلاغة ص ١٢

(٢) = = ص ١٢

(٣) = = ص ١٣

وتثبيته في الذهن " وعليه فيقدر ما يزيد هذا الباقي الاخير تزيد صورة الفكر وضوحا ورسوخا في الذهن فيكون من ثم اثره في تحريك النفس اقوى وافعل ايضا " (١)
ويستغرق ضومط في شرح هذا المفهوم الذوقي للبلاغة ، حتى يستوفي المعنى في قول يشتمل على ما وضعه في الكتاب من فصول ، دون ان يغفل عن دور البلاغي في تنسيق تلك الصورة من الانشاء او عندستها ، يقول في هذا : " لا بد لمهندس البلاغة من النظر في آتة الكلامية والتحول بقدر الامكان في ازالته كل ما ينقص قوة كلامه وشدة تأثيره ؛

• ان من جهة الالفاظ أولا

• وتخصيق هذه الاجزاء ثانيا

ثم تنسيق الجمل التي لها مناسبة وتعلق ببعضها البعض ^{بعض} ثالثا .

وحسن استعمال التشبيه والاستعارة وغيرهما من انواع المجاز رابعا .

فان في كل ذلك مجالا للكاتب ان يقتصد على انتباه السامع وبالتالي ان يكون لكتابه وقع في النفوس وتأثير فيها وفقا لما تقتضيه البلاغة " (٢) .

انطلاقا من هذا النسق السام ، يشرع ضومط في بحثه ، عاقدا فصله الاول

على " الاقتصاد على انتباه السامع في اختيار الالفاظ " (٣) .

فينبه الى طبيعة انصراف الانتباه حين التلقي ، فيرى انها تتوزع بقوتين ،

تصرف منه قوة على تلقي اللفظ وادراك مقاطعه ، وقوة ثانية على استحضار معناه

لدى الذهن .

وعذا ما يستلزم بالضرورة ، سهولة اللفظ وقلة الحروف في الكلمة ، لينصرف

الانتباه من ثم ، الى استيعاب المعنى المراد منها .

ثم ينتقد ما ذهب اليه البيانيون ومن بعدهم الشعراء المتأدبون ، من تشدد

على رفض استعمال الفاظ كالمستشزرات والنقاج بدل المرفوعات والمذب وعلى من يأتي

بالطلخا دون الحمقا " (٤) مبديا ثلاث ملاحظات مهمة :

(١) فلسفة البلاغة ، ص ١٣

(٢) = = ص ١٣ و ١٤ ص ١٥

(٣) = = ص ١٥

(٤) = = ص ١٦

"أولاً :

إذا لم يكن لك من اللفظ ما يؤدي المعنى الذي تقصده إلا
مثل هذه الالفاظ أصبح من باب الضرورة استعمالها بخلاف
ما إذا كان هنالك لفظ ، كالجرشي والنفس مثلاً فإن العدول
إلى استعمال الجرشي بدلا من النفس ضرب من العي أو
التقصير .

"ثانياً :

لا ينبغي أن يلتبس عليك الفرق بين جزالة اللفظ وعسر التلفظ ،
أو كراهته في السمع فتحسبهما من باب واحد ، فانهما متباينان
كخلق الله الإنسان ضعيفاً ، وبراء . " والفارق بين جزالة
اللفظ وبين كراهته في السمع إنما هو حسن الذوق (١)

"ثالثاً :

إذا كان المقام مقام استعظم أو مقام مدح أو ذم أو مقام تعني
أو ترجي (١) أو تأسف ، أو تحسر واشبه هذه من الانفعاليات ،
فاختيار المفحمة من الالفاظ على الرقيقة والكثيرة المقاطع على
قليلتها أولى وانسب ولا سيما إذا كانت تلك الالفاظ هي
العمدة في الدلالة على تلك المعاني المصوقة لها الجملة " (٢)
ويذكر امثلة توضح ما ذهب إليه ، نقول المتنبي :

يطأن من الابطال من لاحتله ومن قصد العرآن ما لا يقصوم .

"فانه لو قال لا يدسن من الابطال بدلا من يطأن ما كان لها من الوقع ما تراه
للفظة يطأن مع ان الدوس هو الوط * الشديد " (٣) .

ويعقب ذلك بقوله دقيقة :

"وربما يخال في أول الامر ان هذا مناقض لما قدمناه من مبدأ الاقتصاد على

انتباه السامع .

(١) هكذا في النص . وهي (تمن أو ترج)

(٢) فلسفة البلاغة ص ١٧ .

... الا ان النقد الصحيح يرى المتأمل انطباق كل ذلك عليه وسببه ان الالفاظ
المفخمة لها دلالتان : دلالة (بوضوحها) (١) او بجوهرها على المعنى المراد ،
ودلالة بطبيعتها او بصفاتها على المبالغة في ذلك المعنى .

اذن يتنبه بوضع اللفظة الى معناها ، وينفس ذلك الوقت يتنبه بفخامة
لفظها الى فخامة المعنى المدلول عليه بها او المبالغة فيه ، وفقا لما يريد المتكلم
ومن الواضح ان في ذلك اقتصادا .

وما يصدق على الالفاظ المفخمة يصدق على الالفاظ الكثيرة المقاطع ، فانه
يتنبها معها للمتكلم ان يكيف صوته بها بما يصور العظمة او المبالغة " (٢) .
وفصل الكلام بعد ذلك في المعاني التي تقبل المبالغة والمعاني لا تقبلها ،
فيحصر المبالغة في الذهنيات المعنوية لاني الماديات الحسية . " فالجبل مثلا
لانه من المعاني المحسوسة لا يقبل المبالغة باللفظة الطبيعية ، لان لكل جبل
علوا معينا واتساعا معينا ، وكذلك الفاقة . . بخلاف الحزن والفرح فانهما نوعان
من الوجدانيات يتفاوت كل منهما في الشدة والضعف " (٣) وما كان من هذا القبيل
كالتضي والترجي والتندم .

ثم يوضح انه يفضل في انتقاء الالفاظ ، المؤلف على غير المؤلف ، من حيث
المأنوس والمدلول في التعبير بين الكتاب والقراء .

— اما الفصل الثاني " الذي عقده حول الاقتصاد على انتباه السامع في وضع
الالفاظ في الجملة " فأهم ماورد فيه ، تلك الملاحظات التي ابداهام بينها بامثلة
من الشعر والنثر من وجوب تقديم الصفة على الموصوف لطبيعة العلاقة في القيود
والقييدات المفردة . يقول : والذي نريد الاشارة اليه : انما هو ذكر بعض ملاحظات
اذا نحن راعيناها كما اقرب الى الاصابة في ترتيب العبارة اللفظية بحيث نطبق على
الصورة الذهنية .

واول ما نبدا به القيود والقييدات المفردة :

(١) مودت خطا في النص ، (بوضوحها)

(٢) فلسفة البلاغة ، ص ٢١

(٣) = = = ، ص ٢١ .

ومنها الصفة والموصوف (وليست الصفة النحوية فقط ، " بل ما يكون قيداً للموصوف يبين على الحقيقة صفة من صفاته ، أو حالاً من أحواله المعنوية " (١)

وبينا لما ذهب اليه من القيود والقيود المفردة ، ومنها الصفة والموصوف لها طبيعة توجب تقديم الصفة على الموصوف بقصد " أن قائلها " أى التركيبين ابلغ إذا لم يمنع مانع من أحدهما : (أقدمت سود الرايات مثلاً ، أم أقدمت الرايات السود) فإن لفظة (سود) صفة في المعنى للرايات تقدمت عليها ، تأخرت عنها .

فيجيب : " قلنا الدليل يرجح الأول على الثاني " وحجته في ذلك لسببين :
أولاً " أن الصفة أهم والموصوف أخص وإذا اجتمع الاخص والاعم وتساوت في تقديمها وتأخيرها سائر الاعتبارات الأخرى . فالاعم أولى أن يقدم على الاخص لأنه يهيئ الذهن لتصور الاخص .

ثانياً : أن الموصوف لا يدرك إلا بالصفة بمعنى أن ما نلاحظه من الموصوف أولاً ، إنما هو الصفة كاللون والشكل فتقدم الصفة إذن طبق لصورة الإدراك الحقيقية عند الذهن ، فهو إذن ابلغ " (٢) .

وبعد مزيد من الأدلة على نظرية وجوب تقديم الصفة على الموصوف ، يخلص ضوابط إلى أبداً ملاحظتين مهمتين :

الملاحظة الأولى : " أن اللغة لا تطاوعنا دائماً على تقديم الصفة لأنها رسخت على صور وهيئات . أن أقدمنا على هدمها حبا بالاقتصاد انعكس بنا الأمر إلى الاسراف ومن ذلك هذه النعوت الجملة فإنه لا بد فيها من ضمير يربطها بالنعوت وهذا الضمير لما كنا قد كعدنا الخصوصية في اللغة وطول الالفة بها أن فردنا إلى متقدم أصبحنا لا نلاحظ رجوعه إلى المتأخر إلا بعد أن يعيننا التفتيش عنه في الكلام المتقدم .

(١) فلسفة البلاغة ، ص ٣٠ - ٣١

(٢) = = = ص ٣١ .

وفي ذلك اسراف في اتفاق قوى الذهن لتغير طائل ، ومعاكسة لمبدأ البلاغة
لانه يزيد على الاقتصاد الحاصل من تقديم النعت فصار اذن من ضرورة البلاغة
ان نقدم المنصوت * (١) .

— الملاحظة الثانية : " ان من الصفات ما يتقدم ادراكها في الذهن على
الموصوف ومنها ما يتأخر . ويمثل ذلك بقوله : " تطول القامة وحسن الوجه . . وما شأن
ذلك من الصفات المقارنة لموصوفاتها هي مما تسبق صورها في الذهن على صور
موصوفاتها " . (٢) .

ومن باب الصفة والموصوف ، الفاظ التوكيد واسماء الاشارة ، فيرى ان الوجهة
الابلاغ تقتضي بان تتقدم على المؤكد والمشار اليه ، كتقديم لفظ التوكيد ، (جميع)
في " خرج اليه اهل اورشليم وجميع الكورة المحيطة بالاردن " . فانها ابلاغ منها
مع تأخيرها * (٣) .

وفي الفصل الثالث ، يتناول ضومط مبحث الفعل وقوده وسبب ، ليفصل القول
في تقديم السبب الذي من اجله يقع الفعل ، ومتى يتأخر ، ثم في الجور والمفعول به
وتقديمها ومتى يجوز تأخيرهما ، ثم في تقديم زمان الفعل ومكانه .

ومع ان جل هذه المباحث ، قديم ، فان ضومط يبقى شديد الحذر من ظن ظان
بما اقدم عليه ، وكأله سطوة التقليد مازالت تهدد فوق رأسه ، بدليل قوله : " وفاية
مانقول له ان اللغة قد جرت مع الالام على صور معينة ، ورسخ فيها كثير من تلك الصور
على هيئات اصبحت تغييرها صعبا او مستحيلا ، ولذلك فقلما نطمع الان في ان نطابق
دائما بين الواقع المتبع من الاوضاع وبين الاحكام النظرية التي ذكرناها آنفا — من
تقديم القيود على المقيدات مطلقا .

" والمعول عليه عملا انه اذا تهيأ لك من غير كلفة ولا ^{ومسب}تقييد ان تقدم على الفعل
والموصوف بعض قيودهما او كلها فقدم ما اكتب لك من غير تخوف ولا تحرج فان النظر

(١) فلسفة البلاغة ، ص ٣٦

(٢) = = ، ص ٣٦

(٣) = = ، ص ٣٧ .

المقلي يقضي لك به " (١) .

ففي هذا القول ملاحظة جيدة لكنها مرنة تسير في حذر وقلق شديد .
 أما الفصل الرابع ، فمقدّم الكاتب حول قيمة التنسيق بين جزئي الجملة
 المسند أو المسند اليه . ويرى أن تنسيق الموصوف والصفة والفعل ومشتقاته تساق
 تنسيق مفردات كل من المسند اليه والمسند اذا نظر الى كل منهما على حدة ، ثم
 ينظر في تنسيق المسند والمسند اليه اذا اجتمعا معا ، ويقول " والكلام هنا ليس
 الجواز وعدمه ، بل في أي التنسيقين أكثر بلاغة في جميع المواطن حيث لا يقتضي
 استعمال اللغة وتقاليدها ، الراسخة تقديم أحد الجزئين على الآخر .

ويرى ضومط دون ريب أن مقياس البلاغة راجع إلى أي التنسيقين أكثر اقتصادا
 على انتباه السامع ، وباختصار أي التنسيقين أكثر انطباقا على الصورة الذهنية
 المدركة عند العقل " (٢) .

منتهيا إلى تقرير أن " تقديم المسند على المسند اليه هو الموافق في أغلب
 المواقف للبلاغة ولابد للبلاغة ، أعني الاقتصاد المشار اليه " (٣) . مكملا لذلك
 بشواهد كثيرة كقول الشاعر أشجع بن عمرو السلي :

قصر عليه تحية وسلام فيه لأعلام الهدى أعلام
 نشرت عليه الأرض كسوتها التي نسج الربيع وزخرف الأوهام

و (قصر) وهو المسند . لتوجه التفات الذهن اليه ، ذكر أولا ، بل اقتضت
 البلاغة ذكره وحذف المسند اليه أيضا .

" وهذا شأن كبار الشعراء " ، فانك ترى الغالب في (كلامهم) أنه يتقدم
 المسند على المسند اليه ولا سيما في مواقف التهيج والانفعالات " (٤) .

إلا أن ضومط يستدرك ، فينبه إلى أن ما ذهب اليه من شرح للقاعدة يعود في
 الغالب وليس دائما .

(١) فلسفة البلاغة ص ٤٠

(٢) أي تنسيق المسند والمسند اليه ، وما تكلم عنه في تنسيق الموصوف والصفة
 والفعل ومشتقاته .

(٣) فلسفة البلاغة ، ص ٤١

(٤) = = = ، ص ٤٤ .

وفي كلامه بعد هذا ، على تنسيق الجملة الشرطية ، يرى ان يتقدم لفظ الشرط على لفظ الجواب ، حتما تقتضيه البلاغة ، وهذا احد الامثلة التي اوردها وانتقدها وفق ما ارتآه ، من اسس سابقة في التنسيق ، فهذا قول الشاعر : (١)

ولو ان ليلي الاخيلية سلمت علي ودوني جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة اوزقها اليها صدى من جانب القبر صائح

فلا يرى فيهما سلامة الانشاء لعدم استيفائهما شروط البلاغة في التنسيق وذلك لثلاثة اسباب :

- اولا : انه كان عليه تقديم الحال وهو قوله .
- ثانيا : انه كان عليه تقديم الفعل وهو المسند .
- ثالثا : فيهما لفظة زائدة عن الحاجة وهي لفظة " صائح " (٢) .

ثم يعتمد من ثم الى نشر البيتين امتحانا منه لقيمتهم البلاغية ، انطلاقا من المبدأ القائل " ان شعره نبليغ لا ينثر " (٣) ولا يرى ذلك في البيتين السابقين ، مما جعله يقرب " انهما لا ينطبقان على القواعد التي مرت " (٤) . ويقابلهما بعد ذلك ، بقول المتنبي : ان كان سرهم مقال حاسدا فما الجرح اذا ارضاكم الم .
منتھيا الى القول بصعوبة نشر البيت : " مهما تكلفت فالبيت اذا نثر لا يمكنك ان تغير اوضاعه كلها عليه واذا ميزتها انقلب الكلام الى الركادة ويعلل ذلك بقوله : لانه (اي المتنبي) قدم الشرط وآخر الجواب ، ثم قدم المسند على المسند اليه في كل من الشرط والجواب .

" ولما كان تقديم الحال (اذا ارضاكم) لا تؤذن باللفظة وضعه اقرب ما يكون لصاحبه . اما تنسيق الجمل المتعددة في القطعة (٥) ، فيقول فيه :

-
- (١) فلسفة البلاغة ص ٥٣
 - (٢) = = ص ٥٤
 - (٣) = = ص ٥٤
 - (٤) = = ص ٥٤
 - (٥) = = ص ٥٥٢

"لنا هنا ملاحظة أخرى خارجة عن تنسيق الجملة الواحدة ، ولكنها غير خارجة عما يوجب البلاغة ، وهي تنسيق الجمل . فلما ان الجملة الواحدة لا يوافق البلاغة فيها أن تنسيق كان ، بل لابد من تنسيق بصور المعنى المراد منها على اخصر طريق واسهله ، (و) (١) هكذا الجمل المتوالية لابد من تنسيقها ، بحيث يكون فهم مجمل المعنى المراد منها يدركه العقل ، مع اقل تعب ممكن ، وهنا لابد من انطباق الصورة اللفظة بالكلامية على الصوق المعنوية الذهنية . فان هذا الانطباق هو (كما رأينا) سر من اسرار البلاغة ، بل هو ركنها الذي تستند اليه " (٢) .

وبعد ان يبين هذا القول ويوضحه يستدرك في فصل طويل عنوانه " التنسيق القريب والبعيد والمتوسط " (٣) .

أرى يرى ضوط ان التنسيق القريب فطرى في الشعراء ، وكبار الكتاب أوغني الانسان المتوقدة . . ويكثر في كلامهم اذا تحركت نفوسهم وجاشت خواطرهم .

اما مايريد في التنسيق القريب فهذا " ما تقدم فيه الصفات على الموصوفات ، والقيود على المقيدات ، والمسنند على المسند اليه ، وفعل الشرط على جوابه ، والجمل الثانية او شبهها على ما هي قيد ، او شبه قيد له في الجملة الاصلية .

اما التنسيق البعيد فهو ذلك التنسيق الطبيعي عند كافة الناس . ولا سيما اذا لم تكن اذهانهم متنبهة او على شيء من النشاط والارتياح " بدليل انه بديهي عندهم غالب في جميع مناحي كلامهم " (٤) . ويرى بالتنسيق البعيد ما كان على عكس القريب .

اما التنسيق المتوسط ، فيرى انه عمدة الخطباء والشعراء " وعليه معمول الكتاب البلاغ " .

(١) الواوغير مذكورة في النص الاصلى .

(٢) فلسفة البلاغة ، ص ٥٧ و ٥٨ .

(٣) = = = ، ص ٦٣ .

(٤) = = = ، ص ٦٣ .

"وهو متوسط بين القريب والبعيد ، فلا تتقدم فيه القيود كلها على المقيدات ولا تتأخر كلها عنها " (١) .

ويعقب كلامه غذا بامثلة توضيحية ، وشواهد عملية ، تناولها مرتبة بمجموعات ثلاثية تقابل تنسيق المتوالي للقريب فالبعيد فالمتوسط ، مقارنا بينها على أن ينتهي المطالع بحكم من تلقا نفسه ، " شهادة ذوقه امكن في النفس واقرب الى حكم البلاغة " يقول في احد نماذجه .

(١) ايها السيد الكريم ، اننا كلنا اجمعين في هذا اليوم المبارك ، بدوام البقاء والترقي ندعو .

(٢) ايها السيد الكريم اننا ندعوك كلنا اجمعين في هذا اليوم المبارك بدوام البقاء والترقي .

(٣) ايها السيد الكريم اننا كلنا اجمعين ندعوك في هذا اليوم المبارك بدوام البقاء والترقي .

ثم يعلق بقوله : " رتب كل صورة في بابها على افضل ترتيب تراه فيبقى الحال على ماترى امامك من ان الصورة الثالثة اسهل فهما والظن في النفس موقعا " (٢) .

وفي فصل واسع يورد ضومط رأيه في انواع المجاز ، ويبين " انها انما يحسن وقعها اذا انطبقت على مبدأ الاقتصاد " (٣) .

ويعالج في انواع المجاز :

١ - التشبيه (٤) : حيث يوضح ان التشبيه في كل صورته العالية الواقعة مواقعها فيه اقتصاد علم ، انتباه السامع ، ويرى ان تقديم المشبه به ابلغ الا اذا " لم يعارض في التقديم مانع " (٥) .

٢ - ترشيح التشبيه : وهنا يبدو اثر نقله عن الفيلسوف " هربرت سبنسر " فيقول معلقا على قوله له :

-
- (١) - ٢ و ٣ ص ٦٤
 (٢) فلسفة البلاغة ، ص ٦٦
 (٣) = = = ص ٧٣
 (٤) = = = ص ٧٣
 (٥) = = = ص ٨٥ .

وقد تغالى الفيلسوف هيربرت سبنسر في مدح هذا الضرب من الكلام ، لما فيه من الاختصار والاقتصاد على انتباه السامع ، وذكر ان من احسن من اجاد هذا النوع من السبارة امرسون للكاتب الاميركاني الشهير ريموند في خطابه الاول من الزمان .
تلك القطعة

وقد اورد الفيلسوف الانكليزي/شاهدا ، الا انها لما كانت عريقة في البلاغة الانكليزية تركت ترجمتها مخافة ان اخرجها عن صورتها الاصلية . ولكنني رأيت قطعة في الجزء الرابع من احيا علوم الدين للامام الغزالي ، هي في حسن استعمال هذا النوع اعلى طبقة من قطعة امرسون كما يتحقق ذلك لعارف بالانكليزية والعربية اذا قابل بينهما " . (١) .

هذا ، ويعني ضومط بترشيح التشبيه ، ذلك الضرب من الكلام الذي يبدأ به الكاتب بالتشبيه بذكر طرفيه ثم يوهم تناسي احدهما واكثر ما يكون المشبه ويأخذ في ذكر احوال المشبه به ، كأن ليس في الكلام غيره " الا ان هذه الاحوال يلحظ العقل عند ذكرها ان لها ما يقابلها في المشبه " .

لقول احدهم " فمثال المال مثال الحية التي فيها ترياق نافع وسم نافع فان اصابها العقزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها - النافع كانت نعمة ، وان اصابها السوادى الغرقي عليه بلاء وهلاك " . (٢) .

فقد ذكر المشبه (المال) والشبه به (الحية) ثم تناسى المشبه واخذ يذكر ما يختص بالمشبه به " الا ان العقل يلحظ ان هذه لها احوال تقابلها في المشبه " .

٣- اما في كل من الاستعارة والمجاز المرسل والكناية ، فهو يسعى نحو توضيح سر البلاغة مرجعا اياه الى الاساس الذي بني عليه كتابه وهو الاقتصاد .

ملحق القسم الاول

وقبل ان ينتقل ضومط الى القسم الثاني من مبدئه العام في ان البلاغة تكمن في الاقتصاد على متأثرية السامع ، يعقد فصلا حول الشعر ، متناولا فيه اربعة مباحث هي على التوالي ،

(١) فلسفة البلاغة ، ص ٨٨

(٢) ص ٨٩ .

١- ماهو الشاعر (١)

٢- تحديد الشعر

٣- ما الذى يدخل في صناعة الشعر ويمكن للشاعر اعتماده على انه من

مواد صناعته . (٢) .

٤- لماذا الشعر ابلغ من النثر .

ونورد هنا رأيه في الشاعر لما فيه من ملاحظة واعية بالعمل الشعري ودور

الشاعر . حيث يرى ان الشاعر هو من "يشعر بما لا يشعر غيره من المناسبات بين

المعاني" ، وبين هذه "وبين العبارة الدالة عليها" ، فضلا عما يشعر به من مناسبة

المعاني وفبارتها لمقتضى الحال في الزمان والمكان كما عليه ان يشعر بالمشابهة

حيث لا يرى غيره الا المناقرة والمضادة .

"وبعبارة اخرى نقول : ان الشاعر يرى نفسه في الطبيعة وما فيها من

صور الموجودات ، ويرى الطبيعة تتخيل في نفسه بصورة الاحساسات والانفعالات

ليس بين صور هذه في نفسه وصورها في المرأة . الا ان هذه محسوسة بالحس

الظاهر ، وتلك من المعاني والوجدانيات " (٣) .

ولعل اهم ماورد في هذه الطحق حديثه عن الشعر "ولماذا كان ابلغ من

النثر" (٤) . ويجيب على ذلك برجوعه الى مبدئه العام الاول وهو الاقتصاد على

انتباه السامع "مبدأ البلاغة الاصلي" .

فيقول : " ان الاقتصاد في الشعر اكثر مما هو في النثر ، فلذلك هو ابلغ

وانليك بيان ذلك :

" الفارق بين النثر والشعر امران ، احدهما معنوي والاخر لفظي . . اما

" الفارق المعنوي المترتب على طبيعة الشاعر ، وعلى الحالة التي يكون عليها عند

النظم ، فهو قائم بامور ثلاثة يكثر ورودها في الشعر اكثر مما ترد في النثر وهي :

(١) ص ١١٤ - د. ف. الحكيم (١) ص ١٢٨ د. ص. د. ط. ط.

(٢) ص ١٢٨

(٣) ص ١٢١

(٤) ص ١٣٩ .

اولا : الایجاز

ثانيا : كثرة التشابه والکنایات وسائر انواع المجاز والاستعارة .

ثالثا : كثرة ورود تقديم القيود على المقيدات .

وهنا يذكر ان الایجاز والمجاز وكثرة تقديم القيود كلها تبين ان الاقتصاد فيها على انتباه السامع اثر من اضوارها .

ثم يوضح بمثالين : ان الفارق اللفظي ، وهو الوزن بين الشعر والنثر ، فيه اقتصاد اكثر * (١)

هذا هو مجمل ما بحثه ضومط ، من مسائل بلاغية ، نظرية وتطبيقا ، وانتقادا في القسم الاول من مبدئه السام اي * الاقتصاد على انتباه السامع * مدار اهتمامه الاول لقوة الفهم او الادراك . اما مدار اهتمامه الثاني المنحصر بقوة التأثير والانفعال عند السامع ، والمكمل لمبدئه السام فقد اجراه حول :

* البلاغة في الاقتصاد على متأثرة السامع * (٢)

ويوضح قيمة ذلك فيقول مهديا :

* لا يقتصر السامع اذا سمع العبارة الكلامية على ان يفهم معناها فقط ، بل هو يفهم معناها ، ويتأثر بها معا * .

ففيه اذن قوتان : قوة للفهم او الادراك ، وهو ما اردنا بانتباه السامع ، وقوة التأثير والانفعال ، وهو ما نريده بالمتأثرة * (٤) .

ثم يقول : * وعلى ما نرى لا يوفى الموضوع حقه اذا اقلنا الكلام عن الاقتصاد على المتأثرة لان الاقتصاد عليها ان لم يكن اهم من الاقتصاد على انتباه السامع فهو مساو له * (٥) .

(١) ص ١٤٠

(٢) صفحة ١٤٣ .

(٣) هكذا في النص وهي (للتأثير)

(٤) صفحة ١٤٣ .

(٥)

ويقرر مفهومه الدقيق لهذا المبدأ من خلال ملاحظات أريح يعمده به—
ليبحثه :

— الملاحظة الاولى : القوة المتأثرة اذا تأثرت ابتداءً بمدرك من المدرجات
فلا بد ان تكون على حالة من القوة ، والضعف هي غير بعيد ان تتأثر استثناءً—
بمدرك ثان غير الاول .

والبلاغة كما لا يخفى تتوقف على كيفية تأثرها استثناءً ، فانه ان بقيت التأثيرات
التالية شديدة استمر الكلام على بلاغته ، والا شعر السامع بركاكته وتبرم به* (١) .

— الملاحظة الثانية : " القوى العقلية والبدنية الفاعلة والمنفعلة هي في
حالتها الطبيعية اقوى على العمل بد* منها عليه استثناءً ، فاذا اشتغلت ضعفت* (٢)

ويستنتج ضومط من هاتين الملاحظتين الاولى والثانية :

" ان علم^{على} الكاتب التحول في كتابته والانتقال فيها من صورة الى صورة في سائر
ما يأخذ به من ضروب الهيئات الكلامية ، لا يطيل في شي* مما يأخذ به من الوصف ، ولا
يكثر من موالاة معنى بعينه من معاني مدح او ذم . ولا يستهويه نوع من انواع مجاز
او مبالغة مهما حسن بنفسه ذلك النوع ، كما انه لا يتكلف ضربا واحدا من ضروب
المعبارة الكلامية او تنسيقا واحدا من تنسيقات الجملة ولا سيما في كل^{سائر} متحرك له
النفس ويهيج من انفعالاتها .

فاذا " وصف فليذكر ان الوصف وان بلغ النهاية في الاناقة والجودة فله حد ،
وكذلك المدح والذم وما اليهما* .

" كذلك فليحرص اذا انساق الى السجع او التوازن او الارسال الا يطيل المسجوع
ولا يكثر من المتوازن ، ولا يستمر على ضرب واحد من ضروب المرسل* (٣) . ويطبق ضومط
ما استنتجـه هنا من هاتين الملاحظتين على الواقع والمشاهد في النصوص ، فيقول :

(١) ص ١٤٣

(٢) ص ١٤٤

(٣) ص ١٤٧ و ١٤٨ .

" انظر في كتاب الكامل للمبرد ، والمقامات للحريزى ، فان الغرض من الكتابين واحد الا ان القارى لا يمل (من) مطالعة الكامل كما يمل (من) مطالعة المقامات " .

وبعد ان يذكر مزيدا من الامثلة التطبيقية ، يصل الى تعليق حول نص للامام الخفاجي فيقول :

" وليس انتقادنا هنا على الفاظ الامام رحمه الله ، فانها منتقاة ، ولا على معانيه ، فانها واضحة ظاهرة ، ولا على نفس التشابيه ، والاستعارات ، انما الانتقاد موجه الى الاقتصاد على متأثرية السامع ، لان التشابيه والاستعارات (والغرض منها التزيين) كثرت وتوالت بدون فصل ، فاشتدت على القوة المتأثرة حتى فتر من نشاطها " (١) .

- الملاحظة الثالثة : " النفس اذا فعل عليها مؤثران احدهما ضعيف والاخر اشد منه ، وتوالى عليها المؤثران ، الضعيف اولا ، والاشد ثانيا ، شعرت بأثر المؤثرين كل على حدة ، وادركت ايضا نسبة احدهما الى الاخر بخلاف ما اذا سبق ورود المؤثر الاشد عليها " (٢) .

- ويستنتج المؤلف من هذه الملاحظة ^{انتفاء} أنبغا " الانتقال " من الحسن الى الاحسن ومن المنبه الى المؤثر ، ومن المؤثر الى المبهج ومن الواضح الى مادونه في الوضوح " (٣) .

ثم يقول : " واما الخطيبا " في المحافل والمنتديات السياسية فمعظم بلاغتهم متوقف على الانتقال من منبه الى مؤثر الى مبهج ، حتى اذا وصلوا الى المبهج امسكوا عن الكلام ، وتركوا السامعين وشأنهم " (٤) . مبتشهادا على ذلك بنصوص لشكسبير وطارق بن زياد .

(١) ص ١٥٢

(٢) ص ١٤٦

(٣) ص ١٥٣

(٤) ص ١٥٤ .

- الملاحظة الرابعة : " الانتقال من احد الضدين الى الاخر يظهر

كلا من الضدين في اشد مظاهرها " (١) .

ك " النقطة البيضاء " في الرقعة السوداء " يظهر كأنما زاد بياضها وكذلك

ال سوداء " في الرقعة البيضاء " تظهر كأنما ازداد سوادها " (٢) .

اماما استنتاجه من هذه الملاحظة فيبدو من استهلاله بقول الشاعر :

ونذمهم وبهم عرفنا فضله وبضدها تتميز الاشياء

ثم بقوله " كما ان ذكر احد المتضادين او المتقابلين ينبه الذهن لادراك

للمضاد او المتقابل الاخر ، حتى اذا ذكر ادرك العقل صورته على غاية حسن

الوضوح ، فذلك الانفصال المصاحب لذكر احدهما ، يهيئ النفس لمزيد التأثر

من الانفصال المصاحب لذكر الاخر " (٣) .

ففي قول الشاعر :

لستان مابين اليزيدين في الندى يزيد سليم والاقرين حاتم
فهم الفتى الازدي اتلاف مالهم وهم الفتى القيسي جمع الدراهم
فلا يحسب التمتع اني هجوتهم ولكنني فضلت اهل المكـارم

" مقابلة زادت النفس كراهة ونفورا من الثاني ، وحبا وميلا الى الاول على

ما هو ظاهر بشهادة الحس والذوق " (٤) .

(١) ص ١٤٦

١٤١ - ١٤٢

(٢) ص ١٥٦

(٣) ص ١٥٧ .

وفي نهاية حديثه يزيد قائلا : " ان بين الاقتصاد على انتهاء السامع
وبين الاقتصاد على متأثره نسبة كنسبة الفطحة الى البلاغة ، ^{عند السامع}
(كما لابد في البلاغة من مراعاة النفاحة ، هكذا في الاقتصاد على متأثره السامع ، ^{لا}
بمعنى انه لابد من مراعاة الاقتصاد على انتباهه .

اذا تم للكاتب مراعاة هذين الاقتصادين ، كان كلامه على اعلى طبقة من
طبقات البلاغة " (١) .

" وبالاجمال يصدق (^{عند} الكاتب حينئذ) كل ما يصدق على ^{أعلى} الكائنات
الحية من ان اجزاءها ، على تخالفها (واجداد) كل منها اثرها خاصا به
في ايضا كاجزاء البدن الانساني ، كل منها مرتبط بمصاحبه على اتم ارتباط
وافضل ، بحيث يتألف من مجموعتهما (كما يتألف من مجموعته) وحدة كلية فيها
دعشة للمناظرين ، ومجمال فكرة للمتأملين " (٢) .

(١) ص ١٥٩ .

(٢) هكذا في النص وهي (واجداد)

(٣) ص ١٦٠ .

الفصل السابع

مسائل الصرف والنحوي

القرن التاسع عشر

في لبنان

ظهر في القرن التاسع عشر ، كتابان في الصرف والنحو ، اثارا عاصفة نقدية عنيفة ، كان من نتائجهما ان تحرك البحث النحوي ، وانفك من عقـال جمود سيطر عليه عدة قرون سبقت بحثنا .

اما الكتابان فهما " غنية الطالب ومنية الراغب لاحمد فارس الشدياق " و " نار القرى في شرح جوف الفرا " لناصر اليازجي .

١- كتاب " غنية الطالب ومنية الراغب " (١) لمؤلفه احمد فارس الشدياق :

يرى الشدياق ان الدافع الذي حدا به الى تاليف الكتاب هو انه لما رأى العربية متشعبة القواعد ، مبددة الفرائد ، وان كثيرين من ذوى الفهم والقطنة يحجمون لاجل ذلك من تعلمها مع حرصهم عليها وتشوقهم اليها ، خلج ضميره ، وشغل تفكيره (كلام بلغا) ان يتصدى لتسهيل مصاعبها ، وتيسير مطالبتها ، في مؤلف خال من التطويل ، والتعليل والتأويل . وانه الف لذلك هذه الرسالة السهلة الترتيب ، الواضحة التبويب . . وانه يضمن للطالب ان يتناول الصرف والنحو في ثلاثة اشهر ، وعلى ذلك بعلى ، وفصل فيه تفاصيل خاصة .

هذا وقد قسم الشدياق كتابه الى ثلاثة اجزاء : الاول في الصرف والثاني في النحو والثالث في حروف المعاني . وكل منهم مشتمل على عدة دروس " فاذا تعلم الطالب منها في كل يوم درسا واحدا لم يضر عليه ثلاثة اشهر الا وقد احرز العلم كله " .

(١) كتاب " غنية الطالب ومنية الراغب " للشدياق ، مطبعة الجوائب سنة ؟

كما يوضح انه استقى مصادره من كتب السلف ، الموثوق بعلمهم وفضلهم على العلوم العربية ، فيصرح باخذه عن شرح الشافعية ، والشذور ، وشرح الالفية والكافية ، وشرح نواهد التحفة الوردية وشرح درة الفواص والكليات .

يضاف الى هذه المصادر - جميعا - كتاب " بحث المطالب " للمطران جرمانوس فرحات ، الذي يعود اليه الفضل في وضع الحجر الاول في بنيان الفصحى في لبنان ، في اواخر القرن الثامن عشر .

ورغم ان الشدياق لم يصرح باستفادته من هذا الكتاب ، فاننا نعلم تصام العلم ان جرمانوس فرحات كان مثالا اقتدى به رجال القرن التاسع عشر . حتى ان كتابه " بحث المطالب " صار معيّنا تستقي منه الكتب النحوية عناوينها .

وعلى كل حال ، ما ان ظهر كتاب " غنية الطالب " لاحمد فارس الشدياق ، حتى اثار ضجة في النوادي الادبية ، فذهب الشيخ سعيد الشرتوني يخطي " الشدياق في كتاب سماه " السهم الصائب في تخطئة غنية الطالب " فانبرى الشيخ ابراهيم الاحدب للرد على الشرتوني في كتاب عنوانه : " رد السهم عن التعريب وابعاده عن مرض الصواب بالتقريب " .

ولنستمع الى الشرتوني وهو يحكي لنا اسباب تخطئته للكتاب :

" وانما حملني على تخطئة هذا الكتاب اني لما رأيته قد شحن بالخلل والخلل ، وذهب فيه الفساد كل مذهب وام يثبت فيه برهان ولا نقل ، لم يسعني الا ان انبه على ما فيه من الاوهام والسقطات غيرة للعربية وخشية ان يفشو هذا الداء بين الطلبة ، اعاننا الله واياه " . (١) .

ويحدد الشرتوني - من ثم - طريقة العمل ، في انتقاده للشدياق ، حيث يستند في كل اعتراض على صحيح النقل عن اشهر ائمة العربية . معتمدا في ذلك اوثق الاراء - حسب رأيه - واضع الاقوال في المشهور . " دون ما يقصد به مجرد التعنت من المذاهب المختلفة التي لم يعول عليها الجمهور " . (٢) .

(١) كتاب السهم الصائب في تخطئة غنية الطالب ، لسعيد الشرتوني ، طبع في بيروت بالمطبعة الكلية سنة ١٨٧٤ ص ٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٠ .

ويضيف الشرطوني على هذا ، فيقول :

" قبل الشروع في تخطيط الكتاب نقول انه لا بد لمن تعمد الاخذ على احد ان ينظر الى حيثية المأخوذ عليه ثم يعامل على قدر حاله . فمن كان من اهل التدقيق والتحري دقق عليه في المسائل وانعم النظر في كلامه . ومن كان يقذف بالكلام مجازفة من غير روية ولا خبرة اكتفى معه بايراد المسائل الباهظة والمأخذ الصريحة دون ما يقصر بلاءه عن البلوغ اليه . والا كانت التخطيطة تعنتا في غير محلها " (١) .

وعلى هذا يكون الشرطوني قد جرى في تخطيط الكتاب وفق رأيين اعتقد بهما :
اولهما : تنبيهه على ما كان مخلا باصول الصناعة مما يؤدي الى فساد قواعدها
وذلك بايراد النصوص الصحيحة من كتب العلماء .

والثاني : ضربه صفحا عما كان مخلا بقوانين التأليف وصحة الايقاع مما يشير الى ضعف الشدياق في التأليف - حسب رأيه - وعدم مرونة على ايراد العلميات .

وينتهي الشرطوني الى ابعاد من هذا ، فيرى انه لو اراد ان يتكلف الكلام على جميع مواضع الغلط في الكتاب لكان ذلك شيئا مملا ، ان قلما تخلو عبارة عن النقد في وجه من الوجوه " .

ومن الطبيعي ان لا تمر اتهامات الشرطوني دون دفع من لغويين آخرين ، راوا في الشدياق قمة لغوية وادبية لاتجارى . فهذا الاحدب ، كما صرحنا ، يقوم بكتابه " رد السهم عن التصويب " برد افتراءات الشرطوني ، مرذلا عليه علمه وسلوكه . ونقتطف من مقدمة كتابه شيئا من هذا الرد ، لنرى منهج الاحدب ، ونقارنه من ثم بمنهج الشرطوني عبر امثلة من كتابيهما .

يقول الاحدب :

(١) نفس المصدر - صفحة ١٠ .

" اما بعد فاني مازلت منذ شعرت بمبادئ* الفنون ، ووردت من معين سلما لها
ماتقريبه الميرون ، اتجنب الدخول في مطاف المناظرين ، واخلد عند قيام حرب المناظرة
على ساقها ان يكون من القاعدين ..

" وطالما قرع سمعي تطاول قصير الباع ، عريض القفا ، بالتمريض ، ليقع مني
عند المجادلة بجديد الكلام في الطويل المريض ، فكنت اتصام عن سماع الخنا مع اني
اسمع من سمع ، واعرض عن التعرض لاولاد الزنا بما لا يطيب في سمع ، واغضي عن دعوى
كل دعي في الاداب .. حتى وقفت على اعلان في احدى الجرائد البيروتية ، لشربه
قائله مايخبت في السمع وتفتح به الطوية ، يتضمن احداث كتاب باسهال الزمان ، ولين
طبع من نسب اليه حيث انتقاد الى التأليف بدون عنان .. (١)

ثم يمضي الشيخ الاحدب في الثناء على احمد فارس الشدياق ، شعرا ونثرا
مكبرا ان يناله ناقد لاعلم له كالشرتوني .

وكان ريح النقد هذا قد طابت للنفوس ذلك القرن ، فقام اكثرهم شهرة ،
كي يساهم في هذه المناقشة ، او المباحثة على وجه احق . فهذا كتاب جديس
بسنوان " رد الشهم للمصم " يصدره الشيخ يوسف الاسير ، دفعا عن الشدياق ، ودفعاً
لادعاءات الشرطوني ، وسنذيل نقد الاحدب بشي* مما جاء في هذا الكتاب .

وسنتناول في الصفحات التالية بعض النقود التي جاءت في كتاب الشرطوني
ثم نعقب ذلك برد الشيخ ابراهيم الاحدب ، وفق توزيع ثنائي ، يعصم البحث من الغرض
التي سادت ردود الناقدين ، مبتدئين - كالعادة - بالنقود الصرفية فالنحوية
مختارين لذلك نماذج من الكتابين .

١- النقد الصرفي :

انتقد الشرطوني ماجا* في " غنية الطالب " في الصفحة ٢٥ ، قول الشدياق :

(١) من مقدمة كتاب " رد الشهم عن التصويب وايداءه عن مرضي الصواب بالتمريض "
لابراهيم الاحدب . مطبعة الجوائب بالاستانة سنة ١٢٩١ هـ . ص ٢ و ٣ .

(وربما جاء يريد وزن مفعلة) من اسم جامد نحو السبعة والمأسة لمكان يكثر فيه السبع والاسد وقس عليه المبطخة والمقناة) .

حيث يعلق الشرطوني بقوله : " وهو خطأ " والصحيح ان بناء من الاسماء الجامة مقيس من كل اسم ثلاثي كطالبة ومسبعة ونحوهما .

" وان كان الثلاثي مزيدا فيه كفتح حذف الزيادة فيقال متفحة وقس على ذلك " (١) .

ويحتكم الشرطوني الى علماء اللغة لتأكيد ما ذهب اليه فيقول :
 " قال العلامة الصبان . . . وقد صافوا مفعلة من الثلاثي اللفظ او الاصل لسبب كثرة مسماه او محلها مثالها لسبب الكثرة (الولد مجبنة ميخلة) اي سبب لكثرة الجبن من الحرب وكثرة البخل ولمحل الكثرة مأسة ومسبعة ومقناة ومعفاة اي محل اكثر الاسد والسبع والقنا والافعى " .

" وقال الامام الهمام صاحب المعنى . . . واذا كثر الشيء بالمكان قيل فيه مفعلة من الثلاثي المجرد فيقال ارض مسبعة ومأسة ومذابة وميطخة ومقناة " .

وهكذا يبين الشرطوني حكمه على اعتبار ان عبارة الشدياق يفهم منها القلة مع ان المؤلف لم يعن هذا كما ان البناء غير قياسي .

وقد انتقد الشيخ ابراهيم الاحدب قول الشرطوني هذا بقوله :

" لا خطأ في عبارة المؤلف (اي الشدياق) بل هو المخطي " (اي الشرطوني) بادعاء انه مقيس لاني تتبععت كتب التصريف التي بيدي كميزان الادب للعصام والعزى وشرحيه للسيد والسعد والمراح وشرحه ولامية الامثال وشرحها . . . فلم ار احدا صرح بان بناء مفعلة من الثلاثي مقيس بل الذي رأيته في شرح العلامة الرضوي للشافعية انه غير مقيس . ونحو عبارته بعد الكلام على اسم الالة : واعلم ان الشامي

(١) السهم الصائب ، ص ٢٤

(٢) السهم الصائب ، الشرطوني ، ص ٢٤ .

إذا كثرت في المكان وكان اسمه جامدا فالجاء منه مفعلة بفتح الميم والعين كالمأسدة
والمصبعة والمدابة أي المواضع الكثيرة الأسود والسباع والذئاب وهو مع كثرت ليس
بقياس مطرد فلا يقال مضبعة ومقردة ولم يأتوا بمثله هذا في الرباعي فما فوقه نحو
الضفدع ، والثعلب ، بل استغنوا بقولهم كثير الثعالب أو بقولهم مكان ثعلب ومعقرب . .
بكسر اللام في الأول على وزن اسم الفاعل السح . . .

ويتابع الاحدب قوله : " فان كان المؤلف (أي الشدياق) يقول بعدم
قياسيته فحسبه الرضى قدوة مع كون عبارته لاتصح بما ادعاه . وإذا كان للمعترض
(أي الشدياق) مأخذ يعتمد عليه يصرح بأنه مقيس ينبغي ذكره حسب عادته عند
إثارة جمجمة بدون طحن " (١) .

أما الشيخ يوسف الأسير ، فقد علق على ذلك بكتابه (رد الشهم للسهم)
حيث قال في هذه المسألة :

" قال صاحب السهم (يعني به الشرتوني) " ومن سقطات صاحب الغنية قوله
في ص ٢٥ وربما جاء وزن مفعلة من اسم جامد نحو المصبعة والمأسدة لمكان يكسر
فيه السبع والاسد وقس عليه .

ونص اعتراض السهم عليه . اقول مقتضى كلامه : ان وزن مفعلة يجي " قليلا من
مطلق الاسم الجامد وهو خطأ ، والصحيح ان بناء الاسماء الجامدة مقيس السح . . .
هذا نص اعتراضه (أي الشرتوني) .

" وجواب (العبارة هنا للأسير) ان هذا الاعتراض يدل على عيب بصيرته
وسوء سريره وتوغله في جهله . . . وذلك ان اخذ من رب الواقعة في قول الغنية ، وربما
جاء ، والحدال ان رب للتكثير غالبا . . . وعلى فرض انها للتعليل فعلتها من الجامد بالنسبة
للمشتق كضربة ومثربة ومأكلة الى ما لا نهاية له . والمشتقة من المشتق لا تكون غالبا
الا لما يكثر أيضا كمكتبة لما تكثر فيه الكتابة حتى لو وقف الانسان في مكان وكتب فيه كلمة
او كلمتين . نقلما يقال لذلك المكان مكتبة . وقول السهم : " والصحيح ان بناءه من
الاسماء الجامدة مقيس " يقتضي ان صاحب الغنية قال : انه لا يقاس . وعلى عن قوله

(١) رد السهم عن التصويب ، الشيخ ابراهيم الاحدب . ص ١٥ .

(اى الشرتوني) وقس عليه * (١) .

- وما انتقد الشرتوني ايضا صاحب " غنية الطالب " ماجا في الصفحة ٢٧

من كتابه ، اذ قال : (وان كانت الهمزة في اسم مؤنث بالالف الممدودة ^{تكتب} واوا نحو حمراوان وسوداوان ولا يجوز غيره) . فيعلق الشرتوني على العبارة الاخيرة بما نصه : " قوله ولا يجوز غيره زيادة في اللفظ ادت الى نقص في المعنى فما كان اجسده يتركها لان القلب في مثل ذلك هو الاعرف . قال الملا جاني رحمه الله : وربما صححت فقيل حمراآن وحكى المبرد عن المازني قلبها يا " نحو حمرايان . والاعرف قلبها واوا " .

ويتابع قوله : " على ان السيراني . . اوجب تصحيح الهمزة اذا كان قبل الفه واو لثلا يجتمع واوان ليس بينهما الا الالف . فتقول في عشوا عشوا " ان بالهمز ولا يجوز عشواوان ويجوز الكوفيون في ذلك الوجهين كما افاده الاشموني في شرح الالفية " (٢) .

ويرد الاحدب منتقدا قوله الشرتوني " ان تركها اجدر به لان القلب في مثل ذلك هو الاعرف ، وقد جا التصحيح وقلبها يا " . فيرى ان ما ذهب اليه الشرتوني لا يسلم من اعتراض ، فنقول الشدياق " ولا يجوز غيره " هو قول الصحاح في " ردى " وقد صرحوا بان التصحيح او القلب يا " شاذ . قال الاشموني وشذ حمرايان وهاشوران في قاصعا وهاشورا " بحذف الهمزة والالف معا والجيد الجرى على القياس قاصعا وان وهاشوراوان " .

ثم يقول في معرض رده على الشرتوني :
" وان كان القياس لا يجوز ما ذكر فكيف يعترض من قال لا يجوز فان اراد المعترض (اى الشرتوني) بقوله وقد جا التصحيح وقلبها يا " انه جا قياسا منع بما نقلناه .
وان اراد انه جا شاذ اسلم بدعوى المؤلف . ولا يجوز غيره .

ويضيف : " وقد صاغ اصمل التفضيل بقوله : هو الاعرف من المجهول ، اتباعا لعبارة الجاني . وقد علمت انه شاذ . فكان الاجدر به ان لا يستعمل ما يعترض به على غيره " (٣) .

(١) كتاب : رد الشهم للسهم ، للشيخ يوسف الاسير ، طبع في مطبعة الجوائب بالاستانة

سنة ١٢٩١ هـ . ص ٢٣ .

(٢) السهم الصائب ، الشرتوني ، ص ٣١ .

(٣) رد السهم عن التصويب ، ص ١٩ - ٢٠ .

٢- النقد النحوي :

ومما انتقد به الشرتوني صاحب "فنية الطالب" قول الأخير في الصفحة ٢٧ من كتابه حول حذف الخبر (ووجوباً في نحو لولا زيد لهلك عمرو أي لولا زيد موجود . وإذا كان الخبر خاصاً صح اثباته لقول الشافعي رضي الله عنه :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد)

فينتقده الشرتوني بقوله :

"مقتضى كلام المؤلف صحة اثبات الخبر وحذفه إذا كان خاصاً على الإطلاق

كما ترى ، وهو عن الصحة بمحزل .

والصواب ، أن الخبر بعد لولا يحذف وجوباً إذا دل على مطلق الوجود ،

ويجب اثباته إذا دل على وجود مقيد بصفة .

"ثم صوب التفضيل بما نقله عن الأشموني مما هو مشهور : قال العلامة

الأشموني في شرح بيت ابن مالك :

وبعد لولا غالباً حذف الخبر حتم وفي نصيبي نأ استقر

"أي في غالب أحوالها ، وهو كون الامتناع معلقاً بها على وجود المبتدأ

الوجود المطلق نحو : لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، أي لولا دفع

الله الناس موجود . حذف موجود وجوباً للعلم به وسد جوابها مسد .

"أما إذا كان الامتناع معلقاً على الوجود المقيد ، وهو غير الغالب عليها

فإن لم يدل على المقيد دليل وجب ذكره ، نحو : لولا زيد سالماً ما سلم وإن دل

عليه دليل جاز اثباته وحذفه نحو : لولا انصار زيد حموه ما سلم . وجعل منه قول المعري :

يذيب الرعب منه كل عذب فلولا الفمد يمسه لسا لا .

"وذعب الجمهور إلى أن الخبر بعد لولا واجب الحذف مطلقاً وبنا على أنه

لا يكون إلا كوناً مطلقاً . وإذا أريد الكون المقيد جعل مبتدأ . فتقول : لولا سالماً

زيد ايانا ماسلم اى موجوده " (١) .

وعكذا يكون اعتراض الشرتوني منحصرا في انكاره صحة اثبات الخبر وحذفه
اذا كان خاصا على الاطلاق ، صوبيا التفضيل بما نقله عن الاشموني ما هو مشهود .
ومن الطبيعي ان يكون رد الاحدب قويا على هذا الاجتهاد ، حيث يقول
مدافعا - بدوره - عن الشدياق :

" قلت لا غبار على عبارة المؤلف (يعني الشدياق) ولا يعترضها الا كل
جاهل لا يفهم معاني الكلام . وذلك لان قول المؤلف صح اثباته بمقابلة وجب حذفه .
فتصدق بوجود ذكره عند عدم الدليل على العكس . بخلاف وجود الدليل كبيت المعري
الذي ذكره المعترض كما لا يخفى .

" عبارة الجامي على القافية هنا كعبارة المؤلف حيث قال مشيرا الى وجوب
حذف الخبر بعد لولا ، هذا اذا كان الخبر عاما . واما اذا كان خاصا فلا يجب
حذفه . كما في قوله : ولولا الشعر بالعلماء يزرى . . . فمفهوم قوله " لا يجب حذفه " .
انه يجوز ، او يجب ذكره ، ولا شك انها كعبارة المؤلف ، فكيف يكون ذلك خطأ " (٢) .
هذا ما جاء من ردود على كتاب غنية الطالب لاحمد فارس ، انتقينا نموذجاً
من كل باب رجاء اكتمال الصورة النحوية والنقد النحوى الذى ساد في اواخر القرن
الماضي .

اما الشيخ ناصيف اليازجي (٣) ففعل في الصرف ، والنحو غير ما فعل الشدياق
وغيره . كان مثله الاعلى الحوك على نول القدماء ، فنظم مثلهم ونثر . كان اكبر همه ان
يكون له كتاب مثل الفية ابن مالك ، فنظم كتابه (نار القرى في جوف الفرا " الذى عرف
في الاوساط المدرسية بالارجوزة .

وتكملة لما بدأنا به من رسم صورة عامة لملاحج التأليف الصرفي والنحوى في القرن
التاسع عشر نقوم برصد تاريخي لمؤلفات الشيخ ناصيف اليازجي في هذا المضمار .

(١) المسهم الصائب ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) رد المسهم عن التصويب ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(٣) الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١) م .

١- "فصل الخطاب في اصول لغة الاعراب" : كتاب ثرى قسمه قسمين ،
كتاب التصريف وكتاب النحو . وهو مختصر تستعين به الطلبة الاصغر . ويقع الكتاب
في مائة وثمان وستين صفحة ، من القطع الصغير . طبع في بيروت سنة ١٨٥٤ في
١٢٤ صفحة صغيرة ، و اضاف الى شرحه بعض زيادات وطبع سنة ١٨٦٦ في ٢٥٧
صفحة ، ثم طبع سنة ١٨٧٧ في المطبعة الاميركية .

٢- "لمحة الطرف في اصول الصرف" ارجوزة في سبع عشرة صفحة
مشروحة بقلم المؤلف ، فرغ من تبويبها سنة ١٨٥٤ ، مقتصرا فيها على ماتجب
معرفته بالضرورة من علم الصرف . طبعت في المطبعة المخلصة للروم الكاثوليك
ببيروت سنة ١٨٧٠ .

٣- "نار الثرى في شرح جوف الفرا" ارجوزة في الصرف والنحو ، ضم اليها
ماتفرق في كتاب ائمة النحو . والكتاب ، في الاصل ، اسمه "جوف الفرا" لكن اليازجي
قام بشرح ماجا في نظمه ، "خدمة للمتأدبين الاخذين بعلم العربية" .

فصارت الارجوزة والشرح في كتاب واحد سماه "نار القرى في شرح جوف
الفرا" فرغ المؤلف من تبويبها سنة ١٨٦١ وطبع في بيروت سنة ١٨٦٣ في ٣٨٩
صفحة متوسطة الحجم ، ثم اختصره ولده ابراهيم سنة ١٨٨٢ في ٢٩٦ صفحة واعرب
شواهد المعلم شاهين عطية سماه "الدرر في عقود الجوهر" .

ولما كانت هذه الارجوزة تأخذ الفية ابن مالك معيارا تحتكم اليه ، وطريقة
تحتذ بها ، فقد صار من الواجب ان نقارن بين الارجوزتين كي نخلص الى حكم عام ،
مختارين فضلا واحدا من الارجوزتين على وجه التقابل والموازنة . فقد جا^ر عن خبر
لولا ما بحرفيته في النسخين :

(ابن مالك في الفية)

ناصيف اليازجي في (جوف الفرا)

- ١- وبعد لولا غالبا حذف الخبر
حتم وفي نصيمين اذا استقر
- ٢- وبعد واو عنيت مفهوم ---ع
كمثل كل صنع وما صن ---ع
- ٣- وقبل حال لا تكون خبرا
عن الذي خبره قد اض ---را
- ٤- كضري العبد مسيئا واتم
تبييني الحق منوطا بالحكم (١)

- ١- ويخلف الخبر ايضا في القسم
نصا جواب كلمرى لم السم
- ٢- وبعد لولا وهو كون مطلق
وشبه جملة به يعمل ---ق
- ٣- والحال لا تصلح اخبارا كما
في نحو ضري الغلام محرما
- ٤- وعطف واو لاصطحاب مثله
ايضا ككل فاعل وفعل ---ه (٢)

نلاحظ ما تقدم ان الفرق بين الابيات ، ان قول ناصيف اليازجي : "ويخلف الخبر ايضا الخ" .
عنى به ان الجواب بعد القسم يقوم مقام الخبر ويغني عنه ، كما يغني مرفوع الصفة عن خبرها ،
نحو اماض هم لانه عطفه عليه واتى بايضا وهو خطأ ووهم ، للفرق الظاهر بين اغنا مرفوع الصفة
عن خبرها "سد جواب لولا ، وجواب القسم والحال ، وما بعد واو المعية عن الخبر ، لان مرفوع
الصفة لا يقدر معه خبر ، فلا يقال اصل اماض هم اماض هم قاعد مثلا بخلاف ما ذكر فانه محذوف
مقدر كلولا زيد لقام عمرو اى موجود ، فاعله لولا زيد موجود لقام عمرو ، وكذا في سائر ما ذكر .
ولذلك قال ابن مالك في الاول واول مبتدأ والثاني فاعل المثنى في اسارذان وقال وبعد لولا غالبا
حذف الخبر الح

ولم يدرك ناصيف اليازجي هذا الفرق العظيم .

وقوله : "وبعد لولا وهو كون مطلق" فيه قصور لان الخبر يحذف ايضا حيث كان كونا مقيدا ،
ودل عليه دليل نحو لولا انصار زيد ما سلم اى حموه ، وفيه مذهب آخر وهو انه لا يكون الا كونا .
عاما وقوله : "وشبه جملة به يعمل" مراده ان شبه الجملة وهو الظرف ، والمجرور بحرف يغنى
عن الخبر مع ان ادخال ذلك في ما ذكر غلط ، لان فيه ثلاثة اقوال ، قيل الخبر هو المحذوف

(١) شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك - المجلد الاول ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ الطبعة الرابعة
عشرة ١٩٦٤ دار الكتاب العربي ببيروت .
(٢) جوف الفرا ، لناصر اليازجي .

وقيل هو الظرف او المجرور ، وقيل المحذوف مع الظرف او مع المجرور ، ولذلك قال ابن مالك ، واخبروا بظرف او بحرف جر ناوين معنى كائن او استقر .

- وقول اليازجي : " والحوال لاتصلح اخبارا " قد شكل اخبارا بكسر الهمزة ، وصوابه كما قال ابن مالك :

وقيل حوال لاتكون خبرا عن الذى خبره قد اضمرا .

وذلك ان الحوال قد تصلح لان تكون خبرا عن المبتدأ المحذوف خبره معها ، وحيثئذ لاتسد مسد الخبر . فلا يجب حذفه ، وقد لاتصلح لان تكون خبرا عنه فتسد مسد الخبر ، فالاول نحو : ضربى العبد شديدا . والثاني : نحو ضربى العبد محرما او سيئا . واليازجي في جوف الفرا يقول : " والحوال لاتصلح اخبارا والاخبار الاتيان بالخبر ، فإخطأ واوهم ، كما اخطأ في قوله وعطف واو مثله ، لان العطف مصدر لايسد مسد الخبر ، فان قبل ذلك لايجوز المجاز فيما هو تعريف ، او كالتعريف مع عدم القرينة الموضحة ، ومع ذلك كله ينبغي ان يكون جوف الفرا ادق من الفية ابن مالك لانه متأخر وجامع لكل كتب النحو كما يقرر اليازجي نفسه .

وهكذا ، تلوب محاولات ناصيف اليازجي حول الفية ابن مالك ، دون ان تبلغ المرام لفظيا ، بل كثيرا ما عقد المعنى ، وارهق اللفظ او زاد المعنى حشا دونما طائل لقوله في الضمير مثلا :

ومن ضمير الرفع مالا يذكر فكان في رافعه يستتر

وقال ابن مالك :

ومن ضمير الرفع ما يستتر كافعل او افق نغبتبط اذ تشكر

فقد جمع ابن مالك معنى بيت اليازجي في شطر ، وشل في شطر مع السلامة من الحشو والزيادة ، فان زيادة " فكان " عند اليازجي مضرّة كزيادة " لا يذكر " فان الضمير المستتر مذكور حكما .

هذا ، وقد اثار كتاب " نار القرى في شرح جوف الفرا " موجة من النقد صارمة حمل لواءها الشيخ يوسف الاسير وذلك في كتابه " ارشاد الورى في تخطئة جوف الفرا " (١)

(١) كتاب " ارشاد الورى في تخطئة جوف الفرا " مطبعة الجوانب الاستانة سنة ١٢٩٠ هـ . وقد قدم له احمد فارس الشدياق ويقع الكتاب في (٨٠) صفحة .

ولعل السبب الاول في هذا النقد ، هو ان الارجوزة لم تستطع - كما رأينا - تحقيق ماكان يرنو اليه الشيخ ناصيف اليازجي من مجد نحوي يضارع به مجد ابن مالك ، او محاكاته في الفيتة الخالدة .

وسنقوم بدراسة الكتاب مع نقده ، كي تتبين الصورة بكل ملامحها .
يقول الشيخ يوسف الاسير في مقدمة كتابه المذكور :

" اما بعد ، فاني قد املت على كتاب ناصيف اليازجي المسمى (بنار القرى في جوف الفرا) فاردت بيان مبانيه وايضاح معانيه . . . فشرحتها شرحا يميز بين الحق والباطل . حيث قرنت كلامه بكلام الائمة ليظهر الحالي من العاطل . وما قصدت بذلك الا الثواب بارشاد مطالعيه الى سبيل الصواب " (١) .

ثم يبدأ الشيخ الاسير بنقد مقدمة الكتاب ، متتبعا اثر اليازجي كلمة فكلمة ، وبعبارة فعبارة ، حتى اوفى على نهاية الارجوزة كلها ، محتكما في ذلك النقد الى كتب الثقات من اهل اللغة الاقدمين ، جاعلا من النقد الجزئي عماده الاول .

هذا ، وكثيرا ماكان الشيخ الاسير يرجز الابيات ، معارضة لنظم اليازجي او تحديا له . مما جعل ارجوزة اليازجي ارجوزتين ، يتخللها شرح الاسير وتعليقه ونقده . وهو نهج جدير بالاهتمام ، لان الاسير في عمله هذا يذهب مذهب المناظرة والمناظرين الاوائل حيث يفرع اسباب القول ويتناول احكاما نحوية دقيقة ويتعرض لمسائل في غاية الصعوبة . تماما كتلك المناظرات التي كانت تسود اجواء الكوفة والبصرة . ولئن دلت هذه الابحاث على شي . فانما تدل على مدى التعمق اللغوي والتخصص النحوي الذي كان عند علمائنا في القرن الماضي .

فیر ان الشيخ الاسير ، قسا في بعض احكامه ، وذهب مذاهب حقد وكراهية في بعضها الاخر . فهو كثيرا مايقف على بعض العبارات التي لا تحتاج الى تأويل او اجتهاد ، معملا بها وكده كي ينفذ الى وعن يعتربها او قصور اصابها .

(١) من مقدمة الكتاب ، ص ١ .

ولتبيان ذلك كله ، سنختار من هذه النقود نموذجين اثنين ، نظرا لشابه
المنهج العام في الكتاب .

يقتقد الشيخ الاسير ماجا* عند اليازجي في فصل (احكام الاعراب والمعربات)
قوله :

بجمع ذى ذكور سلما	" بالحركات مفردا لعرب وما
عن مضمرباد اليه يسند	ومعرب الفعل الذى يجسد
وذاك في الاعراب فرع يخلف *	وما سواها اعربته الاحرف

حيث يرجز الاسير ، مناقسا صنيع اليازجي قبل انتقاده له :

اعرب كذا المضارع المجردا	وبالعلامات الاصول المفردا
والتاء جمعيته بذى اكتف	وجمع تكثير وما بالالف
وقيل كل بالاصول معرب	وما سواها بالفروع يعرب

ويشرح الشيخ الاسير ماجا* في رجزه ورجز اليازجي ، فيقول مبتدئا بشرح
اياته : "علامات الاعراب الاصول اربع ، الحركات الثلاث وحذفها وهو السكون ،
والعلامات الفروع ستة الحروف الاربعة وحذف حروف العلة وحذف النون ،
وبالاصول الاربعة تعرب اربعة انواع من الكلمة الاسم المفرد وهو عنا مالمس مثنى
ولا جمعا ولا ملحقا بهما ولا من الاسماء الخمسة كزيد وهند والفعل المضارع
المجرد من الضمير البارز المرفوع ومن نون النسوة ونون التوكيد المباشرة كيضرب ..
وجمع التكسير .. والجمع الذى جمعته بالالف والتاء .. وما سوى هذه الاربعة
يعرب بالفروع وهو المثنى والملحق به ... والجمع الذى على حد المثنى وهو جمع
المذكر السالم وما الحق به ... والاسماء الخمسة .. والافعال الخمسة ...
والفعل المضارع المعتل المجرد حال انجزامه .. والسكون المقدرة ايضا وهو مذهب
سيبويه والمرضى عند المحققين .."

(١) ارشاد الورى في تخطيط جوف الفرا ، الاسير ، ص ٢٢ - ٢٣ .

ويأتي الشيخ الاسير على شرح ابيات اليازجي مع نقد لها فيقول :

"وقوله: بالحركات مفردا اعرب" معناه اعرب بالحركات مفردا من المفردات

فقط لان تقديم المعمول يفيد الحصر .. والنكرة لاتعم في سياق الاثبات الا

ماندر .

"وقوله ما يجمع الخ .. معناه واعرب بالحركات فقط شيئا يجمع متجاوزا

صاحب ذكرور سلم ، ثم ان فرضت الشيء الذي هو معنى ما مفردا او جمعا ففسد

المعنى لان التقدير على الاول واعرب المفرد الذي يجمع بالحركات وهو فاسد .

وعلى الثاني واعرب الجمع الذي يجمع بالحركات وهو فاسد ايضا ، على ان الحصر

قبله يوهم انه مستأنف مع ما فيه من الثقل للانتقال من كسرة ذال ذى لضمه ذال

ذكرور والياء حاجز غير حصين مع ما فيه من الركة التي هي اشبه بعلم الركة ، لانه لم

يقل احد وما يجمع دون ذى ذكرور سلما لكنه يرتكب الاغراب فيرتبك في الاعراب ، وقد

فاته الاعراب بالسكون وبالحدف هنا وبيان مذهب سيوييه المعتمد مع اسناد الاعراب

للحروف وغير ذلك من المفاسد التي يفرقها النحوى (١) ٠٠٠ .

كما صوب الاسير قول اليازجي :

او جر والمنصوب للاصل تبع

وكل منقوص تقاض ان رفع

وربما المرفوع كالناضي جرى

والجر كالنصب لدى قوم يرى

بقصره قلم ينون مطلقا

والجمع منه نقصه قد نطقا

بقوله :

وكجوار كل منقوص جرى

ولا تنون منه ما قد قصرا

اسكنه قوم لدى الرفع اعلمنا

وجرّ ذاقوم بفتح كـ

ويشرح الاسير ما ذهب اليه فيقول :

"وذلك ان المقصور الممنوع من الصرف لا ينون سوا" كان مفردا كمصطفى
علما لامرأة او جمعا كعذارى بالالف علما او غير علم ، وان كل منقوص ممنوع من
الصرف (جوار يجرى كجوار سوا" كان مفردا كقاهر علم امرأة او جمعا على غير صيغة
منتهى الجموع كاطب علم امرأة او على صيغة منتهى الجموع علما او غير علم كسوار
ودعاودواع " .

ويروى الاسير " ان بعض النحاة نصبه وجره بالفتحة ، وبعضهم اسكن ياءه
حالة الرفع ، وكل ذلك يفهم من بيتي مع السهولة والانسجام بخلاف ابيات ناصيف " (١)

- نعود ، بعد هذه الجولة الى كتب ناصيف اليازجي المدرسية ، لنحصر
ما بقي منها :

٤- " الجوهر الفرد " متن موجز وضعه الشيخ ناصيف للطلبة الاصفري
خمس عشرة صفحة صغيرة الحجم . وهو عامة نبذة لطيفة جمع فيها المؤلف قواعده
الصرف والنحو على اسلوب شديد الاختصار " مجرد في ما هو من اصول العلمين
المشار اليهما تسهيلا للحفظ والاستظهار . طبع بالمطبعة الوطنية سنة ١٨٦٥ .
ولما كان الكتاب غامض المعنى ، قليل البسط في المباني ، فقد قام ولده ابراهيم
اليازجي بعمل شرح " يسهل للطلبة العين صعبه ، ويوطي " للمالكين شعابه " .
فعلق عليه ما عن لخاطره لزومه من التمهيدات الكافلة بحل اشداله ، والتفصيلات المحللة
لعقود اجماله . وقد وصفها على اسلوب سهيل قريب التناول . مازجا الشرح بالمتن .
كما ضمن الكتاب فصل " اعراب شواهد النحو " تتيما للفائدة المرجوة من الكتاب
على حد قوله ، وقد عرفت هذه الطبعة بعنوان " مطالع السعد في شرح الجوهر
الفرد " طبع في بيروت سنة ١٨٨٨ طبعة اولى ثم في مطبعة صيدا ، طبعة رابعة
سنة ١٩٠٨ .

(١) ارشاد الوري ، يوسف الاسير ، ص ٥٣ .

٥ - "طوق الحمامة" وهو مختصر نثرى في مبادئ النحو يقع في عشرين

صفحة صغيرة . طبع في المطبعة المخلصة سنة ١٨٦٥ ايضا .

٦ - "الجمانة في شرح الخزانة" : ارجوزة مطولة في علم الصرف ، علق

عليها المؤلف نفسه ، شرحا ، سماه "الجمانة" جمع فيها مبادئ من الصرف معتمدا
في شروحه على كتب الائمة ، مقتصرا على ما يحتمل وقوعه في الاستعمال دون الثوارد
والمفروضات . طبعت في المطبعة المخلصة اولا ثم في المطبعة الاميركية
سنة ١٨٧٢ في ١٤٠ صفحة . وقد اختصرها ابنه ابراهيم حيث حذف ما وجد
في الكتاب من الزوائد التي "لا يفيضي حذفها الى تقصير او اخلال" واطرح ما ورد
في بعض المواضع من ذكر شواذ اللغات ومرجوح الاقوال ، ونوادير الصيغ التي ترجع
الى صنعة الصرفي دون حاجة الاستعمال . كما زاد في مواضع اخرى فوائد من
استدراك "يتوسع به مضمون الكتاب او ايضاح تزداد به بصيرة الطلاب" . وقد طبعت
هذه النسخة المنقحة في بيروت (المطبعة الادبية) سنة ١٨٨٩ .

٧ - "اللباب في اصول الاعراب" : ارجوزة في علم النحو ، لخص فيها مبادئ

النحو القريبة على الطلاب الاصغر ، وعلق عليها شرحا . تقع في (٢٨) ثمان وعشرين
صفحة فقط . طبعت في بيروت سنة ١٨٨٩ .

هذا وقد صدر كثير من كتب الصرف والنحو في العقود الثلاثة من القرن

الماضي ، لادباء واساتذة ، وضموها لطلابهم ابتغاء تطويق مباحث هذا العلم
وجعله قريبا لمتناول الناشئة فيقبلون عليه .

ولم نجد في اى منها من يعتمد عن غاية ناصيف اليازجي ومنهجه في التلخيص

والشرح والتعليق .

لذا ، فقد اكتفينا بما جاء من صورة عامة لانماط التأليف المدرسي على يد

الشيخ ناصيف اليازجي وابنه ابراهيم ، املا في ان نكون قد اعطينا هذه الكتيبات
البسيطة حقها .

الفصل الثامن

النقد اللغوي في القرن التاسع عشر

في لبنان

كثيرا ، ما كانت تقترن مباحث النقد اللغوي بتلك المناقشات التي قد يشيرها كتاب نحوي ، او مقال لغوي ، وللغوي معروف ، او اديب مشهور . كما هو الحال في المعركة التي اثارها بطرس كرامة اللبناني ، مع صالح التميمي (شاعر عراقي) ، في اوائل العقد الخامس من القرن الماضي ، تلك المعركة التي دفعت باحد اديبنا لبنان - يومها - وهو رشيد الدحداح ، الى تأليف كتاب " قطرة طوامير " (١) دفاعا عن الشاعر بطرس كرامة . (٢)

وكما هو الحال في المناظرات اللغوية التي دارت رحاها بين احمد فارس الشدياق ، و ابراهيم اليازجي ، وبين كل من وقف مدافعا عن هذا او ذاك . وما اعقب ذلك من مباحثات اشطرت حياة النقد الى هطرين ، تمثلها باصحاب التيار المحافظ واصحاب التيار الذوقي الجديد .

ولو عدنا الى المباحث اللغوية الاولى ، التي اعقب ردود بطرس كرامة والتميمي ، وما كان من دفاع للدحداح لرأينا ان هذه المناقشة اللغوية قد سعت في اضيق مجالات النقد ، حتى كادت ان تنحصر في صلة الفصاحة بالدين ، والتعصب الديني وآثره في النقد ، وفي تتبع اخطاء لفظية جزئية كثيرا ما ترتبط باخطاء معنوية .

(١) طبع في باريس سنة ١٨٨٠

(٢) ذكر رشيد الدحداح في قطرة طوامير اقوالا للمعلم بطرس كرامة توضح الدوافع والظروف التي ادت الى اثاره هذه المعركة النقدية . فما قاله بطرس كرامه " النبي لما اتيت القسطنطينية . . . وتكلمت بين اربابها كما هو دأبي في مصر وحلب والشام . . . فكنت . . . اعرض بين يديهم منظوماتي وان لم تكن رائعة ، فاسمعي بعض شعرائهم ، الافاضل الكرام ، منظومات تركية اخذت من الحسن اعلى مقام . وقد كررت في بعض قوافيها (لفظة الخال) وامرني ان انظم قصيدة ، وانسج ابياتها على ذلك المنوال ، فنظمت قصيدة لم يكن فيها غير لفظة الخال

ومن الغريب ان تثار قضية الفصاحة وصلتها بالدين ، وان تتجه مباحث
النقد اللغوى الى الاحتكام بمعايير الجنس والدين ، او ربط البحث اللغوى بمباحث
الديانة والشرعية .

ومهما يكن من شيء ، فان قضية الفصاحة ليست مما يلحق بالدين ، وان
ادخالها فيه تنكب عن الصواب في التفكير وان القضية برمتها لا ينبغي لها ان تدخل
في نطاق النقد النزيه .

قافية ، فجاءت على نوع اللزوم محاسنها وافية (١) ٠٠٠ فلما كمل لظاهرها ٠٠٠
زفقتها لـ ٠٠٠ داود باشا والي بغداد سابقا ، فتلقاها ٠٠ بعين الرضا ٠٠٠ وارسلها
الى بغداد ٠٠٠ ليطلع عليها من هناك من الشعراء ٠٠ فيشهدوا فضلها وينظموا
مثلها ، فتلقاها بعضهم بما تلقاني به زماني وانكسر حسنها ، لان ناظمها نصراني ، ٠٠٠
وقال نظما :

عهدناك تعفو عن سي تعذرا ألا فلغفنا من رد شعر تلصرا
وهل من مسيحي فصيح لعهده اذا اينع الشعر الفصيح واتعرا .
فلما وقفت على هذا الجواب المفاهيم طريقة الاداب ، ولم يكن فيه ما يعترض على
الفصيح ، الا انني على مذهب المسيح ، فآخذني العجب من صاحب هذا الادب * (٢) (٢)

(١) خاليه بطرس كرامة تنتظم في ثلاثة وعشرين بيتا ، مطلعها :

امن خد هذا الوردي افتتك الخال فسج من الاجفان مدمعك الخال

ديوان سجع الحماسة ، لبطرس كرامة ، ص ٣٢٢ - ٣٢٤ .

(٢) ديوان سجع الحماسة ، المطبعة الادبية في بيروت - سنة ١٨٩٨

صفحة ٣٢١ - ٣٢٢ .

(٢) وانظر كتابه " نظرية الخيال " ، المطبعة الادبية في بيروت - سنة ١٨٨٨ .

والذى يعنينا من ذلك كله ، ماكان من اهتمام رجال هذه المعركة في تتبع الهفوات والاختلاف اللفظية ، وما كانت تؤديه من اخطاء في المعنى . ابتغا^١ رسم صورة للنقد في ذلك الزمان ، بما فيه من جزئية وضيق افق .

قال بطرس كرامة مشيرا الى رائدة صالح التميمي " الا فاعفنا من رد شعر تنصر " لقد ضربت صفحا عما في نظمه من الهفوات المتعلقة بالالفاظ والمعاني ، ولكن لا بد من ذكر بعضها على وجه الاختصار حتى لا يقال دعوى من غير دليل برهاني فمنها ما هو مطلع قصيدته قوله : (الا فاعفنا من رد شعر تنصرا) بوصل الهزمة ، وحقها القطع ، لان عفا لازم ولا يتعدى الا بالحرف او الهمزة وهو عداه بالهمزة فيجرب قطعها .

.. وقوله : (عداه شبيب) بالباء الموحدة ، وصوابه بالتاء المثلثة ، اللهم الا ان يكون الكاتب صحف حين كتب .

وعلى هذا النحو من النقد ، يمضي بطرس كرامة ، " فيقف عند مواطن ستة اخرى في قصيدة التميمي يناقش الفاظها وبعض معانيها بهذه الطريقة التي ناقش فيها هذه الالفاظ وبعض المعاني السابقة وبالمستوى نفسه " (١) .

اما رشيد الدحداح فيتناول ابيات تلك القصيدة بيتا بيتا يستخرج منها عيوبها في رأيه ويضع عنوانا على ذلك كله كلمة (تنديد) على القصيدة ، وبيان افلاطها بيتا فبيتا . وفي هذا العنوان دليل على الطريقة المتشددة التي اتخذها رشيد الدحداح مع التميمي .

ولعل اختيار بعض النماذج من تنديد رشيد الدحداح ان يوضح طريقته :
قال : " قوله : (الا فاعفنا) فيه وصل الهزمة ، والقطع بالامر المطاع وكلاهما من سقط المتاع . وقوله : (من رد شعر تنصرا) : فاسد المعنى / ^{عند} لاسم مخطي " من ثلاثة اوجه :

(١) النقد الادبي الحديث في لبنان ، الحركة النقدية حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ج ١ د . هاشم يافى ، ص ٣٣ - ٣٤ (اعتمدنا على هذا الكتاب في تنسيق هذا الفصل) .

أخذها ، ان تنصر معناها انتقل من دينه الى النصرانية ، وقال الفيروز آبادي
تنصر دخل في دين النصارى . فالشعر لا يدخل في دين احد ، ان ليس هو بمعاقل .
ثانيا : ان الاستمغا* من رد الشعر المتنصر الى ما كان عليه من الفطرة وهو
الاسلام لا يجوز لمسلم بل الاخرى ان يرد من الضلالة الى الهدى .

ثالثا : خطأ التعبير ، لان الاستمغا* من الرد طلب للبقا* على القبول ، وهذا
خلاف ما اراده الناظم ، وكان السواب ان يقول : اغفنا من قبول شعر تنصر لان رد شعر
تنصر فتدبير .

وقوله : عداه شبيث والاخص وفاته الخ قد تكلم فيه كذلك صاحب الخالية
(اي بطرس كرامة) وقوض اليها سؤال الناظم عن متعلق الضمير من عداه وفاته ، لانا ان
عودناه الى الشعر المتنصر كما يقتضيه الظاهر كان المعنى فاسدا ، وان عودناه الى
المسيحي الفصيح كان المعنى اكثر فسادا ، لان الفصيح لا يقال عنه ما قال من عداه
وفاته ، ولم يذكر الناظم احدا يتعلق به ، وهو مع ذلك قد اراد ناظم الخالية ولكنه
لم يذكره ، فتعويده الضمير الى غير مسمى يجعل الكلام كلاما . . .

ويمكننا ، من خلال تلك النماذج القليلة ، ان نستدل على طريقة النقد
عند هذين الكاتبين ، تلك الطريقة التي لم تعرف لنفسها دربا جليا ، ولم تقدر على
التزام منهج منفرد ، فهي اشبه بآراء لغوية مترتبة ، تجمع بين النحو والصرف والتأويل
اللغوي والبلاغة ، في نص نقدي واحد تكاد ان تضيق معه الفوارق الدقيقة بين هذه
العلوم . وكان الكل يندرج في طريقة نقدية واحدة تقتصر حدودها على تعقب اخطاء
الخصم الجزئية . واعتماد النص القديم مرجعا يحتكم اليه .

ومن الغريب ان يكون هذا الاحتكام الى القديم من صديق الشيخ رشيد الدحداح
بالذات . فهو ممن اقاموا في باريس حيث عمل على نشر صحيفته البرجيس ، ومن اتاح لهم
ان يعيشوا في بيئة من بيئات الحضارة الاوروبية ، كما اتاح ذلك للشدياق مثلا .
الا ان ذلك كله ، كما يبدو - لم يكن كافيا لان يصرف الدحداح عن الانغماس
في تيار القديم ، والرجوع الى مراحل القديمة كما رأينا وتخطي عوامل ثلث قرن او يزيد
من القرن التاسع عشر اتسمت بالجدة والتطور اللافتين .

في حين كان زميله احمد فارس الشدياق في مدرسة عين ورقه ومن اظلموا على بعثات الحضارة الاوروبية ، يقوم بمحاولات جريئة من محاولات التجديد في القرن الماضي ، خطت بالنقد والعلوم اللغوية خطوات جديدة ، جدية بالانتباه والدراسة المستقصية .

وكذلك نرى المعلم بطرس البستاني وهو زميل آخر كان والشيخ الدحداح في عين ورقه ، ينجح بوضوح نحو الجديد الذي استطاع ان يلمسه في عصره ، انه لم يتج له ما اتيج لزميليه من عيش في رحاب الحضارة الاوروبية وما يبعثها الاصلية .

ومن هنا تزيد فكرة التطور الاجتماعي اهمية في تفسير هذه الظاهرة .

” فليس الاتصال بالحضارة الاوروبية وحده يكاف لتطويع اي بلد من بلدان الشرق ، وان كنا لا نخط هذا العامل حقه ، وانما يجب ان يصحب ذلك او يسبقه استعداد كاف في المجتمع الشرقي نابع من تطوره الطبيعي الذي كان من الممكن ان يؤثر ثماره حتى لو لم يتم الاتصال باوروبا وحضارتها ، لان التمهيد الطبيعي الشرقي هو العماد الاصيل في التفاعل بما يمكن ان يتفاعل به من الحضارة الاوروبية .

” وبعد هذه الوقفة القصيرة ، في اعقاب الحديث عن القديم في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، نتلفت فنرى ان عوامل الحياة العامة التي فسحت لذلك القديم صدرها طوال نصف قرن لم تبخل على بعض عوامل التطور التي تهدف الى التجديد ففسحت لها في مجال ” (١)

ولهذا ، لانكاد نطلى على مشارف النصف الثاني من القرن التاسع عشر ونخلف وراءنا ذلك القديم الذي تمثل في عمل بطرس كرامة والدحداح ، حتى نرى اتجاها عاما يلفت الانظار في الانتاج الادبي والنقد في الحياة اللبنانية . مما سيكون له الكبر الاثر في توجيه الحركة النقدية ، ومعرفة تفسير الاتجاه اللغوي في القرن الماضي .

ويتسم هذا الاتجاه العام بالمحاولات الجادة للوصول الى تعبير ادبي سليم مصفى عن هذه النفس الجديدة التي بدأت تحس في غموض بذاتها وبوطنيتها او قوميتها . وسط عوامل كثيرة لم تمكنها من بلورة تلك الوطنية او القومية ، وان لم تقو على طمسها او منعه من النماء .

(١) النقد الادبي الحديث في لبنان ، الجزء الاول الدكتور هاشم ياغي ص ٣٩ وما بعدها

وكانت تلك المحاولات الجادة متفاوتة القوة والنشاط ، حتى انها انقسمت الى تيارين مختلفين في نطاق ذلك الاتجاه العام الذي انضوت تلك المحاولات جميعا تحت لوائه .

- كوتيار يكتفي بالرجوع الى ينابيع التعبير الملم في عصوره الحية الاولى -
الصائفة ، وهو ما يمكن ان نطلق عليه التيار المحافظ .

- تيار لا يكتفي بذلك بل يتجاوزه الى مرتبة التعبير الاصيل الحر عن هذه النفس الجديدة والتي اخذت تتلمس الجديد دون الوقوف عند ظرائق الابدان الاولين في تعبيرهم وان صفت ، ودون الاكتراث ^{بالنفس} بالتلف في التعبير وان جاء به الابدان ، فهو تيار يحاول ان يلبس ثوبه الذي خاطه لنفسه في دنيا التعبير ، وترك ثوب الابدان وان كان مزركشا ، وبذلك يمكن ان نشير الى ما يميز هذا التيار من بذور جديد .

والتنبيه لعوامل التطور في الحياة العامة امر هام جدا في كبح جماح كثير من الاحكام الجارفة على مظاهر الانتاج الادبي واللغوي والنقدي ، وفي الحيلة اللازمة التي تستهدي باضواء عوامل التطور تلك في رؤية التيارات المختلفة وان تجاوزت .

ولعل ذلك ان يكون معاوننا في تفسير اتجاه انتاج ادبي كانتاج الشيخ ناصيف اليازجي مثلا نحو التعبير في اصالة وصفاء عربيين لاثوبهما ركافة عن هذا الذي بدأ يدب في الحياة من روح وطنية او قومية عربية غامضة . وما لذلك من اثار في توجيه الحركة النقدية ، ولعله كذلك ان يكون معاوننا في تفسير اتجاه لغوي كذاك الذي اتجه اليه المعلم بطرس البستاني واحمد فارس الشدياق وسعيد الشرتوني من حركة معجمية قاموسية لاستخلاص ما يمكنهم من مواجهة ما يلقونه في الحياة من حولهم واثار ذلك في الحركة النقدية ، مخلفين وراءهم تلك الحركة المعجمية القاموسية التي كان قد بدأها جرمانوس فرحات في القرن الثامن عشر من اجل اهداف تعبيرية دينية ، واعادها ثانية رشيد الدحداح في طبعه كتاب (باب الاعراب) (١) مصححا مدققا بزيادات جديدة في كتابه (احكام باب الاعراب) ، دون ان يتجاوز غايات جرمانوس فرحات تلك ، ومهددين كذلك لما جاء بعدهم من حركة ادبية ولغوية ، الجديد فيها اقوى مما كان زمنهم ،

(١) انظر فصل النقد المعجمي ، رشيد الدحداح ، ص

والتي ستجد ان ابراهيم اليازجي ، في معظم اتجاهه ، لم يكن كآبيه ، الى جانب الجديد من حوله فيها ، ولم يدرك ان الذي اخذه عن ابيه من اتجاه كان يجب ان ينمو نما جيل الابن خلفا وراة جيل الاب ، فكان الى جانب القديم على ماكان يتمتع به من احساس لغوى دقيق ، ومقدرة لغوية هائلة ، وترك لواة الجديد في اللغة الى غيره ممن كانوا ادق احساسا بالجديد من حوله كالدكتور يعقوب صروف وتلميذه جبر صومط وغيرهما .

ونعود بعد هذا الى التيار النقدي الذي اتجه الى القديم اتجاهها محافظا فنجد كتابا كخليل اليازجي (١٨٥٦ - ١٨٨٩) يدعو الى الاستفاة من منابع التراث ورجاله ، لصقل موهبة الانشاء . جاعلا من مطالعة كتب المنشئين كالجاحظ وابن المقفع والبديع والخوارزمي وغيرهم ، منطلق الكاتب في التعبير السليم والكتابة الصحيحة ، لانه يرى ان الذات مهما ارتفعت منزلته من البلاغة واتسع صدره في مجال الكلام ليعجز عن اختلاق التراكيب الجديدة ، واستنباط الاساليب المبتكرة آتيا بغير ما اتى به الاولون من ارباب الاقلام الذين تناهبوا البلاغة وضروبها ، والبراعة وطرقها ، فلم يغادروا ثم من متردم * (١) .

ولم يبتعد عن هذا الاتجاه كثيرا الشيخ ابراهيم الاحدب في (كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان) (٢) ، او في تحريره (الوشي المرقوم في حـــــــــل المنظوم) (٣) لابن الاثير ، او في (فرائد اللال في مجمع الامثال) (٤) . بل ظل صنيعه مندرجا في نفس الاتجاه .

ومهما يكن من امر دلالة هذه الاقوال فلا بد لنا من ان نراعي امورا ثلاثة :

الاول : ان هؤلاء الذين صرحوا بتلك الاقوال لم يكونوا وحدهم ممن ساروا في هذا التيار المحافظ ، فالذي يتصفح مآكبه جماعة من اصحاب هذا التيار المحافظ كالمعلم اسكندر آغا ابداريوس في " نهاية الادب في اخبار العرب " ١٨٥١ هـ ، و " روضة الادب " ١٨٥٨ هـ ، و " ضية النفس في اشعار عنتر عيس " ١٨٨١ هـ ، وشاكر البتلوني

(١) يوسف صفي ، نفثات الكتاب في عهد النهضة الاخيرة (سنة ١٨٠٠ - ١٩٤٨) القسم

النثري ط ٢ - المطبعة المخلصة قرب صيدا سنة ١٩٤٨ ص ١٦ - ٢١ .

(٢) طبع في المطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين سنة ١٨٩٠ .

(٣) مطبعة ثمرات الفنون - بيروت ١٢٩٨ هـ ١٨٨٠ م .

(٤) فرائد اللال في مجمع الامثال في جزئين كبيرين - المطبعة الكاثوليكية بيروت سنة

في مقدمة كتابه " دليل الهائم في صناعة الناثر والناظم " سنة ١٨٨٥
وشاكر شقير في " مصباح الافكار في نظم الاشعار ، ١٨٨٨ " ، والاب لويس
شيخوني " علم الادب " سنة ١٨٦٧ وغيرهم ، يجد أن ماتناولوه من قضايا
نقدية يغلب عليها طابع القديم ، حتى أن مابدر منهم من قليل في ميدان
الجديد اتسم كذلك بطريقة قديمة في تناول

الثاني : ان تصريح هؤلاء لا يعني الفهم التام لهذه الصلة التي معنا اليها بين
اتجاههم وبين مواجهة الحاجات الجديدة في الحياة من حولهم .

الثالث : ان التصريح او السكوت لدى هذه الجماعة لا يقطع في امر انتماء كل منها الى
متجههم انتماء كاملا فبين هؤلاء من اتجه للتقديم العربي الاصيل وهو يراعي
امر مواجهة الجديد من حوله مراعاة مهما نقل في نقصها وعدم توضيحها
اياها لنا بالتصريح فانها دلالة سلوكية تستحق التقدير .

وبين هؤلاء كذلك من اتجهوا للتقديم وبخاصة لغير الاصيل منه دون مايدلنا
على انهم ادركوا ذلك الاتجاه الذي تشير اليه كما فعل بولس عواد في كتابه (العقد
البديع في فن البديع) (١) ، فقد اتجه لاهيا البديعيات التي كانت في بدعية
ابن حجة الحموي اتجاها مسرفا .

وستتناول في عرض عام ، ما دار من مناظرات لغوية بين انصار القديم ، حول
كلمة " فطحل " تلك المناظرات التي غلب عليها طابع القديم ، والتي جرفت جملة من
اشتركوا في التيار المحافظ وبعضا من اشترك في التيار ذي البذور الجديدة .

وقد اشترك في هذه المناظرة كل من احمد فارس الشدياق و ابراهيم اليازجي
والمعلم بطرس البستاني والشيخ يوسف الاسير والشيخ سعيد الشرتوني ، والشيخ ابراهيم
الاحدب ، حيث الكل انجذب الى زوينة نقدية كثيرا ما انغلقت اسبابها على تناول
جزئيات لغوية ضئيلة ، وجزئيات نحوية بحثة .

(١) المطبعة العمومية الذاثوليكية بيروت سنة ١٨٨١ :

وستترك النقد النحوي لفصل آخر ، في حين يكون مدار البحث للثانسي

على المناظرة اللغوية فقط ،

هــ

ويعود سبب بحث المناظرة اللغوية الاولى بعثا عنيفا ، الى ان الشيخ
ناصر اليازجي ، قبل وفاته كان قد مدح الشدياق في قصيدة "قرأ" ولما نشر
ديوانه ، عنوانها هكذا : "وقال يمدح احد الادباء" ، فعلق الشدياق بعد وفاة اليازجي
على ذلك "في ختام رثائه لناصر اليازجي سنة ١٨٧١ بقوله : "ولا ادرى مامعه من
التصريح باسعي على صفا الحب بيننا " (١) .

(اليازجي)

ثم يتابع الشدياق فيقول :

"ثم بعد ان استقري المقام بالاستانة العلية ارسل الي كتابا ذكر فيه
انه بلغه ان احد سكان الاستانة يريد ان يطبع مقاماته ٠٠٠ فان في نيته زيادة شي
عليها وتغيير شي منها ٠٠

المفطر

"وكان اول ماخطر ببالي من التغيير الذي نواه لفظة ^{المفطر} الفطر المحذورة في
المقامة الانطاكية صفحة ٢٥٧ بقوله : "ويصبح فاضبا ولا يزال عاتبا يذكرني زمن
الفطر ^{المفطر} وينجز الوعد بالمطل " .

ثم قال في تفسيرها (اي اليازجي) : " هو زمن قبل ان يخلق الناس ويمكن
ان يكون المراد به زمن الطوفان لان ^{المفطر} الفطر هو المظر الشديد ، والمراد منه انه
لا يزال يذكرها بامور قديمة وهو مثل لما تقدم عهده " (٢)
وينتقد الشدياق على لفظة "الفطر ^{المفطر}" هذه فيقول :

"وعوهم فان حق اللفظة تقديم "الطا" على "الحا" قال في القاموس : الفطر
كهزير . دهر لم يخلق فيه الناس بعد . او زمن نوح عليه السلام ، او زمن كانت الحجارة
فيه رطابا ٠٠ وقال في الصحاح : الفطر على وزن الهزير : زمن لم يخلق الناس فيه بعد ٠

(١) مقالة للشدياق في الجوائب ، مذيلة بقصيدة رثى بها اليازجي ، تاريخ ١٠ ايار
سنة ١٨٧١ ، عدد ٥١٩ .

(٢) انظر مجمع البحرين ١٨٥٥ لليازجي ، المقامة الانطاكية ، ص ١٥٩ ، طبع مكتبة
الطلاب وشركة الكتاب اللبناني - اللعازرية - بيروت . وهي مجموعة تتألف
من ستين مقامة . نسجها المؤلف على منوال مقامات الحريري دون ان يأتسي
بجدديد فقد كانت موهبته تنحصر في امتصاص مواهب الحريري ، دون ادنى محاولة
في الوصول الى تطوير جاد لفن المقامة يمكن ان يميزه ككاتب جيل القرن حتى يندر
ان يلصق له القارى شخصية مميزة .

ثم يقول :

"وفطحل بفتح الفاء اسم رجل . مستشهدا بما جاء في بعض نسخ الصحاح ،

انك لو عقرت عمر الحسل

او عمر نوح زمن الفطحل

ويرى ، من ثم ، ان اهل بيروت يقولون للرجل المحدث : فطحل على وزن جعفر وهي ايضا - عنده محرفة . ويخلص بعد هذا الى القول : " ان قول الشيخ ناصيف في المتن ، الشرح فطحل بتقديم الحاء على الطاء هو من غلط الوهم الذي يفتقر للشاعر . هذا ، وقد اورد بعض اخطا اخرى للشيخ ناصيف ، كالمرباط ، والمرايض ، كان الشيخ قد جعل المرباض للخيول والمرباط للفنم ، مع ان رأى الشدياق هو العكس تماما وغير ذلك من تتبع الاغلاط المفردة .

ولما وقف الشيخ ابراهيم اليازجي على مقال الشدياق المذكور ، نشرردا مطولا على صفحات " الجنان " محاولا ان يستخلص منه بعض ما يدخل في نقد ورد نقد فطحل وفطحل .

يقول ابراهيم اليازجي :

" اما وجه الانتقاد على اللفظة المذكورة فهو ان الحاء فيها مقدمة على الطاء في الواقع ، والحق العكس ، وان يقال الفطحل بتقديم الطاء . وقد اورد (اى الشدياق) على ذلك شواهد وادلة من كتب اللغة . . . ومن جملة ما اورد من ذلك قال " وفطحل بفتح الفاء اسم رجل " .

" أقول (اى ابراهيم اليازجي) : وقرائن كلامه تقتضي بقا " ماسوى الفاء " على حاله فيكون مفتوح الطاء ايضا على سكون الحاء . ولا وجود لهذه اللفظة على هذا الوجه اصلا . " قال في القاموس : الفطحل كهزبر ، دهر لم يخلق فيه الناس بعد ، او

(١) انظر : الجنان ١٥ حزيران سنة ١٨٧١ ، الجزء الثاني عشر . بقلم اليازجي . وانظر الشدياق واليا زجي للاب شيلي ص ٦٨ وما بعدها .

الموسر

"ففي قول صاحبه (اى الشدياق) وهم ظاهرا ، او حمل الكلمة على وزن جعفر وفيه ^{سكوت} . وثان الاول ان يبيده بفتح الحاء ايضا ، او يقتصر على ان يقول بالفتح كما جرى اصطلاح اللغويين ، ويترك ذكر الفاء التي انما هي زيادة في اللفظ تؤدي الى نقص في المعنى ، ويذكر الوجه الثاني ايضا وهو الضم .

ويتابع اليازجي رده متقبلا مثل هذه الزيادة في كتاب الشدياق " سر الليال " في صفحة ٣ ، في كلامه عن لغات الاعاجم ، ان قال (اى الشدياق) " فما مثلهن الا مثل الثوب المرقع والوجه القبيح المبرقع " فانه قصد المبالغة في قبحه فالتوى عليه المعنى وجا^ء عكس المقصود .

" ويضيف اليازجي فيقول : " هذا واذا سلمنا بعدم ائسلام عبارته ، او سلم بصحة المتقادنا ، وثبت على الوجهين ان الدلعة عي بوزن جعفر او قنفذ ، ورد عليه الاعتراض من وجه آخر وهو ان المقام لا يحتمل وزن جعفر ولا قنفذ ، لوقوع الكلمة في الفاصلة مقابلة بالصطلبي ، ولا يخفى ان للفاصلة حكم القافية ، على انه لو ترك ايراد هذه اللفظة اصلا لكان اسلم من الانتقاد . وما ادرى ما الذى ساقها وهي اسم رجل رجل لا مدخل لها في المقام البتة فضلا عما تقدم .

ويخلص اليازجي الى القول انه كشف في النسخة الاصلية التي بخط والده ، فلم يجد لما توقعه الشدياق من اثر ، ويرى ان ذلك انما هو " غلط في الطبع من التوع الذى وقع للمولى في ما ذكرت . ومنه ابد ال البدائع بالمدائح في صحيفة الجرائب المذكورة في العمود الثاني . . . وغير ذلك مما لا تخفى على ذى عينين " .

اما ان اهل بيروت يقولون للرجل المحنك ، فحطلى على وزن جعفر ، كما يقول الشدياق ، وهي عنده محرفة . فالصحيح ، كما يرى اليازجي " ان التحريف قد حدث من قبله (اى من الشدياق) وانما هم يقولون فلان من الفطاحل . بتقديم الطاء على الحاء بخلاف روايته (رواية الشدياق) . ويمعلق على ذلك فيقول : " فربما ورد عليه ذلك عن طريق النسيان والله اعلم " (١) .

(١) الجنان ، سنة ١٨٢١ ، الجزء الثاني عشر ، مقالة لليازجي . انظر الاب

وقد رد الشدياق على هذه الرسالة بمقال له لاذع عبر جوائبه ، تحت عنوان
 " الرد على الخواجه ابراهيم اليازجي " (١) استهلها بقوله :

" لا يخفى ان الخواجه ابراهيم اليازجي كان قد كتب في صحيفته الجنان في
 الجزء الثاني عشر مقالة " خطائي فيها فيما اورده على لفظة الفحطل و . . . ثم
 انتقل منها الى تخطئة بعض الفاظ وردت في مقدمة سر الليال واطال لسانه
 بالتهكم و . . .

" اما قوله : " اما وجه الانتقاد على اللفظة المذكورة فهو ان الحاء منها
 مقدمة على الطاء في الواقع ، والحق العكس وان يقال الفطحل " فقوله (اى اليازجي)
 في الواقع ، صوابه في المقامات (مقامات مجمع البحرين للناصيف اليازجي) . فان الواقع
 هو تقديم الطاء على الحاء . "

ويتابع الشدياق فيقول :

" وهنا . . . زعم انه يلزمي ان اقول وفطحل بفتح الفاء وسكون الطاء وفتح الحاء
 لانه يقول : ان قرائن كلامي يقتضي بقا " ماسوى الفاء على حاله . فالعجب من هذا
 التبلع فانه اذا قال احد وفطحل بفتح الفاء لم يفهم منه سوى وزان جعفر ، ان ليس
 للرباعي المفتوح الفاء سوى هذا الوزن ، فما موجب هذا الهذيان كله في هذه الكلمة ؟ "

ويتابع في الرد على ماتوهم اليازجي من غلط في كتابه " سر الليال " في
 كلامه عن لذات الاعاجم ، فما مثلن الا مثل الثوب المرقع والوجه القبيح المبرقع ، حيث
 قال اليازجي انه (اى الشدياق) قصد المبالغة في قبحه فالتوى عليه المعنى وجا
 عكس المقصود . " فيقول الشدياق رد ا على ذلك فلمصرى انه لا يرى في هذا المعنى
 التواء الا من التوت نيته وقصر فهمه واطال لسانه . فان القبيح قد يكون مبرقعا ، كما ان
 المبرقع قد يكون قبيحا فلا تضاد بين هاتين الحالتين . فمن اين جا الالتواء . وقد
 قال ابو الطيب :

قبحا لوجهك يازمان فانه وجه له من كل قبح برقع

(١) انظر الجوائب ، ٢٢ آب سنة ١٨٧١ عدد ٥٢٦ . والسدد ٥٣٨ ٣٠ آب
 تحت عنوان " الرد على الخواجه ابراهيم اليازجي " .

فما الفرق بين الكلامين ؟

ويتابع الشدياق حديثه عن الفطاحل التي نسبها اليازجي لاهل بيروت فيقول : " وقوله (اى اليازجي) : " ان اهل بيروت لا يصنعون مفرد الفطاحل وانما هي مسموعة عندهم بصيغة الجمع فقط " ، يكذبه ماحرره الفاضل سليم افندى نوفل فانه قال في كتاب ارسله الى من بطر سهرغ : واما لفظة الفطاحل فاني وجدت بها غير مرة في رسائل قس من اهل بيروت يستعملونها في محل لعلامة او فحل رجال . "

وعلى هذا النمط من المماثلة ، والجدل العقيم تستمر المناقشة بين هذين اللغويين ، حاولنا ان نكتفي منها بلفظة واحدة وهي الفطاحل ، تاركين بقية المسائل التي تعاقبت تعانق قصص كليله ودمنة ، راسمين من خلال هذه الكلمة خطا اقبيا تتجلى فيه ملامح هذه النزوية اللغوية التي لم تتمتع فني جان النقد الجزئي الضيق .

ولنتابع مزيدا من هذه النماذج ، لنرتد اخل القضايا اللغوية بعضها - بعضها - بعضا كأمشاج ، لا يطبق معها الدارس التفريق بينها ، كتد اخل النحو بالبلاغة - والصرف بالتأثيل ، والنقد الادبي بالنزعة الذاتية .

وهذا احد النصوص الدالة على ذلك : مما جاء في رد ابراهيم الهارجسي على الشدياق في مبحث المفاصلة :

" ثم ما لبث (يعني الشدياق) ان كذب قولي ان الفحطل غلط طبع واستدل على ذلك ب ورود المطل بعدها يعني وقوع كل واحدة منهما فاصلة . فما ادري كيف ورود المطل بعدها اوجب عنده تاخير الطاء ، وكأنه لا يجوز ان تكون احدى الفاصلتين المطل والاخرى الفطاحل ، مع ان الفطاحل والفحطل على روى واحد ووزن واحد ايضا ، وماذا عسى ان تقتضي الفاصلة غير ذلك . "

ويتابع اليازجي قائلا : " ولعله يحسب التزام حذف حرف قبل الروى من الامور الواجبة في السجع ولذلك لم يجز مع المطل الا الفحطل . . . والصحيح ان ذلك جناس من البديع يسمونه التزام ما لا يلزم وفي تسميته اكبر دليل . "

" وقد تصفحت في سجمه (سجع الشدياق) فلم اجده يلتزم ذلك . واذا كان في ريب من علمه ففي القرآن (الكريم) وفي مقامات الحريري وغيرها من افصح الكتب المفصلة ما يأتيه بالبرهان الفاصل ويتكفل بجلاء المسئلة باوضح بيان . "

• / •

الشيخ ابراهيم اليازجي رأس المدرسة المحافظة :

مادار بين الشدياق واليازجي ، مما قدمناه في المباحة السابقة ، لخير دليل على ماذهب اليه من ان ابراهيم اليازجي يرجع في تقييم الاعمال الادبية واللغوية وفق ما تقرره دراسات الاولين واحكامهم اللغوية . فهو مؤتم بعلماء السلف ، جاعلا من الاحتكام الى ارائهم الفيصل في كل امر . وكثيرا ما كان الرجل زميتا في مناقشاته عبر صفحات مجلته في مقالاته (لغة الجرائد) فيعمد الى تخطئة محدثيه دونما اعتبار لتطور المدلول اللفظي ، او ادنى استجابة لمتطلبات معنوية جديدة .

وقد غالى في ذلك ، حتى ذهب في امره شططا ، حين تصدى للكلام العرب الاقحاح جاهليين واسلاميين وقدما . كما تصدى لمحدثيه ، ابتغاه تقويم اهرجاج خطاهم ، كما يعتقد ، وهذا ما يفسر حملته على ناشري لسان العرب وتاج العروس وشارته الى ما وقع في ذنبك المعجبين من الخطأ الذي اعتبره فاضحا ، مرجعا اياه الى الصواب .

وقد كانت نظرتة هذه المصفيه تعنى اولا بناحية جزئية وتمعن في تزمتها ، حتى حملت بعضا من جملة هذا الاتجاه المحافظ نفسه الذي لمع اليازجي من بين افراده على ان ينقلب على اليازجي ، تمنني به " خير السلام " الذي رد على الشيخ في كتاب اسماء " دفع الاوهام " ، وبذلك انقلب بعض اصحاب هذه النظرة نفسها على بعضهم الآخر ، وكأنا انقلبت هذه الفئسة على نفسها .

ولعل تزمت الشيخ ابراهيم اليازجي يعود الى ما فشا في لغة الجرائد من لحن وهو امر اخذ يستفحل حتى وصلت بعض اساليب الانشاء الى حد الركادة المرذولة . وهذا ما خشيه الشيخ من ان تنشأ لغة خاصة ببعض الكتاب العصريين والجرائد على ما ذكره في اللغة والعصر من وجود لغة لكل عصر .

ولنستمع الى الشيخ في مقالة من مقالاته (لغة الجرائد) حيث يقول :

" والمعجب هنا انك كثيرا ما ترى اناسا من مقدي الكتاب وذوى القدم الراسخة في اللغة والانشاء يعتمدون احيانا على التقليد ، وربما قلدوا من هو دونهم من

أصغر أهل الصناعة ، حتى فشا النقل بين تلك الطبقات كلها ، وأصبح كثير من الفاظ الجرائد لغة خاصة بها تقتضي معجماً بحاله . ولما كان الاستمرار على ذلك مما يخاف منه أن تفسد اللغة بأيدي أنصارها ، والموكول اليهم أمر إصلاحها ، وهو الفساد الذي لإصلاح بعده ، رأينا أن نفرّد لذلك هذا الفصل ، نذكر فيه أكثر تلك الالفاظ تدولاً ، وننبه على ما فيها من بيان وجهة صحتها من نصوص اللغة . وفي يقيننا أن رصفاً لنا الافاضل يتلقون ذلك منا خدمة إخلاص لهم ، لا نقصد بها إلا المحافظة على اللغة ، وصيانة أعلامهم من مثل هذه الشوائب ، مع كفايتهم مؤونة البحث والتنقيب في كتب اللغة على ما هو معلوم من وعورة مسلكها ، وشكاسة ترثيبتها ، مما كان ولا شك ، هو السبب في تجايفهم عن مراجعتها ، واستثبات صحة تلك الالفاظ منها . *

ثم يتناول ما يزيد على اربعمئة لفظة ينقدّها نقداً جزئياً نختر من بينها
أربعة أمثلة :

المثال الاول : قال اليازجي : " يقولون تكثر من هذا الامر ، اى استاء منه واشتد عليه . وقد كثره الامر واحداث عنده كدراً عظيماً . ومنهم من يقول كثره بمعنى عثفه وقرّعه وهذه الاخيرة من اصطلاح الاتراك وكل ذلك غريب عن استعمال العرب ، وان امكن رده الى وجه صحيح " (١) .

والمثال الثاني : قال اليازجي : " ومن ذلك قول الآخر (٢) ، قباب نواقيس غرناطة ، يعني بالنواقيس الاجراس ، وانما النواقيس جمع ناقوس ، وهو كما فسر صاحب القاموس ، خشبة كبيرة طويلة تفرع بخشبة قصيرة ، يقال لها الويل ، ايذانا بوقت الصلاة . وكل احد يعلم ان هذا النوع لا وجود له في كنائس غرناطة ، بل هو مما لا يعرف له وجود في جميع اوربا ، غير ان الكاتب لم يكتف بذلك حتى جعل محسول النواقيس في قباب الكنائس وهو اقرب " (٣) .

والمثال الثالث : قال اليازجي : " ويقولون هؤلاء قوم اقرب . يريدون جمع

(١) مجلة الضياء ، السنة الاولى ، الجزء ١٧ ، ص ٥١٤ .

(٢) الاخر هو شكيب ارسلان

(٣) ص ١٢٢ من لغة الجرائد .

وقد كان شكيب ارسلان في دفعه وتناوله المواد اللغوية في الرد على اليازجي يسير في طريق اليازجي نفسه حتى انه قال :

"فهذا ماتوخينا ايراده من الجواب على هذا الذي اقام نفسه صيطرا على اللغة ، وان شاء اوردنا له من لغاطه في لغة الجرائد ، وفي الضياء ، وفي البيان ، وفي الطبيب من قبله ، وفي مختصر الارجوزة ، وفي شرح المتنبي ، وفي تاريخ مادي الذي صححه وفي مناظراته العديدة مع بعض ادباء العصر ، ما يكون كتابا مستقلا ، وأريانه كيف يكون الانتقاد وابن مواضع الخطأ ، وكيف يخطب الشيخ ، وهو ينسب الخطب الى غيره (١) " .

ولعل من الجدير بالملاحظة ، ان شكيب ارسلان كان قد رد على اليازجي في تخطئة شوقي ودافع عن شوقي في روايته (عذرا الهند) التي نقدها اليازجي (٢) بهذه الطريقة نفسها ، وقد اورد ذلك في كتابه (شوقي او صداقة اربعين سنة) (٣) ولم يفت شكيب ارسلان التدليل على سعة علم اليازجي وتعمته مع غيره (٤) في الوقت نفسه ، كما ذكر ذلك في الدفاع عن رواية (آخر بني سراج) .

اما عبد الرحمن سلام في كتابه " رد الالهام " فقد نهج في رده على اليازجي نهج الشيخ نفسه . دون ان يخرج عن نطاق المدرسة التقليدية التي يرأسها اليازجي . مع ان عبد الرحمن كان قد اخذ على اليازجي تهوره وخروجه عما اراد في مقدمته من نصح للكتاب في لغة الجرائد . الا انه عاد فتناول اربعين مادة مما تناول اليازجي واعاد القول فيها بالطريقة نفسها ، ومستوى المعالجة اياها ، مع مدافعة عن الكتاب القدامى الذين انتقدهم اليازجي .

يقول عبد الرحمن سلام في مقدمة كتابه " دفع الالهام " (٥)

(١) الضياء وابن سراج : ضمن مجلد يحوى : آ - كتاب لغة الجرائد السابق ذكره .

ب - كتاب دفع الالهام لابن سراج .

ج - الضياء وابن سراج .

(٢) نقد اليازجي (عذرا الهند) لشوقي وبخاصة عبارتها واللفظها في سنة ١٨٩٧

- الروائع رقم ٤١ ص ٤٥ .

(٣) شوقي او صداقة اربعين سنة : مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر سنة

١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م ص ٥٨ - ٧٦ .

(٤) نفس المصدر ص ٥٦ - ٥٨ .

(٥) كتاب دفع الالهام ، المطبعة الادبية ، بيروت سنة ١٣١٧ هـ / ١٨٩٩ م .

• • • • • بيد انه (اى اليازجي) ملغتم ان سمّ القلم و دس السم في الدسم
وشرع يتهور في تخطئة فريق من مشاهير الكتاب والعلماء السالفين تهورا لا يكاد
يصدر عن سائق انسان خلقه الله وعلمه البيان • • • • •

وسنختار مثالين / من اربحين ردا للسلام على اليازجي •

المثال الاول : قال عبد الرحمن سلام : " غلط (اليازجي) الالبيرى في

قوله :

ومهما اكربتك صروف دهر نقل مقاله الرجل الاربب

فيرى انه لم يرد اكرب بمعنى كرب •

(قلت) اى (سلام) لا مانع من استعمال اكربه الامر مكان كرب ، ففي التاج
يقال اكربت السقاء اكربا اذا ملائه • وفي مجاز الاساس ملائ السقاء حتى اكربت—هـ
وكظفته • وفي التاج على القاموس (وكظه الامر) يكظه كظا وكظاظا وكظاظه ، بفتحهما
(بهظه) وملاءهما و (كربه وجهده) وانقله وهو مجاز •

"وعنا لنا ان نقول اذا جاز ان يأتي اكرب بمعنى كظ وكظ بمعنى كرب جاز ان
يأتي اكرب بمعنى كرب ، وعليه نقول الالبيرى صحيح لا غبار عليه " (١) •

والمثال الثاني : قال عبد الرحمن سلام : " ورد (اى اليازجي) ماورد في
تاريخ ابي الفداء " وذلك قوله في حوادث سنة ٦٥٨ وقتل مقدمهم كتبنا واستؤسر ابنه •
وكذلك ماجا في شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة في الكلام عن الاسكندر اصبح
مستأسر الاسرى اسيرا • اه •

قال اليازجي : وانما يقال استأسر الرجل بمعنى استسلم للاسر فالفعل لازم

لا متعد •

(قلت) (العبارة لسلام) ان استعمال استأسر متعديا لاشبهة فيسه
فقد صرح بذلك المطرزي صاحب كتاب المغرب ، واورد عليه حديث عبد الرحمن وصفوان
وهو (انهما استأسرا المرأتين اللتين كانتا عندهما من هوازن) •

ويعلق سلام على هذا فيقول : " فهل بعد ما اورده المطرزي مجال للاعتراف " (٢)

(١) سلام ، دفع الاوهام ، ص ١٦ — (٢) نفس المصدر ، ص ٢٨ •

ولعل ما يوضح نظرف اليازجي مع غيره في التخطئة مانقله رشيد الشرتوني في ملاحظته مع اليازجي حول لغة الجرائد ، ان نقل الشرتوني عن الجزء الثاني والعشرين من مجلة الضياء من كلام اليازجي ما يلي :

وأي

" قبل ان نمسح القلم من هذا الفصل لابد لنا من ذكر امر فاجأنا به احدى المجلات الادبية بما لم نتوقعه ، ولعل ذكره لا يخلو من فائدة وتبصرة .

وذلك ان بعض رصفائنا الالباء توهم اننا نريد من هذا البحث مناقشة اصحاب الجرائد ، نقام يرد علينا ، (١) ويشتمل الحجج والاعذار تصحيحا لبعض ما نبهنا عليه من الاغلاط .

" ولعله توخى منها ما كان قد اتفق له السقوط فيه . فكذلك ذهنه واسهر جفنه في البحث وتقليب الصحف ، ثم جاءنا بامور حاصلها تخريج بعض تلك الاوهام على بعض المذاهب الساقطة ، واحالة بعضها على بعض اللغات المتروكة ، وتوجيه بعضها على وجوه من التأويل والمجاز ما نحن اعلم به . . . ولو ذهبنا الى التخريج كما يريد هذا الاديب لما كتبنا في هذا المعنى حرفا . ان قلما تجد تركيا مخالفا للصحة الا وله وجه يرد اليه . على ان التخريج انما ينحى فيما يصدر عن قائله سهوا او لضرورة ، لا فيما يرتكب عن جهل ، او في سعة من اجتنابه ، ولا على ان يجمع قلعة يسوغ بها ركوب الشطط ، ثم تتكلف له الاعذار الباردة والحجج الواهنة ، وهذا القدر كاف في هذا المقام . "

وكأنما كان نقد ابراهيم اليازجي لغة الجرائد محورا دارت في فلكه آرا له تتصل بهذا النقصد وتشبهه الى حد كبير في المستوى وطريقة التناول .

ويحدد شاكر شقير ، وهو من اصحاب التيار المحافظ في كتابه (غصن لبنان) (٢) واجبات المنشئ فيقول :

(١) يقصد رشيد الشرتوني .

(٢) كتاب " لسان غصن لبنان في انتقاد العربية العصرية " شاكر شقير ، طبع في

المطبعة العثمانية في بعبدا (لبنان) سنة ١٨٩١ .

"ومن واجبات المنشي* ان يعرف فنون الادب ، اى علم العربية لكي يصون كلامه من الخطأ في التركيب ، والبيان باقسامه لكي يحسن تأدية المعنى بالفاظ لاتخل بالفصاحة والبلاغة ، ويسبكها في قوالب حسنة قوية (مائوسه) والعروض واطرافه لكي يأتي بنظم لايمجه الذوق ، والمنطق ، لكي يكتب عبارات حسنسة الارتباط متينة الاساس ، موقعة توقيعا قياسيا ينبوعها سيف الانتقاد العقلي ، وعلم اللغة لكي يضع كل كلمة في محلها الصحيح بحيث تؤدي مع القرينة المعنى المراد^{منها} (١) .

ولكن شاعر شقير مع هذا التحديد الذى لم يحس بمضي الوقت وما جدّ فيه من جديد لايتوانى عن الترويج للسهولة في الكتابة فيقول : " فاذا نظرنا الى ايام الجاهلية واقوالهم نرى فيها كلاما يستهجنه ابنا هذا الزمان ، ولكن يستأنس به عصرهم ، وان ملأوا الدفاتر باوصاف اباعرهم . . . فلا غرو لانه لم يكن عندهم غير هذه المواضيع ، يقلبون فيها كلامهم كيف شاؤوا . غير اننا نحن في عصر سلسلتين رائقتين ، قد احاط علما بامور بدیعة واحوال مفيدة فيطلب مايناسبه من هذا الفن فيسيفه وينثر ما يخالف طبعه فيمجه ، فالسهولة والظرافة والانسجام مع السلاسة ، والايضاح والايجاز ، وما اشبه ذلك من محسنات الالفاظ والمعاني التي هي الان المحور الذى يدور عليه دولا ب الانشاء ، والبضاعة في سوق الادب " (٢) .

وهكذا نرى شاعر شقير بعد ان حاول ان يتلمس شيئا من مطالب العصر في السهولة والايضاح يعود الى طمس هذه المحاولة بقوله ان المحسنات اللفظية والمعنوية هي المحور في دولا ب الانشاء زمه ، طمسا لايوافقه عليه حتى بعض من كتبوا من رهطه من اصحاب التيار المحافظ كشكيب ارسلان ، كما مر سابقا ، لايل نراه هو نفسه في كتابه (فصن لبنان) ينمى على بعض كتاب عصره خبطهم في انشائهم بالسجع فيقول ،

" فلم يتصدى بعض من حركت اناملهم القلم لكتابة جمل في مواضيع مختلفة ، فيخبطون خبط عشوا صارفين جهدهم الى زخرف الكلام بالتسجيع والاغراب ، ظانين

(١) نفس المصدر ص ٥٥ .

(٢) لسان فصن لبنان ص ٦ .

ان طنطنة الكلام هي الفصاحة والبلاغة ، مطلبين حيث يخل الاطناب وموجزين حيث يكون الایجاز لغزا ، يطيلون شأوا عبارتهم حتى تتشوش الافكار ، ويفصلون بعضها عن البعض بحيث تفقد الرابطة بينها كسلسلة قد انتشرت حلقاتها ، فهوهمون الجاهل انهم اتوا ببلاغة يظنها فوق طاقة ادراكه ، فيوقع الملامة على نفسه وقصر فهمه ، لكن لا يفتربها الا ديب لعلمه ان مثلها مثل طبل تكدّر رجرجته الهوا ، وهو من الداخل فارغ لامعنى فيه * (١) .

ثم يعلننا في كتابه (فصن لبنان) انه سينشر بعض ملاحظات في الاساليب وما يقع فيها من خطأ لدى بعض كتاب زمانه .

وكما عالج شقير في كتابه (فصن لبنان) قضية الانشاء بالمستوى الذي رأيناه ، عالج كذلك قضية الانتقاد ، فمعرض للغاية منه ، ولمواده ، وكيفيته .

اما اوجه الانتقاد التي عنى بها في كتابه الذي نقف عنده فتدور حول ثلاث قضايا هي على التوالي : " التمريب ، والخطأ في قواعد العربية ، واستعمال بعض الفاظها في غير محله " (٢) .

ويحدد شقير طريقته في التمريب ، وما يجب ان تخضع اليه هذه الصداقة من قوالب كي يمتنع الخطأ في رأيه . ثم يتناول الوجه الثاني من الوجوه الثلاثة السابقة فيقول :

" واما الخطأ في قواعد الصرف والنحو والبيان ولا سيما في استعمال الظروف والحروف فاكثر من ان يحصى ، فاني كل يوم ارى منه شيئا في كل المطبوعات تقريبا . والملة معروفة تصعب مداواتها ، لان كثيرين من الكتاب يكونون قد تعلموا في المدرسة بعض مبادئ العربية ، والبعض منهم لا يكون له العلم بها فيستند الى فيره . وحالما يخرج الولد من المدرسة واحيانا قبل ان يخرج ، يطرح بضاعته لدى العموم ، فيطبع المقالات والاشعار ، وهو يهرف بما لا يعرف ، فهذا الذي هتك ستر العربية ومزق حجابها - كل ممزق . " (٣) .

(١) لسان فصن لبنان ص ٥

(٢) = = = ص ٧

(٣) نفس المصدر ص ٨

ثم يقول :

"وسأبين شيئا كثيرا من هذا الخطأ ، فيتضح للمعوم لزوم اتقان قواعد

اللغة .

"وهذا الذي حملني ايضا على وضع كتاب جديد سميت " الاحكام الصحيحة

في العربية الفصحى " وهو عبارة عن ثلاثة كتب الاول في الصرف ، والثاني في النحو

والثالث في الظروف والحروف . وقد جمع هذا الكتاب فاعى اشياء مسائل لا يعرف

اكثرها الا من كثرة المطالعة ، على ان الكتاب كله لا يتجاوز اربعمائة صفحة يقطع

ربيع ، وهو حتى الان لم يطبع . . .

وعنا يقتطف شاكر شقير من كتابه المشار اليه فهدل على اتجاهه الذي لمحا

جانبا منه ، وهو رغبته في تعميم القواعد اللفظية للتعبير ، دون اعتمام بتطور العصر

والنفوس من حوله ويتناول بعد ذلك الوجه الثالث من وجوه الانتقاد ، فيرى ان استعمال

الالفاظ في غير محلها ، عمل يقتضي شرحا ^{لصحيح} ، لان كثيرين ^{يستخدمون} الكلمة لمعنى

يقصدونه ويكون معناها بالخلاف . وهو الذي حمل - كما يعتقد - على وضع كتاب اسماء

" اساليب العرب في صناعة الانشاء " (١) الذي يقول في مقدمته :

" . . . فلما كان هذا العصر الزاهر ميدانا تتسابق فيه اقلام الكتاب . . . ولم

يكن الكثير متقنا للمعوم العربية ومطلعا على اسرار اساليبها الفصحى المأهولة . .

ورأيت كتابات عديدة يرمى الكلام فيها على عواهنه رأيت من باب اللزوم . . ان اضع

كسبا مختلفة محاولا فيها تأدية قواعد هذا واساليب تراكييبها بطرق سهلة بسيطة . . (٢)

وسنكتفي هنا بذكر مثال واحد فقط .

جاء في قوله عن (بيت) : " بات يبيت (ولا تقل يبات) قض ليله يقال بات

زيد عند عمرو بات سرورا او قلقا او في هم شديد ، او في شغل شاغل ، ولا يقال بالها

عوض في الا في الضرورة .

(١) كتاب اساليب العرب في صناعة الانشاء ، مطبعة القد ، جاور جيوس للزوم

الارثوذكس بيروت سنة ١٨٩٣ وسنة ١٨٩٤ .

(٢) من مقدمة (اساليب العرب في صناعة الانشاء) ص ٢٠

"واما قولهم بات بليل النقد . فليس المراد به الظرفية ، والحرف نفسي
الموضعين متعلق بمحذوف حال من الضمير ولا يبيات بخلاف قولنا بمت في منزلي .
فتأمل .

"ومن اساليبهم باتت فلانة بليلة حرة اي لم يعرفها زوجها وبليلة
شيئا اي عرفها ، والباء استصحابية . وبات يفعل كذا ، من الافعال الناقصة مختص
بالزمان الليلي ، وقد لا ينظر فيه الى زمان مخصوص " (١) .

ما تقدم ، تبين ان كتاب شاكر شقير (اساليب العرب) عمل معجبي صغير ،
او قاموس يحاول ان يحصر فيه مارأه مفيدا في استعمال الكلمات والعبارات العربية .
وبذلك اوضح شقير في جلاء اتجاهه في محاولة تفهيد القواعد المعنية
الناطقة للتعابير اللفظية ، وما درى ان الحياة وتطورها يستعصيان على التفهيد
المتحجر ، ويتطلبان شيئا آخر ادركه جماعة من رهبان مقابل لرهبه في هذه الفترة
الزمنية التي نقف عندها وهم رهبان المجددين .

ولعل ما ذكرنا من اتجاه شاكر شقير العام النقدي يوضح في جلاء ناصع منزعه
الذي نزع اليه في خطابه الذي وجهه لجماعة الازهر في مصر في مطلع كتابه (فصن
لبنان) ودعوته لحصر التعابير العربية في قمم خشية الخطأ الذي كان يخاف منه .

قال يخاطب السادة العلماء الافاضل في الجامع الازهر من حيث هم في
رأيه " نخبة العلماء الاماثل " ويبدعهم زمام العربية بعد ان كثر عليها المقلدون
وصاروا يأتون بكل لقيطة من عباراتها مما تأباه السجية العربية والغيرة الادبية
مما اوجب عليه أي المؤلف شقير - بعد التفكير الطويل الاقدام على فتح باب
الانتقاد الخطير ، ومخاطبة علماء الازهر علمهم ينظرون الى عمله (وهو الاتيان بعجالاته
الانتقادية) بعين الحلم والقبول ولعلمهم يضعون لاحكام اللغة العربية الشريفة
بعد الحدود حدا يقف عنده الطالب ولا يتعدى ، حتى بعد الاشارة الى مايفني
من الشوارد والنوادر ، كي تصير العربية (في رأيه) على " تمادى الزمان محصورة
في احكم الدوائر " (٢) .

(١) من مقدمة اساء لبيب العرب في صناعة الانشاء (ص ٧٩ - ٨٠ .

(٢) لسان فصن لبنان ، المقدمة (بتصرف) .

ثم يخلص إلى مقترحاً على علماء الأزهر ،

• وبما يجب أن لو عقدت مجلساً يحكم منذ الآن على كل ما كتبته وطبعت ، ولابد
الصحيح منه ، وينبذ كل ما لا يحسن أن يذكر ، فتنبه من اللغة بعد خمونها ، وترجع
إلى منابتها بأصولها ، وتعود إلى زهرتها النضارة بعد ذبولها • (١)

بدور الجديد ونبذ التكلف اللغوي :

وقد آن لنا أن ~~ننتقل~~ إلى ما كان قد برغ في حياة النقد اللبنانية من بدور
جديدة منذ أخريات النصف الأول من القرن التاسع عشر لنضي معها وهي تسير في
تيار تجدد مواز لما رأيناه من تيار محافظ في ظلال اتجاه عام كنا قد اشترنا إليه •

ولعل سبق رجال هذا التيار في اطلاعنا على ما كان لديه من بدور جديد
هو أحمد فارس الشدياق ثم تلاه أديب اسحق ويعقوب صروف ثم حبيب بنوت ونجيب
الشوئي •

ورغم أن الكثير من أعمالهم النقدية هذه ، تخرج عن نطاق بحثنا ، إلا أنه
من الضرورة بمكان أن نرسم شيئاً عن نقدهم الأدبي تمهيداً لما نريد من نقد لغوي
فقد استطاع هؤلاء أن يتناولوا في شيء من التجديد بعض جوانب من قضية التأليف
وقضية الشكل والمضمون ، وبعض بدور تدفع إلى أدب مقارن ، وبعض آراء في صورة النقد
عامة ونقد الرواية أو القصة خاصة إلى جانب بعض الآراء التي تتصل بالتمثيل والشعر
والشعر •

ونحب أن يكون مدلول بدور جديد يتسق والجهود التي قام بها هذا الفريق
من أصحاب التيار المتجدد ، فإن بدوراً جديدة لا تنفي ما كان يغير شيئاً من الآراء
لدى بعض هؤلاء بغير القديم أو يوقعهم في الخيرة بين القديم والجديد ، وهي لا تنفي
كذلك شيئاً من الالتقاء بين بعض هؤلاء وبعض أصحاب التيار المحافظ ، حول بعض
الآراء ، ولكنها مع ذلك كله كانت تنعم بأضواء من جديد سمحت به الحياة والظروف العامة
منذ وقت مبكر من أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر •

(١) لسان قصن لبنان ، من المقدمة ص ٢ •

احمد فارس الشدياق :

لعمل من اقوى من اسهموا في بذور بذور الجديد في حياة النقد اللبناني في اوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو احمد فارس الشدياق .
وما يهمننا من كتبه هنا ، ماجا في كتاب (الساق على الساق) من حيث دار حول غرائب اللغة ونوادرها ، وما جا من ملاحظات نقدية تناثرت بين صفحات الكتاب نقتطف منها ماجا في شكواه من حالة النقد والنقاد في زمانه ، حيث يقول :

” حينما سرت وأيان توجهت وجدت اناسا ينتقدون عليك كلامك . فان عبرت بالواد مثلا قالوا الافصح هنا الفاء او يا وقالوا الاولى ام وهذا هو سبب قلة التأليف في عصرنا . فان المؤلف والحالة هذه يعرض نفسه للطعن والقبح والبلاء . ولا يراعي الناس ما في كتابه من الفوائد والحكم . الا اذا كان مشتملا على جميع المحسنات البديعة والدقائق اللغوية ومثل ذلك مثل رجل فاضل يدخل على قوم بهيئة رثة ورعابيل شماطيط . فالناس لا تنظر الى اديبه الباطني بل الى بزيته وزيه . والحمد لله على قلة المؤلفين اليوم في بلادنا ، اذ لو كثروا وكثر نقدهم وتخطئتهم لكثرت اسباب البغض والشاحنة بينهم ، وقد استغنى الناس عن ذلك بتلفيق بعض فقر مسجعة في رسائل ونحوها لقولك السلام والاكرام . والسنية والبهية . فاحفه ما كان ساكنا ” (١) .

وينتقد في موضع آخر في الكتاب ما كان من تكلف بدعي وتزيين لفظي يرهق كاهل الانشا والمفتئين فيقول :

” ولكن هيئات فاني ارى اكثرهم قد زاغ عن هذه المحجة ، اذ المؤلف منهم بينا هو يذكر مصيبة احد من العباد في عقله او امراته او ماله اذا به تكلف لا يراد الفقر المسجعة والمبارات المرصعة وحش قصته بجميع ضروب الاستعارات والكنائيات . وتشاغل عن هم صاحبه بما انه غير مكترث به . فترى المصاب ينتحب ويولول ويشكو ويتظلم . والمؤلف يسجع ويجلس ويرصع ويورى ويستطرده ويلتفت ويتناول المعاني البديعة . فيعد يده تارة الى الشمس وتارة الى النجوم . ويحاول انزالها من اوج سمائها الى سافل قولـــــــــــــــــه ”

(١) الساق على الساق ، الشدياق ، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - ١٩٦٦ م .
ص ١٣٢ - ١٣٣ .

ثم يتناول الشدياق موضوع تلاؤم التفسير للموضوع وتوافق المبني والمسنى
فيقول :

" اني اذا اوردت كلاما عن احمق انتقيت فيه له جميع الالفاظ السخيفة .
واذا نقلت عن امير تأديت معه في النقل ما امكن . فكأنني جالس بمجلسه . او عن امير
مثلا او مظران اتحدثه بجميع اللفظ الركيك والكلام المختل . لئلا يصعب عليه المعنى
فيفوت الغرض من تأليف هذا الكتاب " (١) .

ومع هذا الذي اوردته الشدياق من هذا الذي ندعوه في زماننا من مشاكل
للواقع في وصف الاشخاص او انطوائهم ، بما يليق ومستواهم العقلي ، وفي هذا ما فيه
من بذور جديدة ، ومع هذه الخطأ التي رسمها للمؤلفين جميعا في التأليف ، او
العناية بالجواهر وبالبناء الاصيل للمؤلفات وترك العرض والصناعة اللفظية الصارفة عن
الجواهر وكذلك الاستطراد - مع هذا كله فان الشدياق لم يخل من عيب الاستطراد
ولا من شي . من عيب العناية بالالفاظ بطريقته الخاصة ، ولا من بعض اخلال بهذا الذي
نبه اليه من مشاكل الواقع .

ولعل ذلك يفسر ما قلناه من ان بعض رجال هذا التيار المتجدد لا يخلون من
تغيير اصاب تلك البذور الجديدة التي بذروها .

اديب اسحق ويعقوب صروف :

اما اديب اسحق فكانت بذور التجديد لديه اسطع من غبار القديم ، ولمصل
لنزعة النضال ضد الحارة اثر في ذلك .

ولعل اكثر ما يلتفتنا في بذور التجديد عنده ما جاء في حديثه حول الاساليب
وما فيها من شكل ومضمون ، ومهاجمة للصناعة اللفظية في كل ذلك .

قال في كلام له على سنة جريدة مصر (١) الاولى :

(١) الساق على الساق ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(٢) جاء اديب اسحق الى القاهرة فأنشأ فيها جريدة اسبوعية (مصر : سنة
١٨٧٧) . انظر يوسف اسعد دافر : مصادر الدراسة الادبية - ج ٢ بيروت
سنة ١٩٥٦ ص ١١٢ .

"ولكن للافكار حركة مستمرة تقطع بها عقبات الالهام لتدرك غايتها وهي

الحقيقة ، وللنفوس آمال منوطسة بالاستقبال .

"ومنها تهذيب العبارة ، وتقريب الاشارة ، وتنقيح الكلام ، وتقرير المعنى في

الافهام واطراح مايتجافى من اللفظ عن مضاجعة الرقعة ، وماكان منه غريباً تنفر منه
الخواطر وتشعر النفوس ، فانه لاقدّر لمن يقول : عقنقل وفي اللغة كتيب ، وقد موس وفيها
قديم ، والشهر المنصرم وفيها الماضي والسابق ، والغابر والمنسلخ ، والمنحسم ، وكثير
غيره .

"وذلك مع تجنبنا مبتذل الكلام وسوقيه ، واطراحنا فاسد التركيب وعاميه ، فانه

د^١ اذا سرى في عامة الناس أمات اللغة ، واغلق على الطلبة معاني كتب العلم ولا

أزيد بها القارىء علما انها كنوز لا توصف نفاسة ، ولا تعد كثرة " (١) .

وواضح من كلام اديب اسحق اهتمامه بالافكار ودورها في الوصول الى الحقيقة

واهتمامه الشديد بهذه الصلة التي يجب ان تكون قوية متينة بينه وبين معاصريه
من جهة وبين التراث الادبي والثقافي العربي من جهة اخرى . غير ان مفهومه
لهذه الصلة ، وحرصه على ذلك التراث التليد لم يمنعه من تمثل عصره و بذور
الجديد فيه فقال :

"على اننا لانكر ان لحركة العصر حكما قاطعا ، ولاصطلاح اعلمه قضا"

نافذا ، وان كاتبنا في هذا الزمان لا يستطيع ان يتلو تلو السابقين من المولديس
والمقدمين ، فان علمهم كان زائدا عن حاجات عصرهم ، اما هو فحاجات عصره تزيد عن
علمه " (٢) .

ولم يبتعد الدكتور يعقوب صروف ، عن هذا الاتجاه الذي الفناه عند الشداق

واسحق فهو قد اثار اقوالا حول النقد عامة ، وخصص كذلك اقوالا بالشعر والشعرا^٢
وبالروايات ، وحاول ان يدفع الى شي^٣ من ادب مقارن . ولن نخوض تجربته ، لان ذلك
يخرجنا عن موضوعنا الاساسي ، لكننا نمسجل له موقفه من النقاد المحافظين حين عاب
عليهم اسلوب التخطئة سبيلا من سبل النقد بعد ان اخذت بوادر النهضة تتزعزع
لاعادة " شمس معارف العرب وعلومهم " الى ان يقول : " فلماذا ولما تقدم ... من

(١) اديب اسحق : الدرر - وهي منتجااته جمعها شقيقه عوني اسحق طبعة منقحة

في بيروت في المطبعة الادبية - سنة ١٩٠٩ : راجع ص ١٠٧ وما بعدها .

(٢) الدرر ص ١٠٩ .

الاسباب كثر فبيننا المخطئون ، وقل بيننا الناقدون اولم يوجدوا " (١) .

هذا وقد انتقد حبيب بنوت المحامي في المقتطف بمقالة له تحت عنوان :
(الروايا) اصحاب الضممة في لغة القصة او الرواية انتقادا لاذعا ، عرض فيه
كثيرا من النقاط التي يتلاقى فيها مع اسحق وصروف والشدياق ، حيث ينبذ التكلسف
اللغوي ويدعو الى انشاء يقوم على الذوق والطبع السليم .

وهو يقول في هذا الصدد :

" ومن الكتاب من كتب رواية بعبرة هي غاية الفصاحة ، جمعت اساليب
البيان ، وانواع البديع ، والتزم السجع في كل جملة منها ، وتلاعب في ضروف التعبير
وفنون التحبير مما يشكل على دارس اللغة ، ولا نعلم ما الغاية من ذلك " (٢) .

غير ان دعوة حبيب بنوت للسهولة في لغة الرواية واسلوبها لم تكن تعني
الركاكة والاغلاط ، لان اتجاهه من اتجاه من رأيناهم من اصحاب هذا التيار المتجدد
ولهذا اقال :

" ومن الكتاب من الفارواية بعبرة في غاية الركاكة محشوة بالاغلاط الصرفية
والنحوية ، لا تقرأ منها سطرا صحيحا ، ولا تتبين فيها معنى صريحا ، وهذا مما لا يجوز
التصامح فيه ، حرصا على شأن اللغة ، وحذرا من توهم القارى صحة العبارة على
فسادها ، ولا يخفى ما في ذلك من الضرر .

" ولا مشاحة في ان عبارة الرواية يجب ان تكون صحيحة من حيث قواعد
اللغة ، سهلة المأخذ ، قريبة المنال ، خالية من كل تعقيد ، يفهمها من درس قواعد
اللغة ومن لم يدرسها (٣) .

— نجيب الشوشاني : —

وقبل ان نختتم هذا الفصل نقف عند خطبة لنجيب الشوشاني عنوانها —

(١) المقتطف ، السنة السادسة عشرة ١ ديسمبر سنة ١٨٩١ مقال بعنوان

الشمر والشمرات .

٢-٣ ، المقتطف ، السنة الخامسة عشرة ج ١ ، ١ تشرين اول ١٨٩٠ ص ١٦ وما
بعدها .

(حالة الاقلام في هذه الايام) (١) ، كانت النظرة فيها متوازنة بحيث رأت ما وصلت اليه البلاد من تقدم الى جانب مآثره من حاجة الى تنبيه اصحاب الاقلام لما لم يغفروا من اخطائهم آنذاك .

فقد حاول ان يقارن بين حالة الاقلام في زمنه وحالتها قبل ذلك الزمن بثلاثين سنة فوجد ان التفاوت كبير كالتفاوت بين الهلال والبدر ، لما رآه من تقدم في التأليف ، والمدارس والصحف ، والاتصال بالحضارة ، ودخول اللغة دورا جديدا لا يقتصر فيه على السجع والبديع والمحسنات اللفظية ، فقد اخذ الناس يميلون الى اتخاذ الحقائق ، وقال ان من يوازن بين مقال قبل زمانه بثلاثين سنة ومقال في زمانه يجد البون كبيرا ، ان يجد ما آلت اليه الكتابة من فصاحة العبارة وحسن الانشاء ، وجمال الاسلوب ، واختيار في الالفاظ يفي بكل ذلك ، مع تقدم كبير جدا في جملة المدارك .

(١) وهو الخطاب الذي القاه نجيب الشوشاني في منتدى المدرسة البطركية في احتفالها السنوي في ١٩ تموز سنة ١٨٩٢ .

خلاصة وتعقيب

يتبين مما تقدم ، ان الدراسة الادبية اللبنانية عامة ، والنقدية
فيها خاصة ، في القرن التاسع عشر ، قد غرقت في النصف الاول من ذلك القرن
في نتاج ادبي ونقدي قديمين ، وان رواسب القديم قد تراكمت في ذلك النصف الاول
من القرن تراكما حجب عن النظر كل جديد .

فغير ان عوامل التطوير كانت تفعل فعلها في حياة الناس ، وان لم تلتفت
ثمارها النظر ، الا بعد ان اخذت بدور الجديد تلمع وسط غبار من قديم ، منذ مطلع
النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، واتساقا مع نواميس الحياة نجد العقود
الاربعة الاولى من النصف الثاني من ذلك القرن تنسم باتجاهين :

— الاول : اتجاه معاكظ في الادب والنقد وان احسن ان من واجبه
العودة الى مستوى الاداء العربي الرفيع في العهد العربية القديمة الزاهرة .

— والثاني : اتجاه فيه من بدور الجديد قدر واضح لا تنكره العين ، ولا يعز
على الدارس ان يتلصصه .

ولا يذاد الدارس يشرف على اوائل العقد الاخير من القرن التاسع عشر ، حتى
يرى ان الحياة الادبية / اللبنانية ، والنقدية منها خاصة ، قد تبلور فيها الجديد
واتضح ، بحيث برز للعيان طلائع من الجديد تنسم بالعافية والقوة ذبل امامه —
القديم يوذى ، بل اضطر الى ان يتخذ جانب لافنت منه موقف المتكيف مع الدعوة
السافرة القوية الى الجديد .

ويمكننا تحديد ميزات النقد اللغوي التي سادت القرن الماضي بالعيزات
التالية :

اولا — الاهتمام بعامل الزمن :

اخذ لغويو القرن الماضي ، بحسبانهم عامل الزمن ، واثره في تطور اللغة
والنقد اللغوي ، فأمنوا بحتمية وجوده ، ومراعاة احواله لكل عمل لغوي يريدون .
• / •

ولعل الشدياق وجرجي زيدان واديب لسحق ويعقوب صروف اول من دعا الى هذا في ابحاثهم . ولن تغرب عن بالنا نظرية النشوء والارتقاء في اللغة التي اعلنها زيدان وآمن بها ايماناً مطلقاً . ولنتذكر قوله : " فاللغة ، من ثم ، ظاهرة من ظواهر حياة الامة ، فهي خاضعة دون ريب ، لناموس النشوء والتجدد ولناموس الارتقاء العام " (١) .

هذه الحتمية التاريخية بدّ متنام صخ اللغة ، والوقوف في سبيل هذا النشوء مخالف للنواميس الطبيعية ، فضلاً عن انه لايجدى نفعا ، من هنا برزت قيمة النقد اللغوي ، كنتيجة لعمل عقل لا يطبق الوقوف او الجمود .

هذا الاثر الزمني في تطور اللغة ، طفق يدفع بها دفعا وثيدا ، فيجعلها حية متجددة ، متنامية كنمو اي ظاهرة من ظواهر حياة الامة ، كالأداب ، او الشرائع او غيرها ، فهي تسير في نموها سيرا خفيا لا يشعر به المرء الا بعد انقضاء الزمن الطويل . وهي بهذا لا تتباعد عن طبيعة التغير ، اذ تأخذ قيمة امثل في توثيقها وثبات قويمه عبر ذلك النشوء الخفي ، متأثرة بمعامل المحادثة مع الفكر والحضارة ، مما يزيد هـا نـمـا و اتساعا .

وقد تمثل هذا - كما رأينا - في اعمال الشدياق اللغوية ، فقد آمن الرجل بحتمية التطور ايماناً حـدا به الى الشكوى مما في اللغة من بطء يشبه ان يكون موتا . وفي انـها لا تخضع للحياة ولحيوية المتكلم ، وانما المتكلم هو الذي يجب ان يخضع لها " وبالجملة فان اللغة المربية تكاد تكون تعبدية فيجب الازعان لما ورد فيها من شذوذ واستثناء وجود اشتقاق فهي لا تعفو للمتكلم بل يجب على المتكلم ان يعفولها " (٢) .

لكن الشدياق - كما بينا في وضع الالفاظ - لم يقف عند حدود الشكوى هذه ، بل اجفل الى التنبيه والمزمم الاكيد على وضع الالفاظ الجديدة لما رآه في اسفاره وهو ما يزيد على مائتي مصطلح جديد امرع بهم ابحاثه اللغوية .

(١) جرجي زيدان ، اللغة كائن حي ، ص ٢٣ .

(٢) الشدياق ، الجاسوس على القاموس ، ص ٢٦ .

وهو مانعه من بعده ابراهيم اليازجي و خليل اليازجي وبشاره زلزى وسواهم .
ومن ثم ، الصعنا الى تصدى لغويينا في القرن الماضي لمشكلة الكلام المولد وقضية
الاخذ باستشهاد المولدين او الوقوف عنده . فبينما رأي هؤلاء جميعا حيث اتحدت
الهدف ، واتفقوا ان الاخذ عن المولدين شرعة لغوية ، تحتملها الحياة اللغوية
نفسها ، ايماننا منهم بناموس النشوء والارتقاء .

كما اننا تناولنا في فضل عام ، ماضيه من آراء ونظريات ومباحث في المعجم
والنقد المعجمي . بعد ان تلمسوا اسباب القصور والضعف والخلل التي طفت على
معاجمتنا القديمة ردحا من الزمن . وهو ما قام به المعلم بطرس البستاني في محيط
المحيط ومن بعده سعيد الشرتوني في اقرب الموارد ، حيث اعطيا للعربية مددا
من العطاء اللغوي ووفرة من الالفاظ المستحدثة .

ثانياً، الابداع الفردي :

كان لذلك الانقطاع الافتعالي بين اللغة العربية والانسان العربي ،
اجيالا حيز في مجال التفكير اللغوي عند علمائنا في القرن الماضي . حيث رأوا
ان الامر هذا يسرف في الاجحاف بحق الانسان واللغة على السواء ، وهو ما حدا بهم
الى العمل حثيثا على تطوير اللغة ، والانتقال بها من طور الى طور احسن ، حتى
تؤدي وظيفتها على خير وجه ، وتقابل بالتالي حاجات الانسان الجديد في حياته
الجديدة .

ولقد سار هذا العمل في اغلب الاحيان ، مسارا يجمع بين الابحاث اللغوية
من جهة ، والدعوة الى اسلوب عصري ، رصين ، جزل ، من جهة ثانية . وهو امر قسم
اللغويين الى تيارين - كما مر معنا - تيار محافظ يرى في القديم - على علته - كل
الخير وينبذ كل جديد . وتيار ثان فيه الكثير من اثار الفريق الاول ، لكنه فتح قلبه
لبذور الجديد فامرعت بين حناياه شيئا فشيئا ، حتى خطا باللغة والنقد اللغوي
خطوات جديدة بالدراسة وهو ما رأيناه في اعمال الشدياق وزيدان واسحق وصروف
وسواهم .

كما افردنا بحثنا خاصا للنظرية الثنائية ، وطريقها المتكامل في معجم
(سر الليال) عند احمد فارس الشدياق . وماكان لذلك من اثر واضح في العمل
المعجمي ، دفع به الى اوج النضوج والدقة .

ثم بيانا فضل مقام به البستاني والشرتوني في معجميهما من منهج واضح
يسبر على قراء العربية مطالعة المعجم ، وقرب الى الازدهار مفهوم المادة بعد
ان اندرجت - عندهما - حسب تسلسلها المنطقي من بد * لذكر المادة ثم مشتقاتها .
ما عصم عنهم من الفوضى والخلل والاضطراب التي كانت تشوب المعاجم القديمة .

ثالثا - معيارية الاحكام والنقد الجزئي :

هذا ، ولم يكن النزوع الى التطور والتغير كل شي * في البحث اللغوي
- يوما - بل كثيرا ماكان يمتزج الخلق والابداع الاصيلين بعقلية المحافظة
التقليدية ، المتوارثة . حتى جاز لنا القول : ان الاتجاعين سارا في مسرب
واحد ، فرضتهما البيئة الاتباعية وندرة الابحاث اللغوية في القرون السابقة من
جهة ، وارادة الذات اللبانية في اثبات وجودها عن طريق الخلق والابداع
والتححرر من جهة اخرى .

ولعل هذا مايفسر بعض التناقض الذي شاب قسما من الدراسات اللغوية
والنقدية ، التي كانت تجمع بين المعيارية او الاحتكام الى القديم والتأليف القائم على
على فكرة الجدة والابتكار .

وما دار بين الشدياق وابراهيم اليازجي ومن تبعهم من مناظرات لغوية
حول كلمة فطحل ، لخير دليل على ماذهب اليه . فهم يحتكمون الى كتب التراث
ويؤتمون بعلمائهم من جهة ، ويدعون الى الاشتقاق والنحت ووضع المصطلح من جهة
ثانية .

وقد بيانا في محاكمة الشدياق واليازجي ما بذله كل منهما من محاولات

الدفاع عن وجهة رأيه ومذهبه اللغوى ، هذا المذهب الذى اترغ النقد اللغوى من كل محتوى ، وحصره في اضيق مجالات التفكير ، مما حول البحث الى اقتناص الجزئيات اللغوية وقتلها في محاكمة عقيمة لم تتعد زوبعة في فئجان .

كما رأينا ، ان الشيخ ابراهيم اليازجي ، من اكثر هؤلاء مغالاة وتمسكا بالقديم والاحتكام اليه ، حتى بلغت به حدود التزمّت حدا مسرفا فسعى يفلط القدماء انفسهم مما جعل انصار القديم ، ممن ينهجون نهجه ، ينقلبون عليه ، وينبرون لمهاجمته ، كما فعل عبد الرحمن سلام في " دفع الاوهام " وشكيب ارسلان .

وقد ختمنا البحث برصد عام لنمو حركة التجديد التي ارتقت على يد الشدياق واديب اسحق ويمقوب صروف وسواهم

اسم المؤلف	اسم الكتاب
١٨ - ترزى ، حنا / د /	— الاشتقاق . منشورات دار الكتب - بيروت
١٩ - حسان ، تمام / د /	— مفاهيم البحث فى اللغة .
٢٠ - حتى ، فيليب / د /	— لبنان فى التاريخ . ترجمة الدكتور انيس فريجة . نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين . بيروت - نيويورك ١٩٥٩ م .
٢١ - الحصرى ، ساطع	— آراء واحاديث فى اللغة والادب
	— آراء واحاديث فى الوطنية والقومية ط ٣ دار العلم للملايين ١٩٥٧
٢٢ - الحاج ، كمال يوسف / د /	— ماهى القومية . دار العلم للملايين - ط ٢ بيروت ١٩٦٣
٢٣ - خلف الله ، محمد / د /	— البلاد العربية والدولة العثمانية - معهد الدراسات العربية العالية - ١٩٥٧ .
٢٤ - خورى ، رثيف	— فنى فلسفة اللغة . دار النهار للنشر - بيروت ١٩٦٧
٢٥ - داغر ، يوسف	— احمد فارس الشدياق ، وآراءه اللغوية والادبية . معهد الدراسات العربية العالية - ١٩٥٥ .
٢٦ - الدحداح ، رشيد	— الفكر العربى الحديث . دار المكشوف - ١٩٤٣ .
٢٧ - زيدان ، جرجى	— مصادر الدراسة الادبية .
	— احكام باب الاعراب عن لغة الاعراب . مطبعة بشاراس وسافورنين - مرسيليا . ١٨٤٩ .
٢٨ - الزركلى ، خير الدين	— اللغة العربية كائن حى . دار الهلال بمصر (بدون تاريخ)
٢٩ - السمران ، محمود حسن / د /	— تاريخ آداب اللغة العربية . الجزء الرابع ط جديدة دار الهلال ١٩٥٧ .
٣٠ - سلام ، عبد الرحمن	— تراجم مشاهير الشرق - دار الهلال .
٣١ - سابا ، عيسى ميخائيل	— الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية . ط ٢ ١٩٠٤
٣٢ - شيخو ، لويس	— وطبعة جديدة عن مؤسسة دار الهلال ١٩٦٩ .
	— الاعلام . ط ٢ جزء ٣ .
	— علم اللغة مقدمة للقارى العربى / دار المعارف بمصر ٦٢
	— رد الاوهام . المطبعة الادبية - بيروت ١٣١٧ هـ
	— الشيخ ناصيف اليازجى . سلسلة نوايح الفكر العربى ٦ / دار المعارف بمصر ١٩٦٥ .
	— الشيخ ابراهيم اليازجى . سلسلة النوايح / ١٤ / دار المعارف بمصر . ١٩٥٥ .
	— الاداب العربية فى القرن التاسع عشر . المطبعة الكاثوليكية .

- | <u>اسم المؤلف</u> | <u>اسم الكتاب</u> |
|--------------------------|--|
| ٣٣ - شبلى ، انطون | - الشدياق واليازجى • مناقشة علمية وأدبية • مطبعة جونية
(المرسلين اللبنانيين) سنة ١٩٥٠ |
| ٣٤ - شقير ، شاكر | - لسان غصن لبنان فى انتقاد العربية العصرية • طبع
فى المطبعة المثمانية • ١٨٩١ • |
| ٣٥ - الشرتونى ، سميد | - اساليب العرب فى صناعة الانشاء • مطبعة القديس
جاورجيوس للروم الارثوذكس سنة ١٨٩٣ - ١٨٩٤ • |
| ٣٦ - الشدياق ، أحمد فارس | - معجم " اقرب الموارد الى فصيح العربية والشوارد "
الجزء الاول والثانى طبعوا على مطابع المرسلين اليسوعيين
(المطبعة الكاثوليكية) سنة ١٨٨٦ •
والذيل سنة ١٨٩٣ • |
| ٣٧ - الشرباصى ، احمد | - السهم الصائب فى تخطيط غنية الطالب • المطبعة
الكلية - بيروت سنة ١٨٧٤ • |
| ٣٨ - صوايا ، ميخائيل | - معجم سر الليال فى القلب والابدال • مطبعة الاستانة
١٢٨٤ هـ • ١٨٨٤ م • |
| ٣٩ - ضومط ، جبر | - الجاسوس على القاموس • م الجواب ، الاستانة ١٢٩٩ هـ
- الساقى على الساقى • دار مكتبة الحياة - بيروت • طبع
جديدة قدم لها الشيخ نسيب وهيبه الخازن ١٩٦٦ • |
| | - كشف المخبا عن فنون اوربا ، والواسطة فى معرفة احوال
مالطة • |
| | - اللقيف فى كل معنى طريف • مطبعة الجواب ط ٢
القسطنطينية سنة ١٢٩٩ هـ • |
| | - منتخبات الجواب • مطبعة الجواب • |
| | - شكيب ارسلان ، دعاية العربية والاسلام • سلسلة اعلام
العرب / ٢١ / المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٣ • |
| | - المعلم بطرس البستاني • |
| | - ابراهيم اليازجى • منشورات دار الشرق الجديد / اعلام
الفكر العربى / ١١ / ط ١ سنة ١٩٦٠ |
| | - احمد فارس الشدياق • نفس السلسلة رقم ١٩ / ط ١
• ١٩٦٢ • |
| | - الخواطر الحسان فى المعانى والبيان ط ١ بمصر سنة
١٨٩٦ و ط ٢ مطبعة الوفاء بيروت ١٩٣٠ • |
| | - فلسفة البلاغسة • المطبعة المثمانية • بمبدا / لبنان
• ١٨٩٨ • |

اسم الكتاب

اسم المؤلف

- فلسفة اللغة العربية وتطورها • مطبعة المقتطف والمقطن
بمصر سنة ١٩٢٩ •

٤٠ - ضيف ، شوقي / د /

٤١ - ظاظا ، حسن / د /

٤٢ - عمر ، أحمد مختار / د /

٤٣ - عقيقى ، نجيب

٤٤ - عبود ، مارون

- البلاغة تطور وتاريخ • دار المعارف بمصر ١٩٦٥ •
- اللسان والانسان مدخل الى معرفة اللغة • دار المعارف
بمصر ١٩٧١ •

- البحث اللغوى عند الهنود واثره على اللغويين العرب •
دار الثقافة بيروت سنة ١٩٧٢ •

- الاستشراق • دار المعارف بمصر ١٩٦٥ •

- صقر لبنان • منشورات دار المكشوف ط١ - بيروت
١٩٥٠ •

- رواد النهضة الحديثة • دار الثقافة - بيروت ١٩٦٦ •

- جدد وقدماء • دار الثقافة - بيروت - ١٩٥٤ •

- المقدمة اللغوية • (تهذيب المقدمة) قدم لها وعلّق
عليها الدكتور أسعد على • منشورات دار النعمان
بيروت •

٤٥ - الماريللى ، عبد الله

- المقد البديع فى فن البديع • المطبعة العمومية الكاثوليكية
بيروت سنة ١٨٨١ •

٤٦ - عواد ، بولس

- اشعات مجتمعات فى اللغة والادب • دار المعارف بمصر

٤٧ - المقاد ، عباس محمود

- سلوان الشجى فى الرد على ابراهيم اليازجى •

٤٨ - عبد السيد ، مخايل

- مطبعة الجوائب - الاسكندرية سنة ١٢٨٩ هـ •

٤٩ - فروخ ، عمر / د /

- التبشير والاستثمار فى البلاد العربية • ط٢ ١٩٥٧ •

مع مصطفى خالدى

٥٠ - الفراهيدى ، خليل أحمد

- من كتاب المين • تحقيق الدكتور عبد الله درويش

- م العانى - بغداد سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ •

- لبنان الشاعر • دار الحضارة • ط٢ ١٩٦٤ •

- فقه اللغة ، دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية •

- مطبعة جامعة دمشق (بدون تاريخ) •

٥١ - لبكى ، صلاح

٥٢ - المبارك ، محمد / د /

- الحركة الفكرية والادبية فى جبل عامل • دار الاندلس

٥٣ - مكى ، محمد كاظم

ط١ ١٩٦٣ •

- الاشتقاق والتعريب • ط٢ مطبعة لجنة التأليف والترجمة

٥٤ - المغربى ، عبد القادر بن مصطفى

والنشر سنة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م •

- الاتجاهات الادبية فى العالم العربى الحديث •

٥٥ - المقدسى ، أنيس / د /

- تطور الاساليب النثرية فى الادب العربى • دار العلم للملايين

١٩٦٥ •

- المطبعة الكاثوليكية - بيروت - ١٩٥١ •

٥٦ - الكتاب المقدس

اسم الكتاب

اسم المؤلف

- تاج المروس • دار ليبيا للنشر والتوزيع ط أوفست
بنغازي • من الطبعة الاولى (المطبعة الخيرية
لنشاء بجمالية مصر سنة ١٣٠٦ هـ
- القاموس المحيسط • ط ٢ مطبعة مصطفى البابي
الحلي وأولاده • سنة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م
- المعجم العربي • نشأته وتطوره • جزآن • دار مصر
للطباعة • ط ٢ / ١٩٦٨ •
- برتوكولات حكماء صهيون (ترجمة) المجلد الثاني
• ١٩٦٧ •
- تنبيهات اليازجي على محيط البستاني • ١٩٣٢ •
- فقه اللغة • دار نهضة مصر للطبع والنشر • القاهرة
ط ٦ /
- النقد الادبي الحديث في لبنان (جزآن) دار المعارف
بمصر • ١٩٦٩ •
- الطراز المعلم • المطبعة المخرسية سنة ١٨٦٨ •
- عقد الجمان مع ملحقة دائرة المروض • وقد جمعت في
كتاب مجموع الادب في فنون الادب •
- المطبعة الاميركانية ١٩٠٨ و ١٩٣٢ و ١٩٤٨ (بيروت)
- مجمع البحرين • منشورات مكتبة الطلاب - بيروت
المطبعة التجارية •
- اللباب في اصول الاعراب • طبع في بيروت سنة ١٨٨٩ •
- مطالع السعد لمطالع الجوهر الفرد • المطبعة الوطنية
١٨٦٥ • ط ٤ مطبعة صبرا • بيروت - سنة ١٩٠٨ •
- فصل الخطاب في اصول لغة الاعراب • بيروت سنة ١٨٨٩ •
- الجمانة في شرح الخزانة ومختصره بقلم ابنه ابراهيم
المطبعة الادبية - بيروت - سنة ١٨٨٩ •

- ٥٧ - مرتضى السيد محمد
- ٥٨ - مجد الدين الفيوزبادي
- ٥٩ - نصار محسن / د /
- ٦٠ - نويهض معراج
- ٦١ - النحاس جبران
- ٦٢ - وافي على عبد الواحد / د /
- ٦٣ - ياغي هاشم / د /
- ٦٤ - اليازجي • ناصيف
مع شروحات ابنه (ابراهيم)

الرقم	السنة	المجلد	البحث	اسم المجلة
ج ٢٠ م ٤٠	١٩٥٦	١	المعجم العربي ، عدنان الخطيب	١ - مجلة المعجم العربي بدمشق
م ٤٠	١٩٦٥	٢	الالفاظ الشدياقية لظافر القاسم	
٢١ و ٢٢ و ٢٣ و ٤١		٣	اخطاء الشرتوني لاحمد رضا	
٧:٦		٤	ابراهيم اليازجي	٢ - المقتطف
١٨٨٢/١٣٢/١٥		٥	عن يوسف الاسير	
٦٢٥/٣١ م		٦	عن الشدياق	
١٩١٢	٤١	٧	الشرتوني لرشيد عطيه	٣ - المشرق
	٢ م	٨	الشرتوني	
٦	٢٤ م	٩	عن الاسير	
	١٢ م	١٠	" اليازجي (ابراهيم)	
	١٧ م	١١	عن ابراهيم اليازجي	٤ - الضياء
٤٤٩:٦		١٢	عن لغة الجرائد	
٦٦:١		١٣		
٢٥٧:١		١٤		
١٩٣:٧		١٥		
١٩٦:٣		١٦		
		١٧	الاعداد : ١١٥ - ١٣٧ - ١٣٩ - ١٣٢ .	٥ - العربي
		١٨	عدد خاص عن ابراهيم اليازجي السنة ١٩٤٧/٣٣ ج ٦ .	٦ - المسرة
١٩٢٤/١٠		١٩	ناصر اليازجي والشدياق لهنري بيريس	٧ - المكشوف
٤٢٧-٤٢٩		٢٠	" " (عدد خاص)	
١٩٤٦	٢/١٥	٢١	الشدياق (عدد خاص)	
١٩٣٨	١٧٠	٢٢	عدد ٥٦٤ ك ٢٠ سنة ١٨٧١	٨ - الجوائب
		٢٣	والاعداد ك ٢ سنة ١٨٧٢ وما بعدها	
		٢٤	ومنتخبات الجوائب ج ١ و ٢ ط ١ . مطبعة الجوائب سنة ٨	

فهرس المحتويات

الصفحة	الفصل
	الباب الأول
١١ - ١	الفصل الاول : الحياة السياسية في القرن التاسع عشر في لبنان
٢٠ - ١٢	" الثاني : " الاقتصادية والاجتماعية
٢٨ - ٢١	" الثالث : " الثقافية
	الباب الثاني
٤٩ - ٢٩	الفصل الاول : المدارس وازد واجية اللغة في القرن التاسع عشر في لبنان
٥٥ - ٥٠	" الثاني : اللجنة بين ازد واجيات التركية والسريانية والفرنسية والانكليزية
٦٨ - ٥٦	" الثالث : حركة الاستشراق واثرها في اللغة من خلال لغويي القرن الماضي
٨٨ - ٦٩	" الرابع : التبشير ودور الرساليات في لبنان في القرن الماضي
	الباب الثالث
١١٨ - ٨٩	الفصل الاول : اتجاهات البحث اللغوي في لبنان في القرن التاسع عشر
١٣٣ - ١١٩	" الثاني : الفترة المحيطة عند لغويي القرن التاسع عشر في لبنان
١٥٨ - ١٣٤	" الثالث : محاجم القرن التاسع عشر في لبنان
١٨١ - ١٥٩	" الرابع : التصريب ووضح الالفبائية في القرن الماضي عند اللبنانيين
٢١٦ - ١٨٢	" الخامس : النقد المصححي عند لغويي القرن التاسع عشر في لبنان
٢٤٥ - ٢١٧	" السادس : الدرس البلاغي في القرن التاسع عشر في لبنان
٢٦٢ - ٢٤٦	" السابع : مسائل الصرف والنحو في القرن الماضي في لبنان
٢٩٦ - ٢٦٢	" الثامن : النقد اللغوي في القرن التاسع عشر في لبنان
٣٠١ - ٢٩٧	فهرس المصادر والمراجع
٣٠٢	فهرس الصحف والمجلات
١٠٦	فهرس الخرائط